أبو الأعلى المودودي

نحن والحضارة الغربية

الدار السعودية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

نَحنُ والحضَارة الغَربيّة

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة

الإدارة: البغدادية - عمارة الجوهرة - الدور الثاني
شقة ٧ - ١١ - ١٢

● تليفون: ٦٤٣٢٨٢١/ ٦٤٢٤٢٥٥/ ٦٤٢٤٠٤٣
● تلكس FONOON. 602687
NASHRA. 404351
فاكس ٦٤٣٢٨٢١
FAX 6432821

● ص. ب. ٢٠٤٣ - الرمز البريدي ٢١٤٥١
المكتبة: شارع الملك عبد العزيز.
تليفون ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة: شارع فلسطين - مركز الزومان
تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام:
الشارع العام - ص. ب. ٨٩٩
تليفون ٨٣٢٣٥١٥/ ٨٣٣٥٥٢٠
فاكس ٨٣٣٥٥٢٠
FAX 8335520

أبو الأعلى المودودي

نحن والحضارة الغربية

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

مقدمة

يقول شاعر عربي قديم

وإنما الأمم الأخلاق ما صلحت
فإن همو فسدت أخلاقهم فسدوا

تناول أمير الشعراء أحمد شوقي هذا البيت من الشعر وعدّل فيه قائلا :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يعني هذا القول أن الأمم تزدهر بأخلاقها ، وتنحط بفساد أخلاقها وسوء تدبيرها .

وهذا ما رأيناه في العصر الإسلامي الأول ، عصر محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، يوم عبد المسلمون الله تعالى وحده ، ولم يشركوا بعبادته أحداً ، حيث قويت شوكتهم ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ولكن جاء من بعدهم المترفون وحادوا عن جادّة الصواب وبدأ الارتخاء الإسلامي ، وتفرّق المسلمون أمما وشيعاً ؛ كلٌ يجّبذ دينه على حد قول المعرِّي الشاعر الكبير ، وراحت كل فئة منهم تناويء أختها ، وتزاحمها على شهوات الدنيا والسلطة ؛ فدبَّ الضعف في المسلمين وفسدت سريرتهم .

وكانت استفاقة الغرب ضغثاً على أبّالة . فما قويت شوكته حتى راح يعمل على تقويض دعائم الإسلام . وكانت له السيطرة على أكثر البقاع الإسلامية فبثّ في المسلمين روح الدعة والترف والتهافت على ملاذّ الدنيا ، واستمراء كل ما هو آتٍ من الغرب ، فأبعدوهم عن الله وتخلّى الله تعالى عنهم ؛ ولن ينصرهم حتى يعودوا إلى نصره .

انحدر المسلمون أخلاقيّا وعلميّا وحضارة ؛ وما زالوا في انسياقهم وراء المدنية الغربية المادّية حتى صار كثير منهم يتباهى بالرطانة الفرنسيّة وأكثر منهم بالرطانة الإنكليزيّة ، وراحت الثقافة الغربية تنخر عقولهم حتى أضحوا يمجّدون كل ما هو غربي ويسخرون من دين الإنسانية والعدل والصلاح ، وكأن حال لسانهم يقول : إن هي إلّا حياتنا الدنيا .

والمودودي ، في كتابه هذا ، والذي كتبت موضوعاته في مناسبات مختلفة ، هاله ما وصلت إليه حال المسلمين ، في بلاده الهند خاصة وفي جميع أقطارهم عامة ، فبيَّن بإسهاب الأسباب التي أدّت إلى تخاذلهم ؛ وحاول أن يجد الحلول لرفعة المسلمين

وعودتهم إلى أصالتهم الدينية التي تدعوهم أيضا إلى أن يأخذوا نصيبهم من أطايب الدنيا إلى جانب عبوديتهم لله وحده .

وهو بذلك يدعو إلى الإصلاح وإلى ثورة صالحة على الأوضاع ، لا بالانقلابات العسكرية المفاجئة ، التي ضررها أكبر من نفعها ، بل بتغيير المفاهيم التي تلقّفها المسلمون من أسيادهم الغربيين ، للعودة إلى الدعوة الإسلاميّة كما قام بها الرسول الأعظم ، ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الراشدون .

إنه يدعو إلى نقض برامج التعليم وإعادتها إلى أصالتها الدينية مع الأخذ بالمفيد من حضارة الغرب التي لا تتعارض والإسلام ، على أن يكون الإصلاح بالكلمة الطيِّبة والموعظة الحسنة ، والبعد عن الفظاظة .

ونهاية القول : إن دين الإسلام هو دين القيّمة ، لا يستقيم آخره إلا بما استقام به أوَّله .

الناّشر

الفصل الأول

عبوديتنا الفكرية وأسبابها

إن الحكم والسيادة ، والغلبة والاستيلاء نوعان : أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية ، والآخر المادية والسياسية . فأما الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أمة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها ، فتتغلب نظراتها على الأذهان وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر وتنطبع بطابعها العقليات . فتكون (الحضارة) حضارتها و (العلوم) علومها و (التحقيق) ما تقوم به هذه و(الحق) ما هو عندها حق و (الباطل) ما تحكم هي عليه أنه باطل . وأما الغلبة من النوع الآخر فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث تعود الأمم الأخرى لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها . فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شؤونها كاملة أو إلى حد ما . وكذلك الهزيمة والخنوع نوعان : أحدهما الهزيمة الفكرية والأخرى السياسية . وقس بيان هذين على ما سبق من بيان نوعي الغلبة .

وهذا النوعان من الغلبة والاستيلاء منفصل بعضهما عن بعض ، فلا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية ، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مصحوبة بالغلبة المعنوية في كل حال . على أن القانون الطبيعي هو أن كل أمة تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والعقل وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي ايضاً . وكل أمة تتقاعد في السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك . ثم إنه لما كانت الغلبة نتيجة القوة ، والهزيمة عاقبة الضعف فإن الأمم المتخلفة من الوجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للخنوع ، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معاً .

إن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة ، فمن أوطانهم ما توجد فيه العبودية بنوعيها جميعاً . ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية . ومن سوء الحظ أنه ليست لهم على ظهر الأرض رقعة إسلامية واحدة مستقلة تمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية . وأما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي فهم ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية الفكرية . فها هي ذي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم

وأسواقهم ومجتمعهم حتى وأجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علومه وآدابه وأفكاره . فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهدها لهم الغرب . وقد رسخ في نفوسهم ، سواء أشعروا به أم لم يشعروا ، أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق والباطل ما يعدونه هم باطلاً ، إن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذيب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك . فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ما عندهم من الأفكار والتصورات والمدنية والتهذيب والأخلاق والآداب . فكل ما يطابق منها ذلك المقياس يطمئنون إلى صدقه ويفتخرون بمجيء أمر من أمورهم موافقاً للمعيار الأوربي . وأما ما لا يطابقه منها فيظنونه خطأ وباطلاً ، أشعروا بذلك أم لم يشعروا ، ثم يأتي المتعسف منهم فيتبرأ منه ويرفضه علناً ، ويقف المقتصد منهم باخعاً نفسه عليه ، أو يعود يعالجه جذباً ومداً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه .

* * *

وإذا كانت هذه حال الأمم المستقلة منا فحدث ولا حرج عن حال العبودية الفكرية في الأمم المسلمة التي هي واقعة تحت حكم الغرب . أما السبب لهذه العبودية فموضوع يحتاج التبسط فيه إلى كتاب خاص ، ولكنا نستطيع أن نختصره ونلمّ

به في كلمات معدودة :

إن الغلبة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على الاجتهاد والتحقيق العلمي . فكل أمة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة العالم وزعامة الأمم ، وتستولي أفكارها هي على العقول . وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد مناصا من اتباع الغير وتقليده ، إذ لا تبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والأصالة ما يكسبها السيطرة على الأذهان ، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تتقدم بها الأمة الباحثة المجتهدة ، وهي تكون في وجهه كغثاء السيل ، لا تستطيع أن تدافعه أو تثبت أمامه . إن المسلمين ما داموا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد بقيت جميع الأمم تابعة لهم وسائرة في ركابهم ، وما برح الفكر الإسلامي غالباً على أفكار النوع الإنساني بأجمعه ، وكل ما اتخذه الإسلام من المقياس للخير والشر والحسن والقبيح والخطأ والصحيح تقدر مقياساً أصيلاً لكل تلك الصفات عند جميع أهل الارض ، سواء أعرفوا أم لم يعرفوا . وما زالت الدنيا تحاول أن تطبق أفكارها وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً او كرهاً . ولكنه لما انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق ، وقعد بهم اللغوب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم ، فلكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم من قيادة العالم ، ونهضت من

جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل ، تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والتدبر وتنقب عن أسرار هذا الكون وتبحث عن ذخائر القوى الفطرية المكنونة في جوف الأرض وأعماق البحار . فكانت نتيجة ذلك ما يجب أن تكون ـ هو أن انتقلت قيادة العالم إلى أمم الغرب ، واضطر المسلمون إلى الخضوع لسلطتها كمثل ما خضعت الأمم ـ من قبل ـ لسلطتهم .

ما زال المسلمون يتقلبون في أعطاف العز والمجد والنعيم الذي ورثوه عن آبائهم مدة أربعة قرون أو خمسة . وبقيت الأمم الغربية في أثنائها تعمل وتسعى وتجتهد . . . وعن غير بعيد تدفق سيل السلطة الغربية فجأة وجعل يمتد إلى الشرق والغرب حتى غمر ربوع الأرض في مدة قرن واحد . ولما تنبه هؤلاء الغافلون النيام من سباتهم الطويل فتحوا أعينهم ليتبينوا ماذا طرأ على الدنيا في أثناء ذلك ، رأوا العجب العاجب ، رأوا أمامهم أوربا المسيحية متسلحة بالقوتين قوة العلم والسيف معاً ، ومستبدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً . عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة تحاول سد نفوذها ودفع تيارها عن بلاد الشرق ، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين ـ العلم والسيف ـ على شيء يذكر ، فظلت تفشل وتنهزم في وجهها . وأما السواد الأعظم من الأمة المسلمة فسلكوا ما كان منذ الأزل مذهب أهل الضعف وأبناء الهوان ، وذلك أنه كلما جاءهم من

قبل الغرب من الأفكار والمبادىء والنظريات مدعماً ببأس الحديد ومعززاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاًبمفاتن الألوان أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها . وأما المعتقدات الدينية والمبادىء الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقليد والآثار فحسب فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي ، واستقر في سويداء قلوبهم ـ من حيث لا يشعرون ـ أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقياس للصحة والصواب .

إن الامم التي عارضت حضارة الغرب وزاحمتها كانت من أنواع ثلاثة : أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها . وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بازاء حضارة قوية أخرى . وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة . كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية وتلونت بلونها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك . ولكن المسلمين كانت حالهم غير حال تلك الأمم جميعاً ، لأنهم حاملو حضارة مستقلة تامة ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل ، تختلف اختلافاً كلياً عن مبادىء الحضارة الغربية . فكان ـ بطبيعة الحال ـ أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل مجال وتصطدمان على كل

صعيد ، ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يؤثر في كل شعبة من شعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أسوأ الآثار .

* * *

إن الفلسفة والعلوم التجريبية (Science) اللتين نشأت في أحضانهما المدنية الغربية ما زال اتجاههما إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة منذ خمسة او ستة قرون . لذلك ما أن ظهرت هذه المدنية إلى حيز الوجود حتى قامت تعارض الدين وتخاصمه . بل الأصح أنها كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان . ومع أن الدين لم يناقض شيئاً من مشاهدة آثار الكون والتنقيب عن أسرارها واكتشاف قواعدها الأصولية ، ولا خالفت تعاليمه عملية التفكير في مظاهر تلك الآثار واستخراج النتائج منها بعد ترتيبها وإعمال القياس والاستدلال فيها ، إلا أنه كان من سوء المصادفات أنه لما ظهرت الحركة العلمية الجديدة في أوربا على عهد النهضة الجديدة (Renaissance) وقع عراك شديد بينها وبين القسس النصارى الذين كانوا قد بنوا عقائدهم الدينية على أسس الفلسفة والحكمة اليونانية القديمة ، وكانوا يزعمون أنه إن جاء التحقيق العلمي والاجتهاد الفكري الجديد يصطدم بتلك الأسس ويهدم ركناً من أركانها فإن الدين بنفسه سينهدم ويتسوى بنيانه مع الأرض . فهذا الزعم الخاطيء جعلهم

يخنقون الحركة العلمية الجديدة ويستخدمون القوة والعنف لمنعها والصد عنها. فأقيمت محاكم التفتيش (Inquisitions) لمحاكمة القائمين بتلك الحركة فعوقبوا أشد العقوبات ونكل بهم من غير رحمة . ولكن هذه الحركة التي كانت نتيجة نهضة حقيقية راسخة الأصل بقيت تقوى وتنمو على رغم أنف الشدة والقهر ، إلى أن طغى سيل الحركة الفكرية في البلاد وذهب تياره بالسلطة الدينية .

وكان الصراع في بدء أمره بين دعاة حرية الفكر وبين الزعماء الدينيين . ولكن هؤلاء الزعماء لما كانوا يحاربون أنصار الحرية الفكرية باسم الدين ، لم يلبث أن تحول هذا الصراع إلى حرب بين حرية الفكر والنصرانية ، ثم جعل الدين في نفسه ـ أيا كان ـ خصيم هذه الحركة وندها المحارب . وأصبح التفكير على الطريقة العلمية المنسقة شيئاً مضادا لطريق الفكر الديني ومختلفاً عنه . ووجب على كل من يفكر في مسائل هذا الكون بالطريقة العلمية المنطقية أن يشق لفكره طريقاً آخر مغايراً للنظرية الدينية في تلك المسائل . إن التصور الأساسي للنظرية الدينية في هذا الكون هو أن كل ما لهذا العالم الطبيعي (Physical World) من المظاهر والاثار يجب أن ترد علتها إلى قوة أعلى وأرفع من هذا العالم . ولكنه لما كانت هذه نظرية أعداء الحركة العلمية الجديدة قرر أصحاب الحركة العلمية أن يحاولوا حل لغز هذا الكون بدون أن يفرضوا وجود إله أو ذات فوق الطبيعة

(Supernatural) وأن يعدوا كل طريقة تبحث في مسائل الكون بفرض وجود الإله طريقة رجعية غير علمية (Unscientific) . وبذلك نشأ في قلوب أهل الحكمة والفلسفة في هذا العصر الجديد تعصب على الوجود الإلهي والروح والروحانيات وكل ما فوق الطبيعة ، لم يكن آتياً من ناحية العقل والاستدلال ، بل كان نتيجة لثورة العواطف وغليانها . فكان هؤلاء الحكماء والفلاسفة المستنيرون لا يتبرأون من ذات الله بحجة أنه قد ثبت لهم عدم وجوده أو عدم وجوبه بالأدلة والبراهين ، بل كانوا ينفرون منه لكونه معبود خصومهم وإله المخالفين لحرية فكرهم . ومن ثم كان كلما أتت به عقولهم وأفكارهم وأنتجته مساعيهم العلمية في القرون الخمسة التالية نابتاً من جذور هذه النزعة غير المنطقية .

إن الفلسفة والعلوم التجريبية لما بـدأ سفرهما في مضمار العمل فمع أنهما كانتا تتجهان الى الوجهة المخالفة للإيمان بالله ، كانتا بحكم الوسط الديني الذي يكتنفهما تتكلفان الموافقة بين المذهب المادي والايمان بالله باديء ذي بدء . ولكنه كلما تقدما في المسير ظل المذهب المادي يتغلب على الإيمان حتى خلت تلك الفلسفة والعلوم من تصور وجود الإله وكل ما فوق الطبيعة . وانتهت بهما الحال إلى أنّه لم يبق شيء من أشياء هذا الوجود ، سوى المادة والحركة ، حقيقياً عندهم . وأصبحت العلوم التجريبية (Naturalism) مرادفة للمذهب المادي ، وقر اعتقاد اصحاب الحكمة والفلسفة على

أن كل ما لم يكن قابلاً للوزن والذرع ، فهو خيال لا حقيقة له .

يشهد بهذا كله تاريخ الفلسفة والعلوم الغربية . فهذا ديكارت (Descartes)[١] الذي يعد أبا عُذْر فلسفة الغرب يؤمن - بجانب - بوجود الله أحر ما يكون من الإيمان ويقر بوجود الروح مستقلاً عن المادة . ثم هو الذي يبتدع - بجانب آخر - تعليل آثار العالم الطبيعي على الطريقة الميكانيكية ويضع الصخرة الأساسية لذلك الطريق الفكري الذي تحول فيما بعد إلى مادية خالصة (Materialism) . ويتلوه هوبز (Hohbes)[٢] فيتقدمه في هذه الجهة خطوة ، يخالف ما فوق الطبيعة علناً ، ويعد نظام هذا العالم وكل شيء من أشيائه قابلاً للتعليل الميكانيكي ولا يقول بوجود قوة نفسية أو روحية أو عقلية تملك التصرف في هذه الدنيا المادية . ولكنه مع ذلك كله يعتقد بالله وذلك من حيث أن الاعتقاد بمثل هذه العلة للعلل ضرورة يستلزمها العقل . وفي هذا العهد يظهر سبي نوزا (Spinoza)[٣] زعيم حاملي راية النزعة العقلية (Rationalism) في القرن السابع عشر ، فلا يفرق بين المادة والروح والوجود الإلهي بل يجمع بين الإله والكائنات ويجعل منهما كلاً واحداً ولا يقر بهذا الكل بسلطة الله المطلقة .

---

(١) المتوفى سنة ١٦٥٠ .
(٢) المتوفى سنة ١٦٧٩ .
(٣) المتوفى سنة ١٦٧٧ .

كـذلـك يجيء لبنيـز (Leibnitz)[١] ولـوك (Locke) الانجليزي[٢] كلاهما يقول بوجود الله وينزع مع ذلك إلى المذهب المادي .

هذه فلسفة القرن السابع عشر التي كان الإيمان بالله يتماشى مع المذهب المادي فيها جنباً لجنب ، وكذلك كانت العلوم التجريبية أيضاً لم يغلبها طابع الإلحاد الكامل إلى هذا العهد ، فلم يكن كوبرنيكس (Copernicus) وكيبلر (Kepler) وجيليلو (Galilio) ونيوتن وغيرهم من أساطين العلوم الطبيعية ، لم يكن أحد منهم منكراً للوجود الإلهي ، ولكنهم كانوا يقصدون ، من بحثهم عن أسرار هذا الكون بقطع النظر عن النظرية الإلهية ، أن يعثروا على تلك القوى التي تدبر هذا النظام ، وعلى القوانين التي هو جار عليها . وهذا النفور من النظرية الإلهية كان هو النواة للدهرية والمادية اللتين طلعتا من شجرة حرية الفكر فيما بعد . غير أن حكماء القرن السابع عشر لم يشعروا بذلك . وما استطاعوا أن يضعوا الحد الفاصل بين الإيمان بالله والمادية ، وإنما ظلوا يزعمون أنهما عقيدتان متآخيتان قد يجمع المرء بينهما في الوقت الواحد .

حتى جاء القرن الثامن عشر . فتبين فيه لأهل النظر أن كل أسلوب للفكر يبحث عن نظام هذا الكون بصرف النظر

(١) المتوفى سنة ١٧١٦ .
(٢) المتوفى سنة ١٧٠٤ .

عن وجود الإله لا بد أن يصل إلى الإلحاد والمادية واللادينية . وفي هذا القرن نبغ أمثال جان طولند (Toland) وداوود هارتلي (David Hartley) ويوسف بريستلي وفولتير (Voltaire) ولامتري (La Mettrie) وهولباخ (Holbach) وكيبانس (Cabanis) ودينس ديديره (Denis Didaro) ومونتسكيو (Montesquieu) وروسو (Roussea) من أقطاب الفكر الحر من الحكماء والفلاسفة الذين جاؤوا إما ينفون وجود الله علناً أو يصدقونه من حيث هو حاكم دستوري (Constitutional Monarch) ليس إلا ، قد انزوى في ملكوته السماوي بعد أن أعطى هذا الكون خلقه وحرك دولابه ، فليس له الآن في تدبير هذا النظام يد . كان هؤلاء لا يعتقدون بشيء خارج الطبيعة وفوق عالم المادة والحركة ، وكانوا لا يعتقدون الحقيقة لشيء سوى ما يأتي تحت مشاهدة الإنسان وتجربته . وجاء هيوم (Hume) يؤيد هذا الطريق الفكري أقوى ما يكون من التأييد بنظريته التجريبية (Empiricism) وفلسفته التشكيكية (Scepticism) ، وأعاد فبدأ في الدعوة لجعل التجربة هي المقياس لصحة العلوم العقلية . وقام بركلي (Burkeley) إلى هذا التيار المادي المتدفق يزاحمه ويدافعه بكل ما في وسعه ، إلا أنه لم يوفق . وكذلك ابتغى هيجل (Hegel) أن يعارض المادية بإشاعة المثالية (Idealism) بين الناس ، ولكن قل من عكف على هذا المذهب الخيالي اللطيف منصرفاً عن المتجسمة المرئية . وحاول كانت (Kant) أن ينهج طريقاً وسطاً بين

المادة والروح . فقرر أن وجود الإله وبقاء الروح وحرية الإرادة كل أولئك ليس مما يقع تحت علم الإنسان ومشاهدته ولذلك فمن غير المستطاع إدراكه بالحواس . إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نؤمن بكل ذلك إيماناً بالغيب،وبما تقتضي الحكمة العملية (Practical Wisdom) أن نفعل .

هذه كانت آخر محاولة للموافقة بين الاعتقاد بالله والمذهب المادي (Naturalism) ولكنها باءت بالفشل . ذلك بأن الضلال الفكري والعقلي لما جعل الوجود الإلهي نتيجة وهم خيال أو أنزله ـ على أكثر التقدير ـ منزلة وجود منعزل عن التدبير ، لا أمر له ولا سلطان ، عاد الاعتقاد به والخشية منه والرغبة في رضاه لمجرد الأخلاق والآداب شيئاً عبثاً لا يرضى به العقل .

* * *

وفي القرن التاسع عشر بلغت المادية منتهاها . إذ جاء كل من فوغت (Vogt) وبوخنر (Bochner) وزولبي (Cxalbi) وكومت (Comte) ومولشات (Molschotte) ومن لف لفهم من الحكماء والفلاسفة يبطل وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها. وقام مل (Mill) بإشاعة المذهب التجريبي (Empiricism) والمذهب النفعي (Utilitarianism) في الأخلاق . وعرض سبنسر (Spencer) بكل قوة وشدة النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق ، وبظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها . وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون كعلوم الحياة (Biology) والعضويات

(Physiology) والحيوان (Zoology) وطبقات الأرض (Geology) وتقدم العلوم التجريبية وتكاثر الوسائل المادية - جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق ، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومه وليس من ورائه مدبر ، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون لذات فوق الطبيعة أثر يعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها . وأن المادة غير ذات الروح لم تكن تتلقى الروح بأمر من رب ، وإنما المادة متى ارتفعت في نظمها وتركيبها وقعت فيها الروح من ذات نفسها . وأن النمو والحركة التابعة للإرادة والإحساس والشعور والفكر ، كل أولئك خصائص لتلك المادة المرتقبة . وكل من الحيوان والإنسان آلات تجري وتتحرك بحسب قوانين الطبيعة ، وتصدر منها الأفعال والحركات على حسب التركيب الذي قد ركبت عليه أجزاؤها وآلاتها . وهي ليست على شيء من الاختيار الذاتي والإرادة المستقلة . وأما إذا اختل نظام تلك الآلات أو نفدت قوتها فعندئذ يحدث الموت ، وهو بمثابة الفناء الأبدي ، لأن الآلة إذا انكسرت وتفرقت أجزاؤها ، بطلت أيضاً خصائصها ، ولم يعد من الممكن جمعها وإعادة تركيبها مرة أخرى أبداً .

ثم كان لنظرية داروِن (Darwin) في الارتقاء أوفر النصيب في تدعيم هذا المذهب المادي وإحلاله محل النظرية العلمية المنظمة القائمة على الأدلة والبراهين . ويعد

كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) الذي ظهر سنة ١٨٥٩ لأول مرة كتاباً انقلابياً عجيباً . فاستدل دارون بالطريقة التي كانت أمتن الطرق للاستدلال عند العقول المستنيرة السانتيفيكية في القرن التاسع عشر ، وصدق النظرية القائلة بأن نظام هذا الكون يمكن أن يجري بدون الإله ، ولم تكن آثار الطبيعة ومظاهرها لتكون لها علة أو مرجع غير قوانين الفطرة نفسها ، وإن ارتقاء الموجودات من أبسط مراحل الحياة أعلاها وأقصاها نتيجة عمل تدريجي لقوة طبيعية متجردة من صفات العقل والحكمة . وليس خالق الإنسان وخالق سائر الأنواع الحيوانية بصانع حكيم ، بل الأمر أن تلك الآلة الحية التي كانت في بداية أمرها دوداً يدب قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة كتنازع البقاء وبقاء الأصلح والانتخاب الطبيعي إنساناً ناطقاً ذا إحساس وشعور .

هاتان هما الفلسفة والعلوم التجريبية اللتان قد نتجت عنهما الحضارة الغربية وهي كما ترى لادينية بحتة لا مجال فيها لمخالفة إله في السماء عليم وقدير ، ولا وزن فيها لنبوة أو وحي وإلهام ، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت ، ولا خوف من المحاسبة على أعمال الحياة الدنيا كما لا وجود فيها لمسؤولية ملقاة على الإنسان ، ولا إمكان فيها لمقصد او غاية أجلّ وأسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الإنسان . هذه حضارة مادية تماماً يخلو نظامها من كل ما تقوم عليه حضارة الإسلام من خشية الله واتباع القصد وحب الصدق وطلب

الحق وطهارة الأخلاق والنزاهة والأمانة والبر والحياء والتقوى والنظافة ، ونظريتها على نقيض من نظرية الإسلام ، وطريقها واسع في الجهة المعاكسة لطريق الإسلام . فكل ما يبني عليه الإسلام نظام الأخلاق الإنسانية والتمدن ، تكاد هذه الحضارة تأتي عليه من القواعد . كما أن الأسس التي ترفع هذه الحضارة عليها قواعد السلوك الفردي والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم عليها بنيان الإسلام ولو ساعة من الدهر . فكأن الاسلام والحضارة الغربية سفينتان تجريان في جهتين متعاكستين ، فمن ركب إحداهما هجر الأخرى ولا بد . ومن أبى إلا أن يركبهما في الوقت الواحد ، فاتتاه معاً وانشق بينهما نصفين .

* * *

ومن سوء المصادفات أن القرن الذي بلغت فيه هذه الحضارة الجديدة أوج كمالها من المادية والدهرية والإلحاد كان هو القرن الذي ابتليت فيه ممالك الإسلام من لدن مراكش إلى الشرق الأقصى بغلبة أمم الغرب في الحكم والسياسة . فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيف معاً . وأصبح محالاً للعقول التي راعتها غلبة الغرب السياسية وبهتتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدنية التي نشأت في أحضانهما . وساءت الحال خاصة في الأمم المسلمة التي دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب ، لأنها اضطرت لأجل الحفاظ

على مصالحها الدنيوية إلى تحصيل علوم الغرب . ولما لم يكن هذا التحصيل مقصوداً من ورائه طلب العلم مجرداً وكان يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربيين بعقول مرتاعة مفتتنة ، درج النشء المسلم الجديد على أشد ما يكون من الانفعال والتأثر بالأفكار الغربية والنظريات السانتيفيكية العلمية . وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب وبقي يمتد في نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح الله عليهم بالبصيرة الناقدة التي تميز بين الصحيح والزائف فتجعلهم يختارون الصحيح دون الزائف . ولا هم وجدوا في أنفسهم من الأهلية والكفاءة ما يفكرون به تفكيراً حراً مستقلاً ويرون آراءهم في مسائل حياتهم بالاجتهاد الشخصي . وكان من عواقب ذلك ما نشاهده اليوم من أن الحضارة الإسلامية قد تزلزلت أركانها وأن العقليات التي كانت حرية بأن تفكر التفكير الإسلامي الصحيح قد فسد تكوينها ، وأن العقول التي تعودت أن تفكر بأسلوب الغرب وتؤمن بمباديء حضارته لا تصلح بحكم مزاجها وتركيبها المخصوص أن تستقر فيها مباديء الإسلام ، وإذا هي لم تتسع للمباديء فما أحراها أن تنفر من الجزئيات والفروع ، وتخالجها في بابها أنواع الشكوك .

ما من شك في أن السواد الأعظم من المسلمين لا يزال إلى هذا اليوم يعتقد بصدق دعوة الإسلام ويريد أن يبقى مسلماً . ولكن كثيراً من العقول الناشئة لا تزال تتأثر بالفكر

الغربي والحضارة الغربية وتنحرف عن جادة الإسلام انحرافاً هو إلى الزيادة والانتشار كل يوم . وإن سيطرة الغرب الفكرية وتمكنه العلمي ـ بصرف النظر عن غلبته واستيلائه السياسي ـ قد غمر الجو الفكري العالمي وغيّر من وجهات نظر الأبصار بحيث أصبح لا يتأتى لأولي النظر أن ينظروا بعين المسلم ولا لأولي الفكر أن يفكروا بأسلوب الفكر الإسلامي . وهذا الوضع الحرج لن يخرج عنه المسلمون ما لم ينبغ فيهم عباقرة من أهل الفكر الحر . وبعبارة أخرى إن الإسلام في أوقاتنا هذه لفي حاجة إلى نهضة جديدة (Renaissance) وإن إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء وكفاية ، لأن الدنيا قد بعدت في سيرها إلى الأمام ولم يعد من الممكن أن يرجع بها القَهْقَرى إلى المراحل التي كانت جاوزتها قبل ستمائة سنة . وإن الزعامة في ميدان العلم والعمل اليوم لا ريب مكفولة لمن يتقدم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها الى الوراء ، فإذا كان الإسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليه إلاّ أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق ، يهدمون بقوة فكرهم ونظرهم وبحثهم واكتشافهم تلك الأسس القائم عليها صرح الحضارة الغربية . ثم يمارسون مشاهدة الآثار والفحص عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآني للفكر والنظر ، ويبنون بذلك نظاماً للفلسفة جديداً منتزعاً من الفكر الإسلامي الخالص ، ويرفعون قواعد علوم طبيعية (Natural Science) جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة في القرآن

الكريم ، ويبطلون النظرية الإلحادية إبطالاً ، ويؤسسون الفكر والتحقيق على النظرية الإلهية ، ثم يتقدمون بهذه الحركة ـ حركة الفكر والتحقيق الجديد ـ بقوة وعزيمة تضمنان السيطرة على جميع العالم ، وتقوم في الدنيا حضارة الإسلام الحقة مكان حضارة الغرب المادية .

* * *

كل ما قلناه آنفاً نستطيع أن نفهم مغزاه ومقصوده بالتمثيل الآتي : إن هذه الدنيا قطار تسيره قاطرة الفكر والتحقيق . ومقاليد هذه القاطرة بأيدي المفكرين والمحققين والنوابغ . والقطار جار لا محالة إلى حيث يريد سائقه أن يجري . والسفر الراكبون فيه مضطرون بطبيعة حالهم أن يسيروا معه كيف سار ، سواء رضوا أو سخطوا ، فإذا كان من ركب القطار من لا يرد أن يسافر في الجهة التي هو سائر فيها ، فعليه أن يغيّر وجهة مقعده من القدام إلى الخلف أو إلى اليمين أو اليسار ، على حين أن القطار يجري وهو بعد قار في موضعه فيه . ولكنه لا شك ليس بمغير وجهة سفره بتغيير وجهة مقعده على هذا النحو . لأن ما هنالك من سبيل إلى تبديل وجهة السفر إلا أن يُسطى على مقاليد القاطرة ويدار وجهها نحو الجهة المطلوبة . فالذين هم قابضون الآن على أزمة هذا الجهاز المحرك هم كلهم معرضون عن الله أجانب عن الفكر الإسلامي . لذلك لا يزال القطار يسير بمن فيه إلى المادية والاباحية والإلحاد ، وجميع الراكبين فيه يزدادون بعداً عن

غاية الإسلام ومقصوده . فإن أريد تبديل هذا الاتجاه المنحرف وتصحيح الجهة الخاطئة التي يسعى إليها قطار الإنسانية فلا بد من رجال أولي همة وعزيمة صادقة ينهضون من صفوف أهل الإيمان ويمارسون العمل الجدي والسعي الدؤوب والاجتهاد المتواصل ، حتى ينتزعوا مقاليد الأمور من أيدي الملحدين ومن البديهي أنه ما لم يتحقق ذلك وما دامت الحال على ما هي عليه ، فلا شك أن القطار لا يزال يسير في هذا الطريق الخاطيء الذي يسوقه إليه أصحابه اللاربانيون مهما كان من ضجر الركاب منه وغضبهم له واحتجاجهم عليه !

الفصل الثاني

إنحطاط حضارة الإسلام في الهند

إن الجانب الأكبر من دنيا الإسلام يشتمل على الممالك التي فتحت على أيدي المسلمين المجاهدين من الصدر الأول لتاريخنا . والذين افتتحوها لم يكونوا خرجوا من بيوتهم لفتح الأسواق ولا لجلب الغنائم . وإنما خرجوا في الأرض يرفعون كلمة الله في أنحائها ويطلبون الموت في هذا السبيل . كان القوم أشربوا في قلوبهم حب الآخرة قبل طلب الدنيا ، فلم يجتزئوا بأن يجعلوا مفتوحيهم مطيعين لهم يعطونهم الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ، بل صبغوهم بصبغة الإسلام ، واجتذبوا رعاياهم كلهم أو السواد الأعظم منهم إلى الملة الحنيفيّة السمحة ، وأثبتوا فيهم الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية إثباتاً جعلهم أنفسهم حاملين لمشعل الإسلام ومعلمين لعلومه ومعارفه . وهذه الممالك تتبعها في التاريخ ممالك أخرى ، وإن فتحت في عهد متأخر عن ذلك الصدر الأول ، في عهد كان الحماس الإسلامي قد فتر فيه واسترخى وغلب في قلوب الفاتحين طلب الغنائم والفتوح

على روح الجهاد في سبيل الله ، إلا أن الإسلام تمكن - برغم ذلك - من أن يتأصل في تلك البلاد وينمو وينتشر ، وأن ينزل فيها على مر الأيام منزلة الدين القومي والثقافة القومية . أما القطر الهندي فمن سوء نصيبه أن أمره يختلف عن كلا هذين النوعين من الأقطار . فهذا القطر فتح جانب قليل جداً منه في الصدر الأول . وهذا الجانب القليل أيضاً ابتلي بتيار الباطنية الذي اجترف كل ما كان فيه من آثار التعليم الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولما ابتدأت بعد ذلك سلسلة فتوح المسلمين في الهند ، لم يكن الفاتحون على شيء من خصائص الفاتحين الأول . بل استعمل هؤلاء كل ما أوتوا من القوى في توسيع مملكتهم بدل إشاعة الإسلام . وطالبوا الناس بإطاعتهم أنفسهم بدل إطاعة الله والرسول ، وبأن يؤدوا اليهم الخراج بدل أن يعتنقوا الإسلام . فكان من نتيجة ذلك أن بقي السواد الأعظم من أهالي الهند غير مسلم على رغم حكم المسلمين فيها قروناً متعددة ، ولم تتمكن الحضارة الإسلامية من أن ترسخ في أرض الهند أبداً . ثم أن الذين أسلموا من أبنائها لم يكن أحد بأن يتعهدهم بالتعليم والتربية الإسلامية . فما زالت الأفكار والتقاليد الهندكية[1] القديمة باقية - في قليل أو كثير - في الجماهير الحديثة العهد في الاسلام ، وأصبح المسلمون القديموا الإسلام - الطارئون من

---

(١) نسبة إلى هندكي ج هنادك ، رجل من غير المسلمين الهنديين . أما الهندي فكلمة جامعة تطلق على المسلم وغير المسلم من أهل الهند .

الخارج ـ أنفسهم يتسامحون ـ فيما يرون من حولهم من طرائق الشرك ، ويتبعون كثيراً من تقاليد الجاهلية ، بفضل مخالطتهم لأهل الهند .

ويتضح من النظر في تاريخ الهند الإسلامية وفي أحوالها الحاضرة أن الزمن الذي كانت سلطة المسلمين السياسية فيه قد امتدت على الهند بكل قوتها كانت آثار الإسلام ضعيفة قاترة فيها حتى في ذلك الحين ، ولم تكن البيئة في هذه البلاد بيئة إسلامية خالصة . وأن الديانة والحضارة الهندكية وإن كانت بذاتها ضعيفة وقد زاد في ضعفها كونها ديانة أمة مغلوبة ، إلا أنها على رغم ذلك كله بقيت مستولية على السواد الأعظم من أهالي القطر لغفلة الحاكمين المسلمين . وأنه بسبب استيلائها على جو القطر الهندي وبسبب كون التعليم والتربية الإسلامية غير كاملة بين المسلمين أنفسهم لم يتسن لمعظم مسلمي الهند أن يكونوا أصحاء في عقيدتهم كاملين في إسلامهم راسخين في ثقافتهم وتهذيبهم ، كما عساهم أن يكونوا لو أنهم عاشوا وسطاً إسلامياً خالصاً .

وفي القرن الثامن عشر انتزعت من أيدي المسلمين حتى تلك السلطة السياسية التي كانت أكبر عماد للحضارة الإسلامية في الهند . فكان ـ أولاً ـ أن تفرقت حكومة المسلمين وانقسمت إلى ولايات صغيرة . وتبع ذلك سيل

جارف من المرهتة[١] والسيخ[٢] والإنكليز ، أتى على أكثر تلك الولايات الصغيرة واحدة بعد أخرى . وشاء القدر بعد ذلك أن تنتقل أزمة الحكم والأمر في هذه البلاد إلى أيدي الإنكليز . فلم يمض على ذلك قرن واحد حتى أصبح المسلمون محكومين في الأرض التي كانوا قد حكموا فيها وسادوا على طول القرون . وبقدر ما امتد الحكم الإنكليزي واتسعت سلطته ، غدا ينزع من أيدي المسلمين بقدر ذلك تلك القوى التي كانت الحضارة الإسلامية قائمة بفضلها في الهند . فاتخذ اللغة الانكليزية هي أداة التعليم بدل اللغة الفارسية او العربية ، ونسخ القوانين الإسلامية وألغى المحاكم الشرعية ، وأنفذ في الشؤون المدنية والجنائية قوانينه الوضعية ، وحصر تنفيذ القانون الإسلامي في شؤون الزواج والطلاق وحدها بين المسلمين أنفسهم . ثم جعل أمر هذا التنفيذ المحدود أيضاً بيد المحاكم المدنية العامة بدل القضاة المسلمين ، وحكام تلك المحاكم من غير المسلمين في الأغلب ، يمسخون القوانين الإسلامية الشخصية (Mohammadan- Law) مسخاً مع الأيام . زد على ذلك أن كان من خطة الحكم الإنكليزي من أول يومه أن تشدد الوطأة على المسلمين في حقل المعيشة والاقتصاد ليكثر بذلك فخارهم القومي الذي ما زال

(١) المرهتة (Marhattas) قوم من الهنادك القاطنين في جنوب الهند اشتهروا بميلانهم إلى الفتن والحروب .

(٢) السيخ (Sikks) قوم من غير المسلمين القاطنين في البنجاب ، عرفوا بسذاجة الطبع وقوة الأبدان .

ينمو فيهم من حيث أنهم أمة حاكمة . وأدى الأمر بفضل هذه الخطة المدبرة إلى أن تركت الأمة المسلمة في الهند فيما شاء لها حاكمها من إفلاس وجهالة وتخلف فكر وفساد أخلاق ومهانة !

وكانت الضربة القاضية على هذه الأمة المتساقطة ما أصابها أبان ثورة ١٨٥٧ م ، فذلك لم يسلب المسلمين قوتهم السياسية وحدها ، بل أضعف فيهم الهمم وأدخل على نفوسهم اليأس وشعور الذلة والهوان ، وأوقع في قلوبهم من الروعة والفزع من السلطة الانكليزية ما لم تبق معه أثارة من الغيرة القومية فيهم . ولما وصلوا إلى هذا القرار من الذل والمسكنة اضطروا إلى الاعتقاد بأن السلامة في هذه الدنيا هي في إطاعة الإنكليز ، وأن العزة في خدمة الإنكليز ، وأن التقدم والرقي في تقليد الإنكليز . وأن ما عندهم أنفسهم من ثروة العلم والحضارة هو كله مهين ، موجب للخزي والعار ومسبب للنكبة .

ولما هب القوم في النصف الآخر من القرن التاسع عشر وهموا بالنهوض من كبوتهم وجدوا أنفسهم في نوعين اثنين من الضعف : أولهما أنهم لم يكونوا ـ مذ أسلموا ـ راسخين في العقيدة والثقافة الإسلامية من ناحيتي الفكر والعمل وكان يحيط بهم فوق ذلك وسط غير إسلامي بأفكاره الجاهلية وتمدنه الجاهلي . والآخر أن العبودية قد استولت لا على أجسامهم وحدها بل على قلوبهم وأرواحهم أيضاً وأنهم قد

تفقد جميع القوى والمقدرات التي تستطيع بها الأمم أن تحافظ على تمدنها وحضارتها .

ثم فتح المسلمون أعينهم في هذه الحالة من الضعف المضاعف رأوا أن الحكم الإنكليزي قد أقفل بدهائه أبواب المعيشة والاقتصاد كلها ووضع مفاليدها في المدارس والكليات الإنكليزية . فلم يبق بأيديهم إلا أن يعنوا بتحصيل التعليم الإنكليزي . وقامت لأجل ذلك حركة جبارة تحت زعامة للسير سيد أحمد خان . بعثت في نفوس مسلمي الهند كلهم الشعور القوي بضرورة التعليم الإنكليزي . وخالف هذه الحركة فريق من المسلمين النازعين إلى القديم ، ولكن مخالفتهم لم تفعل شيئاً ، والذين كانت بيدهم القوة الحقيقية باعتبار الثروة والعز والنفوذ أيدوا جميعاً هذه الحركة الجديدة ، وأقبل المسلمون على التعليم الإنكليزي بسرعة مدهشة ، وكان من نتيجة ذلك أن النخالة من أبناء الأمة تركت للمدارس الدينية القديمة ، حتى يكون منها أئمة المساجد ومعلمو الكتاتيب ، وأما المعدن الخالص من الأولاد الأذكياء للطبقات المترفهة فبعثوا إلى المدارس والكليات الإنكليزية لكي تنقش في ألواح قلوبهم وأذهانهم الصافية نقوش العلوم والفنون الإفرنجية .

كان ذلك في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وكان المظهر الأوربي إذ ذاك أن كانت المادية قد بلغت هناك أوج كمالها . وكانت العلوم التجريبية (Science) قد تم لها

الانتصار على الدين (Religion) ، وكانت النظريات القديمة في السياسة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد قد بطلت وقامت مقامها النظريات الحديثة تحت إشراف الفلسفة والعلوم الحديثة . وتولدت في أوربا حضارة خاصة نهض بنيانها كاملاً على تلك النظريات الجديدة . وهذا الانقلاب العظيم وإن كان قد طرد الدين وطرد المبادىء المبنية على هدايته عن شؤون الحياة العلمية طرداً كاملاً ، إلا أن العقيدة الدينية قد كان لها مقام في دنيا الفكر والشعور إلى العهد القريب . ولكن قامت الآن حرب في وجهها أيضاً . وأن العلوم التجريبية وإن لم يأت أي علم منها ببرهان ـ يمكن أن يدعى برهاناً ـ في نقض النظرية الإلهية لهذا الكون ، إلا أن أصحاب تلك العلوم غدوا مستنفرين من تصور الوجود الإلهي ، وأعداء للنظرية الإلهية ، وذلك بغير برهان أو حجة علمية ، وإنما صدروا في ذلك عن طبعهم ومزاجهم فحسب . ولأنهم هم الذين كانوا يقفون موقف الزعامة العقلية والعلمية في العالم شاع بتأثيرهم مرض النفرة من الإله (Theophbic) كالعدوى المنتشرة . فأفكار الوجود الإلهي واعتقاد هذا الكون شيئاً وجد من تلقائه ويجري بنفسه تحت القوانين الطبيعية ، واعتبار عبادة الله نوعاً من التوهم (Superstition) والحكم على الدين بأنه شيء عبث ، وعلى النظرية الدينية بأنها عبارة عن ضيق النظر وظلمة الفكر ، وظن المذهب المادي (Naturalism) شيئاً مرادفاً للتنور العقلي . كان كل ذلك قد أصبح طبيعة العصر ومقتضى التجدد . وكل رجل وإن لم

يؤت نصيباً من الفلسفة والعلوم ولم يجتهد شيئاً في تحقيق هذه المسائل بنفسه ، كان يبدي هذه الأفكار ويتحمس لها لكي يعد في المجتمع من أصحاب الفكر النير . وكان التفوه بشيء في حماية الروحانية (Spiritualism) او فوق الطبيعة (Super Naturalism) من باب الكفر . ولو أنه يبدي مثل هذا الرأي عالم من علماء الطبيعة والكيمياء مهما علت منزلته ، كان يفقد اعتباره في الدوائر العلمية السانتيفيكية وتحبط أعماله ومآثره جميعاً ، ولا يعود جديراً بأن يقبل عضواً في هيئة علمية .

وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتاب أصل الأنواع (The Origin of- Species) لداروν . وهذا الكتاب هيأ الحطب الجزل اللهيب للمذهب المادي والإلحاد المستعر . وإن الحجج التي ساقها داروν لاثبات نظريته المخصوصة للارتقاء وإن كانت ضعيفة ومفتقرة إلى الثبوت ، وكانت سلسلة الارتقاء التي قدمها داروν بكل حماس وجزم لا تفتقد حلقة واحدة ، بل حلقات متعددة من قبل ومن بعد كل حلقة موجودة وأن أهل البصيرة والفكر لم تطمئن نفوسهم على هذه النظرية عندما عرضت ، حتى لم يؤمن بها حينئذ أكبر الدعاة إليها وهو هكسلي (Huxley) ، إلا أنه قبل الناس هذا التعليم الدارويني لنفرتهم من الله ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها واستخدموه كسلاح فتاك في محاربة الدين ، لأن هذه النظرية ـ على حد زعمهم ـ قد هيأت البرهان لدعواهم ،

والحق أنها إنما قدمت دعوى تحتاج إلى برهان ، إن نظام هذا الكون جار من تلقاء نفسه على القوانين الطبيعية بغير قوة فوق طبيعية . وقام حماة الدين يخالفون هذه النظرية ، واستنفد أسقف اكسفورد والوزير جلادستون كل ما يملكان من البلاغة واللسن في الرد عليها ، ولكنهما انهزما ، وفي آخر الأمر ارتاع حماة الدين لهذا الإلحاد السانتيفيكي إلى حد أنه حينما توفي دارون سنة ١٨٨٢ م . كرمته الكنيسة الانكليزية (Church of England) بأعز ما عندها من تكريم ، وذلك أنها أذنت بدفنه في عمارة ويست منستر (West Minster Abbey) والحال أنه كان زعيم الطبقة التي حفرت للدين القبر في أوربا وكان له النصيب الأوفى في توجيه الأفكار إلى الإلحاد والزندقة واللادينية في خلق العقلية التي نشأت في جوها البالشفية والفاشية بعد حين .

* * *

هذا هو الأوان الذي بُعث فيه الصبية والشبان من أمتنا إلى المدارس والكليات الإنكليزية للارتواء من التعليم الإنكليزي والثقافة الإنكليزية . قوم أجانب عن التعليم الإسلامي ضعفاء من الثقافة الإسلامية ، مرتاعون للحكم الإنكليزي ، متهافتون على بريق الحضارة الإفرنجية ، لما دخلوا المدارس الإنكليزية كان أول ما انطبعوا به أن تقلبت عقليتهم وانحرفت ميولهم ومنازعهم من الدين ، لأنه كان من أول مؤثرات ذلك الجو المدرسي فيهم أن يقولوا آمنا ، لكل

ما يعرض عليهم باسم كاتب أو محقق من أوربا ، وأن يطالبوا بالحجة والدليل لكل ما يعرض عليهم من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو من آثار أئمة الدين . وإن العلوم الغربية التي نعلمها شبابنا في المدارس والكليات بتلك العقلية المنقدة كانت أصولها وفروعها في الأغلب مخالفة لأصول الأحكام الإسلامية وجزئياتها . ومن الأمثلة لذلك أن تصور الدين في الإسلام هو أنه قانون للحياة الإنسانية ، وتصور الدين في الغرب هو أنه عقيدة شخصية وكفى ، لا علاقة لها في شيء بالحياة الإنسانية العملية . وأن الإسلام أول مقتضياته الإيمان بالله ولكن ليس الوجود الإلهي في الغرب بشيء ثابت محقق . وأن الإسلام يقوم نظام حضارته كله على الإيمان بالرسالة والوحي ، وأن الوحي هناك شيء مرتاب فيه وكون الرسالة والنبوة من جانب الله أمر محفوف بالشبهات . وأن الإيمان باليوم الآخر حجر أساسي لنظام الأخلاق بكامله ، وهذا الحجر الأساسي شيء لا أساس له في الغرب . وأن العبادات والأعمال التي هي في الإسلام فرائض وواجبات تعد عند الغربيين من تقاليد العصور المظلمة الجاهلة ، مما لا فائدة منه في هذه الآونة . كذلك إن مبادىء الحضارة والتمدن في الإسلام مختلفة تماما عن مبادىء الحضارة والتمدن الغربيين . فأصل الأصول والمبدأ الرئيسي في الإسلام في باب القانون أن الله تعالى هو نفسه واضع القانون ، وأن رسول الله ﷺ شارح القانون ومبينه ، وأن الإنسان متبع القانون ، ولكنهم في الغرب لا يعرفون لله حقا

في وضع القانون ، بل واضع القانون هناك هو المجلس التشريعي ، وإذ الأمة ناخبة لذلك المجلس . وفي باب السياسة يطمح الإسلام إلى الحكومة الإسلامية وهدف الغرب في ذلك هو الحكومة القومية . واتجاه الإسلام إلى الدولية (Internationalism) وقبلة الغرب هي القومية (Nationalism) . وفي النظام الاقتصادي يحض الإسلام على أكل الحلال والصدقة والزكاة ويحرم الربا بكل شدة ، ونظام الاقتصاد في الغرب قائم في صميمه على الربا والربح . وفي باب الأخلاق ينظر الإسلام إلى الفلاح الأخروي وينظر الغرب إلى الربح المادي في هذه العاجلة . وفي الشؤون الاجتماعية أيضاً تختلف طريقة الإسلام عن طريقة الغرب في كل أمر تقريباً . فالستر والحجاب وحدود أعمال المرأة والرجل ، وتعدد الأزواج وقوانين الطلاق والزواج وتحديد النسل وحقوق ذوي الأرحام وحقوق الزوجين وما شاكلها من الشؤون الأخرى المتعددة هي من الأمور التي يبلغ فيها اختلاف وجهتي نظر الإسلام والغرب من الجلاء والوضوح بحيث لا حاجة إلى ذكره . ومرد هذا الاختلاف إلى أن مبادئهما مختلفة ومتناقضة .

إن شبيبتنا لما اكتسبوا هذا التعليم الغربي بتلك العقلية المرعوبة بل المغلوبة ، وبذلك التعليم والتربية غير الإسلامية ونشأوا في بيئة الحضارة الغربية ، كان من نتيجة ذلك ما يتقاضاه منطق الاشياء وهو أنهم افتقدوا قوة النقد والتمييز ،

واعتبروا كل ما تعلموه من الغرب مقياس الصحة والصواب ، ثم راحوا ينتقدون الإسلام بهذا المقياس مع علمهم الناقص ونظرهم الملوّن. فكل ما وجدوا فيه اختلافاً بين الإسلام والغرب لم يشعروا بخطأ الغرب فيه ، بل اعتبروا الإسلام هو على الخطأ في بابه ، وأقبلوا على مبادئه وقوانينه يحرفونها عن وجهها ويستبدلون بها مباديء أخرى .

* * *

وإن من الحق الذي لا مرية فيه أنه مهما كان من الفائدة التي نالت مسلمي الهند من التعليم الجديد ، من ناحيتي السياسة والاقتصاد ، فإن الخسارة التي قد جرها هذا التعليم على دينهم وحضارتهم لا يمكن أن تتلافى بأية منفعة أو فائدة !

الفصل الثالث

الأمم المريضة في العصر الحديث

سواء هذا الشرق أو الغرب ، وهذه الأمة المسلمة أو غيرها من الأمم ، فقد حلت بها جميعاً نكبة واحدة ، هي أنه قد استولت عليها حضارة نشأت في أحضان المادية الخالصة . هذه الحضارة قد أسست حكمتها النظرية والعملية على قواعد خاطئة . وقد جرت فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستها وقانونها وبالجملة كل ما يتصل بها ، قد جرى كل ذلك من نقطة انطلاق منحرفة وبقي يخطو ويرتقي في وجهة غير صحيحة ، حتى انتهى إلى مرحلة ترى منها نهاية هذه الحضارة ـ وهي الهلاك ـ قريباً .

هذه الحضارة انبعثت في أمة لم تكن تملك في الحقيقة نبعاً صافياً طيباً من الحكمة الإلهية ولا شك أنه قد كان بينها زعماء دينيون ، ولكنه لم تكن بيدهم الحكمة . ولا كان عندهم العلم ، ولا القانون الإلهي . أقصى ما كانوا يملكون هو نظرية دينية مخططة لم تكن لترشد النوع البشري إلى

السبيل السوي من سبل الفكر والعمل ، مهما شاء أصحابها أن تفعل . كل ما كان لهذه النظرية أن تفعل هو أن تحول دون رقي العلم والحكمة ، ففعلت . وكان من نتيجة هذه الحيلولة والمنع أن ثار على الدين من كانوا يريدون الرقي ، فنحوه من طريقهم ومضوا في سبيل آخر لم يكن دليلهم فيه إلا المشاهدة والتجربة والقياس والاستقراء . وغدت هذه الدلائل المرشدة التي هي بنفسها تفتقر إلى الهدى والنور عمدتهم وسندهم في كل أمر . وفي ضوئها اجتهد القوم كثيراً في ميادين الفكر والنظر والبحث والاكتشاف والتعمير والنظم ، ولكنهم انطلقوا من نقطة خاطئة في كل ميدان ، واتجه رقيهم كله إلى هدف غير صحيح . إنهم انطلقوا من نقطة الإلحاد والمادية فرأوا هذا الكون من حيث أنه لا خالق له ولا إله ونظروا إلى الأنفس والآفاق زاعمين أن الحقيقة كلها منحصرة فيما يحسه المرء أو يشاهده ، وأنه لا شيء من وراء هذا الظاهر المرئي . ودرسوا قانون الفطرة وفهموه بوسائل التجربة والقياس ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصلوا من هذا الطريق إلى واضع ذلك القانون . ووجدوا الموجودات مسخرة لهم فراحوا يستخدمونها ، ولكنه لم يقع في أذهانهم أنهم ليسوا مالكين لتلك الأشياء ولا حاكمين عليها ، بل هم خلفاء عليها للمالك الحقيقي . هذه الغفلة والجهل جردتهم من التصور الأساسي للمسؤولية وترتب على ذلك أن اعوج أساس حضارتهم وتمدنهم ومال عن الاستقامة . فأمسوا يعبدون ذواتهم بدل الذات الإلهية . وأوقعتهم الذاتية والأنانية في الفتنة بما حلت

نبهم محل الإله . وما هو إلا عبادتهم لهذا الإله الكاذب ـ الذاتية ـ ما يسوقهم الآن في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق لا شك أن منازلها الوسطية رائقة تسر النظر ولكن منزلها النهائي ليس إلا التردي والهلاك . فهذه العبادة للذاتية هي التي قد اتخذت العلوم التجريبية (Science) آلة لتدمير الإنسان ، وصبت الأخلاق في قوالب الأثرة والرياء والخلاعة والمجون ، وسلطت على الاقتصاد شياطين الاستبداد والظلم والحرمان . ونفثت في نواحي الاجتماع كلها سموم الأثرة وحب الترف ، وأفسدت السياسة بمفاسد القومية الضيقة والوطنية ومفارقات اللون والجنس ، وعبادة آلهة القوة والسلطة ، فجعلتها آفة شقاء للإنسان . وجملة القول أن هذه البذرة الخبيثة التي بذرت إبّان النهضة الجديدة في الغرب وقد انشقت عن شجرة باسقة خبيثة للحضارة والتمدن ، أكلها لذيذ ولكنه مسموم ، وزهرها جميل ولكنه شائك ، وأغصانها بهيجة ولكنها تنفث سماً غير مرئي ولا يزال يسمم دم النوع البشري في الداخل .

وهذه الشجرة الخبيثة قد أخذ يتأفف منها الآن أهل الغرب أنفسهم الذين كانوا قد غرسوها بأيديهم لأنها خلقت في كل شعبة من شعب الحياة مشاكل وعقد ، تنتهي كل محاولة لحلها إلى عقد كثيرة أخرى . فكلما جزوا منها فرعاً نبتت مكانها فروع كثيرة شائكة . قلع القوم شأفة الرأسمالية فنشأت مكانها الشيوعية . وقضوا على الديمقراطية فنجمت

مكانها الفاشية . وحاولوا حل المشاكل الاجتماعية فظهرت الحركات النسوية المتطرفة (Feminism) وحركة تحديد النسل . وسعوا وراء استخدام القوانين لمعالجة المفاسد الحياتية فنتجت ـ كرد الفعل ـ نزعة الخروج على القوانين والاحتراف بالجرائم . موجز القول أن هناك سلسلة من الفساد لا تنتهي قد أصبحت تخرج من شجرة الحضارة والتمدن هذه ، وقد جعلت الحياة الغربية جرحاً دامياً من المصائب والآلام ، يحس في كل موضع منها وفي كل عرق من عروقها وجع الأذى . وأن الامم الغربية قد عيل صبرها على هذا العذاب ، فقلوبها مضطربة وأرواحها تواقة إلى عصير يشفيهم من آلامها . ولكنها لا تدري أين هذا العصير الذي قد تتطلبه . ولا تزال الأكثرية منها تظن خطأ أن منبع كل تلك المفاسد والآلام هو في فروع تلك الشجرة الخبيثة ، فلا يزالون يضيعون أوقاتهم ومساعيهم في تشذيب الفروع ، ولكنهم لا يدركون أن الفساد كله في أصلها وجذرها ، وأن الأمل في نشأة فرع صالح من أصل فاسد حماقة وجنون ، وهناك بجانب آخر فئة قليلة من أصحاء العقول قد أدركوا أن الأصل من شجرة حضارتهم هو الفاسد ، ولكنهم لما نشأوا في ظلال هذه الشجرة وتغذت أجسامهم بثمارها يكادون لا يفهمون أي شيء يستبدلونه بهذا الأصل الفاسد ، وأن الأصل الصالح هو الذي تتفرع منه أغصان وأوراق صالحة ، وعلى هذا كله تستوي حال الفئتين . فكل أولئك يتطلبون شيئاً

يشفي آلامهم ولكنهم لا يعلمون ما هو الشيء المطلوب وأين يوجد ؟

وهذا هو الأوان الذي يجب أن يعرض على أمم الغرب كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ويبين لهم أن هذا هو المطلوب الذي تتوق إليه أرواحكم وتضطرب للبحث عنه ، وهذا هو العصير الشافي الذي أنتم متعطشون إليه ، وهذه هي الشجرة الطيبة التي نبتت من أصل صالح وتفرعت إلى أغصان غضة ، والتي زهرها طيب الرائحة عادم الشوك ، والتي ثمرها حلو يلذ ويغذي الجسم ، والتي هواؤها نظيف ومنشط للروح أيضاً . فستجدون الحكمة . وستجدون نقطة انطلاق صحيحة للفكر والنظر . وستجدون الروحانية التي هي مصدر الطمأنينة القلبية والهدوء ، لا للرهبان وتاركي الدنيا الدنيوية . وستجدون هنا تلك الضابطة للأخلاق والقانون ، التي بنيت على العلم الكامل الشامل للفطرة الإنسانية ، فلم تكن لتتبدل تبعاً لأهواء النفس الإنسانية . وستجدون المبادئ الصحيحة للحضارة والتمدن ، المبادئ التي تمحو الامتيازات الكاذبة بين الطبقات وتبطل الفروق المزيفة بين الأمم ، وتنظم الجمع الإنساني على أسس عقلية خالصة ، وتخلق جواً آمناً صالحاً للعدل والمساواة والسماحة وحسن المعاملة ، لا يبقى فيه مجال لأن ينشأ بين الأفراد والطبقات والفرق الإنسانية تنازع للحقوق أو اصطدام للمصالح أو تحارب لأجل الأغراض والأهداف ، بل يتأتى للجميع أن يعملوا لأجل الفلاح

الشخصي والجماعي بالرضى والطمأنينة متعاونين متعاقلين فيما بينهم . فإن كنتم تريدون أن تقوا أنفسكم الهلاك فعليكم أن تحطموا حضارتكم بضربة من الدهر فتضاف حضارة ميتة أخرى إلى حضارات التاريخ البائدة الكثيرة ، عليكم أن تطهروا قلوبكم من تلك العصبيات ـ ضد الإسلام ـ التي ورثتموها من المغالين الدينيين في القرون المتوسطة والتي لم تهجروها بعد على كونكم هجرتم كل ما يمت إلى تلك العصور المظلمة بسبب ، ثم ترجعوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام . فاستمعوا لهما وافهموهما بقلوب واعية . فاقبلوهما .

هذا بالنسبة إلى أمم الغرب . وأما الأمم المسلمة فتختلف حالها عن حال الأمم الغربية فالمرض عندها غير المرض ، وأسباب المرض أيضاً مختلفة ، إلا أن علاج مرضها هو العلاج الموصوف لأمم الغرب . وذلك هو الرجوع إلى ذلك المعلم وتلك الهداية التي قد أنزلها الله تعالى بصورة كتابه الأخير على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

إن الظروف التي احتك فيها الإسلام بالحضارة الغربية تختلف تماماً عن الظروف التي احتك فيها بالحضارات الأخرى قبل ذلك . فالحضارات الرومية والفارسية والهندية والصينية صادمت الإسلام في وقت كان هذا الدين مسيطراً بكل معنى الكلمة على القوى الفكرية والعملية في متبعيه . وكانت روح الجهاد والاجتهاد قوية فيهم . وكانوا أمة غالبة في

العالم من الوجهتين الروحية والمادية ، يحتلون بين أمم العالم محل الصدارة والزعامة لذلك لم يكن لحضارة من تلك الحضارات أن تدافعهم وتثبت أمامهم : فحيثما ذهبوا أحدثوا انقلابا في أفكار الأمم ونظرياتها وعلومها وأخلاقها وعاداتها وأسلوب تمدنها . وكانوا أحرى بالتأثير في غيرهم من أن يتأثروا بهم ، ولا شك أنهم اتخذوا أشياء كثيرة من غيرهم ، ولكن كان مزاج حضارتهم قويا محكماً إلى درجة أنه كلما دخل فيها من الخارج ذاب في قالبها ، ولم يحدث بذلك فيها سوء مزاج مختلط ، وبالعكس من ذلك ، جاءت الآثار التي تركها هؤلاء في غيرهم سبباً للانقلاب وتغير الأحوال . فمن الحضارات غير المسلمة ما انحلت في الإسلام حتى افتقدت فرديتها تماماً . وأما الأخرى التي كانت أقوى على الحياة فتأثرت بالإسلام إلى درجة أنه طرأ على مبادئها كثير من التغير . على أنه حدث هذا كله في زمان كانت الأمة فيه في أوج الشباب . فالروح فتية والعضل قوية والهمم تناطح السحاب !

وحدث بعد ذلك أن المسلمين لطول ممارستهم للحكم بالقلم والسيف غلبهم التعب والكلام . فخمدت فيهم روح الجهاد وضعفت قوة الاجتهاد . فجعلوا كتاب الله الذي منحهم نور العلم وقوة العمل تذكارا مقدسا غلفوه ووضعوه في المحاريب وتركوا اتباع السنة النبوية ، التي شكلت حضارتهم في صورة نظام مكتمل للفكر والعمل . فكانت النتيجة أن

توقف سير رقيهم ، وتحول ذلك النهر الذي بقي جارياً منهمراً على طول القرون إلى مستنقع ساكن في وادي الجمود . فانعزل المسلمون عن منصب الإمامة في العالم وضعف ما كان لأفكارهم وعلومهم وتمدنهم وغلبتهم السياسية من سلطان على أمم العالم . ونشأت إزاء الإسلام حضارة أخرى وتقدمت في موكبها أمم الغرب لتأخذ راية الجهاد والاجتهاد التي طرحها المسلمون . فأما المسلمون بعد ذلك فغلبهم النعاس فباتوا لا يتحركون . وأما الأمم الغربية فظلت تسير وتتقدم في مضمار العلم والعمل حاملة بيدها تلكم الراية ، حتى تبوأت منصب الإمامة الذي نزل عنه هؤلاء ، ففتحت بسيفها الجانب الأكبر من هذه الدنيا ، واستولت أفكارها ونظرياتها وعلومها وفنونها ومبادئها وحضارتها وتمدنها على العالم ، وسيطر حكمها وسيادتها لا على أجسام الناس وحدها بل على قلوبهم وأذهانهم أيضاً . حتى أنه لما تنبه المسلمون من نومهم المستمر على القرون ، رأوا أنه قد تمت الغلبة للأجانب وأصبحت البلاد تحت حكمهم وسيطرتهم ، فالآن لا علم إلا علمهم ولا حضارة إلا حضارتهم ولا قانون إلا قانونهم ولا حكومة إلا حكومتهم . ولم يبق بيد الأمة المسلمة شيء سوى الذكرى للعهود الماضية الزواهر . وهذه الذكرى أيضاً أخذت تمحي من صفحة الأذهان .

وفي أيامنا هذه أصبح الإسلام يحتك بالحضارة الغربية على طراز آخر . أنه لا شك في أن الحضارة الغربية لا

تستطيع أن تزاحم الإسلام بمنكبيها وتقوم أمامه كالند ، ولو أن الاحتكاك يكون بالإسلام الصحيح فلا شك أنه ما من قوة في هذه الأرض تستطيع أن تقف في وجهه ، ولكن قولوا لي : أين الإسلام اليوم ؟ إن المسلمين ليست فيهم السيرة الإسلامية ولا الخلق الإسلامي ولا الفكر الإسلامي ، ولا شيء من الحماسة الإسلامية . إن الروح الإسلامية الخالصة لا توجد في مساجدهم ولا في مدارسهم ولا في زواياهم ، ولم يبق من علاقة بين الإسلام والحياة العملية ، وليس القانون الإسلامي بنافذ في حياتهم الفردية ولا في حياتهم الجماعية . وليس هناك شعبة من شعب الحضارة والتمدن يكون تدبير أمرها قائماً على الطراز الإسلامي الصحيح . ففي هذه الظروف ليس الاحتكاك في الحقيقة بين الإسلام والحضارة الغربية ، بل هو بين حضارة المسلمين الخامدة الجامدة المتخلفة وحضارة نابضة بالحركة والحياة ، يشرق في جنباتها ضياء العلم وتدفئها حرارة العمل . وكل ما يمكن أن يكون من نتائج هذا الاصطدام بين جانبين غير متساويين من حيث القوة والحيوية فهو ظاهر للعيان ، وهو أن المسلمين لا يزالون يرجعون على أعقابهم في هذا المضمار ولا تزال حضارتهم تنهزم ، وهم يتدرجون إلى أن يذوبوا في الحضارة الغربية تماماً ويفتقدوا شخصيتهم المستقلة ، وقد غلب قلوبهم وأذهانهم النزوع إلى الغرب في كل شيء ، فلا تزال أذهانهم تنطبع بطابع الغرب ، ولا تزال قواهم الفكرية والنظرية تتمرن على حسب المبادىء الغربية ولا تزال

تصوراتهم وأخلاقهم واقتصادهم واجتماعهم وسياستهم . لا يزال يتلون كل ذلك بلون الغرب ، ولا يزال نشؤهم الحديد ينشأ على تصور أن القانون الحقيقي للحياة هو الذي قد نزل إليهم من الغرب . فهذه الهزيمة هي في الحق هزيمة المسلمين ، ولكنها لسوء الحظ تعتبر خطأ هزيمة الدين الإسلامي نفسه .

فليس هناك قطر واحد بعينه قد أصابته هذه النكبة ولا هناك أمة واحدة قد حاق بها هذا الخطر ، بل إن العالم الإسلامي كله يمر اليوم بمرحلة هذا الانقلاب الرهيب . إنه كان من واجب العلماء في الحقيقة أن يتنبهوا حينما ابتدأ هذا الانقلاب . فكان عليهم أن يتفهموا مبادىء الحضارة الطارئة وينفروا إلى أقطار الغرب ليتفقهوا في العلوم التي نهضت على أساسها هذه الحضارة ، كما كان عليهم أن يستعملوا قوة فكرهم واجتهادهم فيأخذوا من الغرب تلك الاكتشافات العلمية والمناهج العملية التي تقدمت بفضلها الأمم الغربية في سبيل الرقي ، ويركبوا تلك الأجزاء الحديثة في مكان النظام التعليمي والحياة المدنية عند المسلمين ، ضمن مبادىء الإسلام ، بصورة تتلافى بها الخسارة العظيمة التي قد تنالهم من الجمود المستمر على القرون ، وتجعل الركب الإسلامي يتماشى مع الزمن الحديث ، ولكن الأسف إن كان العلماء - اللهم إلا من عُصم - قد خلوا من روح الإسلام الحقيقية ، فلم تكن فيهم قوة الاجتهاد ولا التفقه في الدين

ولا الحكمة النظرية والعملية ولا القوة للعمل . فلم يكونوا أهلا لأن يستمدوا من كتاب الله والإرشاد النبوي في ناحيتي العلم والعمل مبادىء الإسلام المرنة الدائمة ، فيستخدموها في الأوضاع العصرية المتبدلة . وإنما كان قد سرى فيهم داء التقليد الجامد الأعمى للسلف ، مما كان يجعلهم يبحثون عن كل شيء في تلك الكتب الفقهية التي لم تكن منزلة من عند الله حتى تكون أرفع من قيود الزمن المتطور ، ويرجعون في كل شأن من شؤونهم إلى الأفراد الإنسانيين الذي لم يكونوا أنبياء الله حتى تكون بصيرتهم بالأمور متحررة من قيود الظروف والأوقات . وإذا كانت هذه حال العلماء على الأغلب فكيف كان من الممكن لهم أن يقودوا المسلمين قيادة سديدة في حين أن الزمان قد تغير ووقع في دنيا العلم والعمل من الانقلاب العظيم ما كان للعين الإلهية وحدها أن تبصره عبر القرون ، ولم يكن لغير نبي أن يشق بصرهُ حجب الأزمنة والقرون ليبصره ما من شك في أن العلماء بذلوا جهدهم لمقاومة الحضارة الجديدة ولكنهم كانوا لا يملكون الوسائل اللازمة لهذه المقاومة ، وذلك أن الحركة لا تحارب بالجمود ، ولا سير الزمن يمنع بقوة المنطق وحدها . ولا يدفع السلاح الجديد الفتاك بسلاح صديء قديم . وإن المناهج البالية التي أراد العلماء أن يتخذوها لقيادة الأمة لم تكن تنجح وتفيد شيئا في هذا الزمان . فإن الأمة التي أحاط بها طوفان الحضارة الغربية من جميع الأطراف كيف كان لها أن تغمض عينيها وتعطل حواسها وتنكر وجود الطوفان وتسلم

من آثاره ، وكيف كان لأمة ألقى عليها نظام الحضارة والتمدن الحديث نفوذه السياسي أن تجنب حياتها العملية من تأثيره ونفوذه ، على كونها في حال العبودية والهزيمة ، لذلك كان من عواقب ذلك ما ينبغي أن يكون : وهو أن انهزم المسلمون في حلبة العلم والحضارة والتمدن أيضاً بعد أن غلبوا في ميدان السياسة . وها نحن نرى الآن بأم أعيننا أن تيار الحضارة الغربية لا يزال يجرف في كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي وقد انساقت فيه الأجيال الناشئة من المسلمين حتى ابتعدت عن مركزها الإسلامي أبعاداً ساحقة جداً .

ومن سوء الفهم أن العلماء الإسلاميين لم يشعروا بخطئهم في الأمر حتى هذا اليوم ، فلا تزال جماعاتهم في كل قطر تقريباً ثابتة على مناهجهم القديمة التي خابت لاجلها مساعيهم فيما قبل ، وما خلا الأفراد القلائل لا ينفك يظهر من حال السواد الأعظم من العلماء أنهم لا يجهدون أن يفهموا الميول المتجددة لهذا العصر والوضع الجديد للعقليات . إنهم مستعدون كل الاستعداد لأن يرفعوا النكير على كل ما يبتعد بالأجيال المسلمة الحديثة عن الاسلام ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكلفوا أنفسهم بتهيئة الترياق لذلك السم الداخل في عروق الأمة . إنهم يخفقون دائماً في حل المعضلات العلمية والعملية التي قد خلقتها للمسلمين

هذه الاوضاع الجديدة ، لأنه لا يمكن حل تلك المسائل المعقدة بغير الاجتهاد ، والاجتهاد قد حرمه هؤلاء أنفسهم . وإن الأسلوب الذي قد اختاره علماؤنا اليوم لبيان تعاليم الإسلام وقوانينه إنما ينفر الطبقة المتحلية بالتعليم الجديد عن الإسلام بدل أن يجذبها إليه ، وإذا استمع المرء إلى مواعظهم أو اطلع على كتاباتهم فكثيراً ما يدعو الله أن لا يكون إيقاعهم الناشز هذا قد بلغ مسامع غير مسلم أو مسلم منحرف . إنهم قد ضربوا حولهم جواً عتيقاً قد مر عليه قرن على الأقل . فهم يعيشون ذلك الجو الماضي ويفكرون فيه ويتكلمون بحسب أحواله . إنه لا يشك أحد في أنهم هم الذين قد بقيت نفائس العلوم الإسلامية سليمة من غير الحدثان بفضلهم وعنايتهم ، وأن كل ما ينشر الآن من التعليم الديني بين الجيل المسلم فهو بواسطتهم وبمجهودهم . إلا أن هذا البرزخ الهائل العريض - عرض المائتين من السنين - الذي جعلوه بينهم وبين عصرهم الحالي لا يسمح بأي صلة تقام بين الإسلام والعصر الحديث . فالذي ينحو اليوم نحو التعليم الإسلامي فهو لا يبقى أهلاً لشؤون الحياة الدنيوية . وأما الذي يرضى لنفسه أن يستعد لممارسة الشؤون الدنيوية فهو يبقى غريباً عن التعليم الإسلامي . وهذا هو السبب في أنه يوجد في كل مكان من العالم الاسلامي طبقتان اثنتان تضاد احداهما الأخرى ، فالطبقة الواحدة تقوم بتدبير الشؤون العلمية والأدبية والسياسية للمسلمين ولكنها جاهلة بمبادىء الاسلام وأصوله ، خالية من روح الحضارة الإسلامية جاهلة بمباديء الاسلام

واصوله ، خالية من روح الحضارة الإسلامية غير مستأنسة لنظام الاجتماع الإسلامي والقوانين المدنية الإسلامية ، وليس للإيمان في قلبه الا شعاع ضئيل جداً في ناحية بعيدة منه وأما فيما وراء ذلك فليس بينه وبين غير المسلم فرق . ولكنه لما كان كل ما هنالك من القوة العلمية والعملية في قبضة هذه الطبقة وكانت هذه هي التي تقوى على تحريك دولاب الحياة فهي لا تزال تتقدم بالأمة ألى أودية الضلال ، وليس هناك من يهديها الصراط المستقيم .

إني أشاهد هذه الحياة وأتمثل ما قد يكون لها من عاقبة محزنة ، وإني وإن لم أكن على سعة العلم وشموك الفضل والكمال الذي يستلزمه عمل الإرشاد والتوجيه ، ولا كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أصلح هذه الأمة العظيمة في مثل هذه الظروف الفاسدة ، إلا أن الله تعالى قد أودع هذا القلب المتواضع ألماً لهذه الحال البائسة يدفعني إلى أن أستخدم ما أوتيت من قليل العلم والبصيرة فأدعو هاتين الطبقتين من المسلمين إلى الرجوع إلى المصدر الحقيقي للتعليم الاسلامي والينبوع الصافي لحضارة الاسلام ، وأبذل في هذا السبيل جهدي المستطاع . إني إذا نظرت إلى عظم هذا الامر بجانب ، وإلى قلة حيلتي وهواني بجانب آخر ، لم أر عملي هذا إلا جهد المقل . ولكن كل ما في الأمر من

الفوز أو الخيبة هو بيد الله تعالى وحده . وليس علي إلا السعي والجهد وقد أردت أن أوسع نطاق هذا السعي ما استطعت !

الفصل الرابع

بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي

في أوائل شهر ديسمبر سنة **١٩٣٣** صدر **الإعلان** الرسمي في أميركا بإلغاء قانون التحريم (Prohibition Law) فارتد أهالي الدنيا الجديدة إلى معاقرة المدامة والكأس بعد أربعة عشر عاماً قضوها في مشقة تحريمها . كان تولي السيد روزفلت لرئاسة الجمهورية الأميركية فاتحة الإعلان بانتصار (الخمر) على (الأمر) . فأعقبته أولاً إباحة الشراب الممزوج بـ **٣,٢**٪ من الكحول في أبريل من سنة **١٩٣٣** بقانون رسمي . ثم لم تمض عليه بضعة أشهر حتى ألغي التعديل الثامن عشر من مسودة الدستور الأميركي ، وهو الذي حرم به على الناس بيع الخمر وشراؤها وصنعها وتربيبها وتصديرها واستيرادها .

كانت هذه أكبر تجربة جربها الإنسان لإصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعي بقوة القانون وسلطة الحكم لا يوجد لها نظير في التاريخ . وذلك أنه قبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأميركي أقيمت في البلاد دعاية واسعة

النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات (Anti-Saloon League) تسعى وتجتهد في ترغيب الأميركيين عن الخمر وتثبيت مضارها في قلوبهم ، بإلقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما . وأفنت في سبيل هذا التبليغ عشرات السنين وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والإذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة **١٩٢٥** مبلغ خمسة وستين مليون دولار ، وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مساوىء الخمر والزجر عنها تسعة آلاف مليون صفحة .

ذلك قبل بدء التجربة . وأما ما تحملته الأمة الأميركية في الأربعة عشر عاماً الماضية من النفقات **الباهظــة لأجـل** تنفيذ قانون التحريم فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه . وتدل الإحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الأميركي للفترة الواقعة بين يناير من سنة **١٩٢٠** وأكتوبر من سنة **١٩٣٣** أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة وسجن نصف مليون وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه ، وصودر من الإملاك ما يساوي أربعمائة مليون جنيه .

كل هذا النقص الهائل في الأنفس والأموال كابدته أميركا لغرض واحد هو تلقين الأمة الأميركية « المتحضرة » مفاسد الخمر الجمة وتنبيهها إلى مضارها الروحية والصحية والاخلاقية والاقتصادية . ولكن كل هذه الجهود المتوالية التي بذلت قبل تنفيذ التحريم وبعده بتأييد من قوة الحكومة

وسلطانها خابت لدى الأمة الاميركية بإزاءَ عزمها القوي على معاقرة الراح . وعاد القوم من هذا الجهاد الإصلاحي العظيم بصفقة خاسرة .

لم يكن إخفاق الحكومة الأميركية في تحريم الخمر ولا الغاؤ ها لقانون التحريم بعد تنفيذه راجعاً إلى أن مضار الخمر التي أعيد وأبديء في بيانها فيما قبل واستخدمت سلطة القانون وقوة الدعاية لاستئصالها ، قد تحولت على مرور الأيام الى المنافع والبركات ، أو جاء اكتشاف علمي جديد يصحح آراء الناس في الخمر . بل الحق أن قد برهنت لهم شواهد أقوى وتجارب أوسع وأكثر مما كان منها في الغابر أن الخمر أم الخبائث ، تمت إليها بشابكة النسب القريب جميع الكبائر من الزنا والبغاء واللواطة والسرقة والمقامرة والقتل . وأن لها النصيب الأكبر في تشويه أخلاق الأمم الغربية وتخريب صحة أبدانها وإفساد معاشها واجتماعها . ولكن الذي أجبر الحكومة الأميركية مع ذلك كله على استرداد القانون بعد إصداره واستحلال الخمر بعد تحريمها ، هو مجرد كون الأكثرية الساحقة من أهل أميركا لم ترض مفارقة الخمر ، وكون الشعب الذي كان حرم بأصواته استعمالها قبل أربعة عشرعاماً عاد هو نفسه يصر على إباحتها وإطلاق الحرية في استعمالها .

الذي نعلمه أنه لم يجحد أحد من خلق الله بمضار الخمر حتى ولا أشد حماتها وهواتها ، ولا تقدم أحد ممن

يخالف تحريمها ببيان لمحاسنها ومنافعها يقام له وزن في جنب مفاسدها الكثيرة . وعندما عرض على المؤتمر الأميركي الاقتراح بإدخال التعديل الثامن عشر على الدستور بتأييد قوي من الرأي العام تثبت القوم في الأمر ووازنوا جيداً بين الحياتين ، حياة بليلة ببلال الراح المباح وأخرى جافة بجفاف الزهد والامتناع ، ولم يوافق المؤتمر على هذا التعديل إلا مراعاة لكل تلك المضار التي في الخمر . ثم أيدته عليه ست وأربعون ولاية من الولايات المتحدة ، وصادق على قانون التحريم التابع له كل من مجلس النواب (Congress) ومجلس الأعيان (Senate) . وتم كل ذلك حسب رضاء الأمة الأميركية وإرادتها . وما دام أمر هذا التحريم حبراً على القرطاس وحديثاً في الأفواه بقيت الأمة تؤيده وتحامي عنه . ولكن العجب ـ وأمر الغرب كله عجب ـ أن لم يكد يدخل هذا القانون في طور التنفيذ وفي حيز العمل حتى تبدلت الأمة غير الأمة ، فعادت ـ وهي أرقى أمم الأرض مدنية وأقواها سياسة وأغزرها علماً وأرجحها عقلاً وأميلها إلى الحقيقة والواقع ـ عادت لا تطيق الصبر عن أم الخبائث هذه ، وما باتت ليلة واحدة بدونها حتى جن جنونها وطارت حواسها ، وأخذت تأتي من الافعال ما يخيل إلى الناظر أنها توشك أن تشدخ رأسها بفهر أو صخرة كفعل العاشق المجنون في غراميات الشرق .

فلم تكد تغلق الحانات القانونية العلنية في البلاد بجانب

حتى انفتحت فيها بجانب آخر آلاف مؤلفة من الحانات السرية (Speak-easies) و (Blind pigs) التي يحتال فيها أصحابها ضروباً من الحيل لبيع الخمر وشرائها وشربها وسقيها ، اتقاء مؤاخذة القانون . وبلغ من طغيان شهوة الخمر على الناس أن أصبحت دلالة رجل منهم لآخر من أقاربه أو أصدقائه على مكان حانة خفية أو على كلمة سرها (Pass-word) عملاً من البر والإحسان عظيماً . فبينما كانت الحكومة يتسنى لها قبل التحريم أن تراقب عدد الحانات الحاصلة على الامتياز وتتعهد ما يستعمل فيها من أنواع الخمر وتتطلع على أحوال المترددين إليها من الناس ، عادت بعد هذا لا تستطيع شيئاً من ذلك ، لأن تلك المكامن للعصيان المنتشرة في أرجاء البلاد أكثر وأعم من أن تحيط بها رقابتها ، وعددها أضعاف عدد الحانات العلنية الموجودة في البلاد قبل التحريم . هذا وطفق يباع فيها كل نوع رديء من المسكرات ، ضرره بصحة الإنسان أسوأ من ضرر السم الزعاف . ثم كثر تردد الصغار من أبناء الأمة وبناتها إلى هذه الحانات ، مما قلق له أهل الفكر الأميركيون وخافوا سوء مغبته . وغلت أثمان الخمر غلاء فاحشاً وعادت مهنة بيع الخمر من أربح المهن وأنفعها ، فصار يحترف بها ملايين من الناس . وعلاوة على هذه الحانات السرية ظهرت هناك فئة من الخمارين المتجولين (Boot-leggers) هم بمثابة حانات متنقلة يبيعون الناس الخمر في المدارس والمكاتب والفنادق والمنتزهات ويتوصلون إليهم حتى في بيوتهم ومنازلهم ،

ليجدوا مشترين جدداً لبضاعتهم . والذي قدر على أقل التقدير أنه بلغ عدد الخمارين بعد التحريم عشرة أضعاف ما بلغه قبله . وجاوزت هذه المهنة مدائن القطر إلى القرى والأرياف ، فأقيمت في كل قرية معصرة سرية . وبينما كان عدد مصانع الخمر الحائزة للامتياز قبل التحريم لا يعدو أربعمائة ، فقد عثروا في مدة سبع سنين بعد التحريم على قريب من ثمانين ألف مصنع ، ووقعوا على أكثر من تسعين ألف أتون لصنع الخمر ، إلا أن هذا كله لم يعد على تجارة الخمر بشيء من النقصان ، واعترف رئيس سابق لقسم التحريم في الحكومة الاميركية بأنه « لم نتمكن من العثور إلا على عشر ما في البلاد من مصانع الخمر وأتاتيها » . وكذلك زادت مقادير الخمر المستعملة زيادة عظيمة حتى لقد حدث أن أصبح الأميركيون يشربون مئتي مليون غالون (Gallons) من الخمر في كل سنة ، وكانت هذه المقادير أكثر بكثير مما كانوا يستعملونه قبل التحريم .

ثم إن الخمر التي أصبحت تستعمل منها تلك الكميات العظيمة عادت في كيفيتها أردأ نوعاً وأشد بالصحة ضرراً ، مما جعل الأطباء يقولون فيها : « إن هذا المشروب أحرى بأن يدعى السم من أن يسمى خمراً ، فإنه لا ينحدر من حلق الشارب حتى تسري آثاره السيئة إلى معدته ودماغه ، وتبقى أعصابه مأفونة بها مدة يومين كاملين . وما دام الإنسان في سكر منه لا يصلح لعمل صالح ولا لحياة طبيعية ، بل هو

يميل طبعاً إلى إثارة الضجة والفوضى وارتكاب المعاصي والإجرام » .

فالإكثار من شرب هذه الأجناس الرديئة من الخمر أودى بصحة أهل أميركا وكثر فيهم الأمراض والاسقام . ومن أمثلة ذلك ما تدل عليه الإحصاءات لمدينة نيويورك من أنه كان عدد المرضى فيها من استعمال الكحول في سنة **١٩١٨** قبل التحريم : **٣٧٤١** وعدد الهالكين من استعماله : **٢٥٢** نفساً . ثم بلغ عدد المرضى فيها لسنة **١٩٢٧** بعد التحريم أحد عشر ألفاً وعدد الهالكين سبع آلاف ونصف الألف . وأما الذين تعدت إليهم آفات الخمر من طريق غير مباشر فأهلكتهم أو جعلتهم في حكم الأموات ، فلم يعلم عددهم إلا الله .

كذلك كثرت الجرائم ، ولا سيما جرائم الصبية والفتيان كثرة فاحشة . وشهد القضاة الاميركيون أنه : « لم تعهد في تاريخ بلادنا هذه الكثرة الكاثرة من الصبيان المقبوض عليهم في حالة السكر » . ولما تجاوزت جرائم الأحداث أقصى الحدود وبلغ السيل الزبى ، قام المسؤولون بالتحقيق في اسبابها فدلتهم الحقائق على أنه من سنة **١٩٢٠** لا تزال معاقرة الخمر والعربدة تزداد وتتفشى بالشبان سنة بعد سنة ، إلى أن تضاعف عدد المتورطين منهم في هذه المعاصي ثلاثة أضعاف ما كان من قبل في بعض المدن في مدة ثمانية أعوام . وصرح الأمير الاي موس (Col. Moss) مدير المجلس الأعلى للنظر في الجرائم (National-Crime Council) أن

واحد من كل ثلاثة أميركيين يتعاطى الجرائم وقد ازدادت جرائم القتل عندنا بقدر (٣٠٠ ٪) مما كان منها من قبل » .

وحاصل القول أن النتائج التي ظهرت في أميركا عقب تحريم الخمر تتلخص في أنه :

ـ زالت عن القلوب حرمة القانون ونشأت نزعة للبغي والتمرد عليه في كل طبقة من المجتمع .

ـ لم تتحقق الغاية المقصودة من تحريم الخمر ، بل زاد استعمالها بعد التحريم على ما كان عليه قبله .

ـ تجشمت الحكومة خسائر لا تحصى في تنفيذ قانون التحريم . ومثلها أيضاً أصاب الشعب الأميركي لاشترائه الخمر خفية . فتأثرت بذلك اقتصاديات البلاد .

ـ كثرت الأمراض واختلت الصحة وازدادت نسبة الوفيات ، وفسدت الأخلاق وشاعت الرذائل وتفاحشت الجرائم في جميع طبقات المجتمع وعلى الأخص في الجيل الناشيء .

وكانت هذه كلها من ثمرات هذا القانون في ناحية التمدن والاخلاق .

ظهرت هذه النتائج كلها في دولة تعد من أرقى دول الارض حضارة ، في زمان من أليق أزمنة التاريخ بضياء العلم ، وإن أبناءها أوفر حظاً من التهذب والثقافة ، تشرق

تنويرهم بنور الحكمة والعلم . فهم أحرى أن يعرفوا ما يضرهم وما ينفعهم .

وظهرت هذه النتائج على حين أنه نبهت الامة الاميركية بأسرها على مضار الخمر بدعاية واسعة شاملة بذلت بسبيلها ملايين من الدولارات ونشر لاجلها مئات الملايين من الكتب والرسائل .

وظهرت على الرغم من أن أكثرية ضخمة من الأمة الأميركية اتفقت على ضرورة التحريم . وبرضاها وتأييدها عرض على المجلس الأميركي مشروع التحريم وصودق عليه

وأخيراً ظهرت هذه النتائج مع كون دولة جبارة كالدولة الأميركية قد أقامت على السعي والجهد للقضاء على شرب الخمر وتجارتها بأحسن ما يمتاز به القرن العشرون من الإدارة والتنظيم مدة أربعة عشر عاما محرمة

أما قبل أن تظهر هذه النتائج فكانت الأكثرية من الحكومة والشعب كليهما تتفق على تحريم الخمر . فحرمت فعلاً ، ولكنه لما تحقق بعد التحريم أن الامة لا ترضى هجر الخمر بحال من الأحوال وكانت عواقب إكراهها على تركها أسوأ مما كانت عليه الحال فيما قبل ، عادت الاكثرية من الحكومة نفسها والشعب ذاته تتفق على إحلال الخمر . فأحلت ! .

* * *

والآن هيا بنا نرسل الطرف في قطر كان يعد أجهل أقطار الأرض في أظلم عصور التاريخ قبل ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً ، أهاليه أُمِيُّون ، والعلم والحكمة فيه شيء معدوم ، والتمدن والحضارة أمر لا يعرفه فيه أحد ، وعدد المتعلمين فيه ربما لا يزيد على واحد في عشرة آلاف ، وذلك المتعلم الواحد ليس نصيبه من العلم إلا مثل ما لعامتنا منه في هذه الايام ، ثم ينعدم فيه ما يمتاز به هذا العصر الاخير من الوسائل وإدارات التنظيم ، ونظام الحكم فيه في حالة بدائية لم يمض على قيامه إلا بضع سنين . وأما أهاليه فعشاق للخمر متهالكون عليها متفانون فيها ، في لغتهم نحو مائتين ونصف مائة علم لهذا الشراب وحده ، مما لا نظير له في أية لغة أخرى ، وإن استزدت دليلاً على شغفهم البالغ بها فهذا شعرهم الذي تجد الخمر لحمته وسداه ، مما يخيل إلى القاريء أنهم رضعوها مع لبان أمهاتهم وكانوا يعتبرونها لازمة لزوم الماء لحياتهم .

هذه هي حالة ذلك القطر وهذه صفة أهالية ، إذ تخطر ببال الناس مسألة الخمر فيأتون النبي ﷺ يستفتونه في أمرها ، فيتلو عليهم قول الله عز وجل : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر . قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ـ البقرة **٢١٩** ﴾ . فيسمع الناس الآية وليس فيها أمر أو نهي وإنما هي خبر وتلقين ، يبين الله تعالى به حقيقة الخمر ويخبر عباده بأنها ذات منافع وذات مضار ولكن ضررها أكبر

من نفعها . على أنه يكون من تأثير هذا التعليم أن يتركها قوم للإثم الكبير ، ويقولون لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثم كبير . ويشربها قوم لقوله تعالى : ﴿ومنافع للناس . . . ﴾ .

ثم أعيد السؤال ثانية عن الخمر ، إذ كان بعض الناس يصلون وهم سكارى فيهذون فقرأ عليهم رسول الله ﷺ مما أوحي اليه : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون ـ النساء : **٤٣**﴾ . فحرم السكر في أوقات الصلاة ، ولكنه تركها قوم بالمرة وقالوا لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم : نشربها ونجلس في بيوتنا ، فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها في غير حين الصلاة ، وذلك لئلا يصلوا وهم ثملون ، أو يضطروا إلى ترك الصلاة من أجل السكر .

إلا أن مضرة الخمر الحقيقية ظلت باقية بعد . إذ ربما كان الناس يسكرون فيفسدون . ويؤدي بهم الأمر في بعض الأحايين إلى الفتك والقتل . لذلك تطلعت النفوس الى بيان شاف للخمر . فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا إنما على رسولنا البلاغ المبين ـ

المائدة : ٩٠ ـ ٩٣ ﴾ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انتهينا يا رب ! وقال أنس رضي الله عنه : حرمت ، ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر . قال : فأخرجنا الحُباب إلى الطريق فصببنا ما فيها . فمنا من كسر حُبَّهُ ومنا من غسله بالماء والطين . ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً ، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحات ريحها .

وقال أنس بن مالك : كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طليحة ، وما شرابهم إلا فضيخ البُسْرِ[1] والتمر ، فإذا مناد ينادي ، فقال القوم : أخرج فانظر ، فإذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فجرت في سكك المدينة ، فقال لي أبو طلحة : أخرج فأهرقها ، فهرقتها . وقيل كان رجل يشرب الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفتيه إذا بداخل دخل عليه وقرأ آية التحريم ، فانفصلت الكأس من فيه للحال ، ولم يذق لسانه قطرة مما فيها بعد ذلك .

وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال وبالجريد والعصي ، ثم جلدوه أربعين ، ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة . فكان من نتيجة ذلك أن هجرت العرب شرب الخمر هجراً ، ثم حينما بلغ الإسلام أقطار الأرض زهد الأمم فيها ونفرها عنها ، حتى صرت ترى اليوم ، وقد ضعفت آثار تعاليمه ، ملايين من بني آدم في هذه الدنيا يجتنبون الخمر

(١) البُسْر : الثمر إذا لَوّن ولم ينضج

بدون زاجر من قانون التحريم أو مانع من نظام التعزير . ولئن احصيت اليوم نسبة الشاربين في المسلمين فلعل هذه الأمة توجد أزهد الأمم في الخمر حتى في هذه الحال المتخلفة . ثم لا يشرب من هذه الأمة شارب إلا وهو يعتقد أنه يرتكب إثماً ومعصية ، فيندم عليه في قلبه ، وربما تاب عنها من تلقاء نفسه .

* * *

إن العقل والمنطق يقوم حكمهما الفيصل النهائي على التجارب والشواهد وحدها . وشهادة التجربة عندهما مما لا يمكن أن يكذب أو يرد ، فبين يديك الآن تجربتان اثنتان : تجربة أجريت في أميركا في العهد القريب وأخرى جرت في العرب في صدر الإسلام ، والفرق بينهما ظاهر لذي عينين ، فلك أن توازن بينهما وتقارن ، ثم تستخلص من ذلك ما قدر الله لك من العبرة .

ففي القطر الأميركي قام أولوا الإصلاح بدعاية واسعة ضد الخمر مدة سنوات طوال ، وبذلوا ملايين من الدولارات لإعلان مضارها ومساوئها ، وبينوا آفاتها وسيء آثارها في جسم الإنسان وأخلاقه واقتصاده بأدلة ناهضة من تعاليم الطب والاستنباط المنطقي ، وأثبتوها إثباتاً لا يدع أحداً في شك من الامر . بل أروا الناس مضار الخمر رأي العين متمثلة في الصور ، وسعوا سعيهم لأن يؤمن الناس بمفاسد أم الخبائث فيستعدوا لتركها من تلقاء أنفسهم . ثم إن المؤتمر الأميركي

وهو أكبر حزب سياسي للأميركيين حينئذ قطع بتحريم الخمر بأكثرية غالبة ، فسن له قانوناً ، ثم جاءت الحكومة ـ وهي من أعظم حكومات الأرض وأقواها ـ فاستفرغت جهودها لمنع بيعها وشرائها وصنعها وتربيبها وتصديرها واستيرادها ، ولكن الامة ـ وهي في طليعة الامم المثقفة المستنيرة ـ لم ترض هجرها ، فاضطر القانون في مدة أربعة عشر عاماً أن يرجع القهقرى فيحل بنفسه ما حرمه فيما سبق .

وبجانب آخر ، ما قام أحد في الإسلام بنوع من الدعاية ضد الخمر ، وما بذلت صفراء ولا بيضاء في النشر والإذاعة في هذا الصدد ، وما قامت في بلاد الإسلام رابطة تحارب وجود الحانات ، وإنما أعلن الرسول ﷺ على الناس أن يا قوم لقد حرم الله الخمر . ولم يخفت دويّ إعلانه حتى امتنعت الأمة ـ التي كانت أعشق للخمر من الأمة الأميركية ، ثم لم تكن من العلم والتعقل المتعارف عليهما في ذلك الزمان على شيء يذكر في جنبها ـ فأمسكت عن الخمر وودعتها وداعاً لا رجعة لها بعده إليها ما دامت في دائرة الإسلام . وهي لأن تبقى حصوراً عن الخمر لا تحتاج إلى قوة حاكمة أو محاسبة أو نظام تعزيري ، بل تجتنبها وتتنزه عنها وإن لم تكن فوقها قوة قاهرة تكرهها عليه . ثم إن تحريم الخمر في الإسلام ليس من النوع الذي يمكن أن يخفف أو يحول إلى التحليل بحال من الأحوال ، بل الأمر أنه إن اتفق جميع المسلمين في الأرض على تحليل الخمر وأعطوا

أصواتهم بحق ذلك ، لم يستطيعوا أن يحلوا هذا الحرام أبداً .

وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين التجربتين ، تبينت أموراً هي كالأصول الكلية الثابتة لا في الخمر وحدها بل في جميع مسائل القانون والأخلاق .

أولها : أنه فرق أساسي عظيم بين الإسلام والقوانين الوضعية في تنظيم السلوك الإنساني ، فالقوانين الوضعية تعتمد تماماً على الرأي الإنساني ، وهي مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأي الخاصة والعامة في كلياتها وأصولها بل في كل فرع منها ، وشأن الرأي الإنساني ـ سواء كان للخاصة أم العامة ـ أنه لا يزال يتأثر في كل آن بالعواطف والنزعات الإنسانية والأسباب والعوامل الخارجية وأحكام العلم والعقل القابلة للتغير ـ مما لا يلزم أن يكون صواباً في كل حال ـ وهذا التأثر يؤدي إلى التغير في الأفكار والآراء ، وبهذا التغير تتبدل بالضرورة مقاييس الخير والشر والصحيح والخطأ والجائز والمحظور والحرام والحلال ، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها حيث مالت ، وبذلك لا يتحقق للأخلاق والمدنية مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغير ، بل يتحكم تلون الطبع الإنساني في القانون وتلون القانون في الحياة الإنسانية . مثل ذلك كمثل سائق مريض ، يسوق السيارة ، فتعبث يداه الخرقاوتان بموجهتها يميناً وشمالاً بدون نظام . واضطراب الموجهه يعقب اضطراباً في سير السيارة ،

فلا تلتزم طريقاً مستقيماً ، وإذا هي سارت مثل هذا السير المختلج يمنة ويسرة فلا بد أن يتأثر به السائق ومن معه في السيارة ، فيكونون تارة على سواء الطريق وتارة على عذاريه ، يخشى في كل حين أن يسقط بهم المركب في فجوة أو يصطدم بهم بصخرة ، أو يصيبهم من صدمات الطريق ما هو أتعب وأشد .

وبخلاف ذلك إن جميع الأصول الكلية ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق في الإسلام هي من وضع الله والرسول ، وليس للرأي الإنساني إلى التدخل فيها من سبيل ، وإن كان له بعض الدخل في الجزئيات فهو لا يعدو أن يستنبط الإنسان فروعاً جديدة من تلك الأصول الكلية والشواهد الجزئية مراعاة لأوضاع حياته المتبدلة ، تنطبق على أصول الشرع حتماً . ومن بركات هذا التشريع الرباني أنه يضع بأيدينا مقياساً ثابتاً للمدنية والأخلاق لا يتزلزل . فلا يكون في قوانيننا الخلقية والمدنية أثر للتلون ، ولا يمكن عندنا أن يصبح حرام الأمس حلالاً اليوم ثم يعود حراماً غداً ، وإنما الحرام في الإسلام حرام إلى أبد الآباد والحلال حلال إلى يوم المعاد . وقد أسلمنا زمام مركبنا إلى حاذق تام البراعة واطمأننا إلى أنه سيجريه على الطريق المستقيم ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ﴾ .

والأمر الثاني الخطير أن السلطات الدنيوية إذا أرادت

وضع القواعد الإنسانية ومحاولة الإصلاح في التمدن والأخلاق والاجتماع ، فهي تحتاج في كل مسألة فرعية إلى استرضاء عامتها للإصلاح المنشود فيها قبل أن تتولاه وتأخذ في العمل له . ولذلك يتوقف نفاذ كل مادة من مواد قانونها على رضاء جمهور العامة . وكل ما ينفذ في البلاد من قانون إصلاحي أو تنظيمي بخلاف رضاهم فإنه لا محالة ينسخ ويلغى آخر الامر بعد كثير من الفساد ، واضطراب الأحوال . وليس هذا مما جربته أميركا وحدها وإنما تشهد به تجارب الدنيا بأجمعها . وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة نكدة لا تغني شيئاً في إصلاح الاخلاق والاجتماع ، لأن المفسدين الذين ترمي هذه القوانين إلى إصلاحهم هم الذين يتوقف على رضاهم تقرير تلك القوانين أو رفضها وتنفيذها أو الغاؤ ها .

وقد حل الإسلام هذه العقدة بطريق آخر ، إن تأملته علمت أنه لا حل لهذه المشكلة سواه . وهو أنه قبل أن يتعرض لمسائل التمدن والاجتماع والاخلاق ، وقبل أن يطالب الإنسان بإطاعة قوانين الشرع ، يدعوه أن يؤمن بالله وبكتابه ورسوله . أما قبول الإنسان دعوته أو رفضه أياها فلا شك موقوف على رضاه ، وهو مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن ، ولكنه متى آمن بالله والكتاب والرسول بطل كل سؤال بعد ذلك عن رضاه أو عدم رضاه ، وأصبح كل ما يأمره به الرسول عن الله تعالى وكل ما يقرره كتاب الله أمراً واجب

الإذعان له . وإذا ثبت هذا الاصل من الإيمان بالله جرى عليه جميع القوانين الشرعية ولم يعد لرضاه أو سخطه دخل في مسألة كلية أو جزئية . وهذا ، لو تأملت ، هو السبب في أن المشروع الذي لم يتحقق في أميركا على رغم ما أُهلك في سبيله من ملايين الدولارات وعلى رغم ذلك التبليغ والدعاية والنشر النادر النظير في تاريخ الأمم ومساعي الحكومة المتوالية على طول السنين ، تحقق في دنيا الإسلام بإعلان واحد أعلنه الرسول عن ربه .

والعبرة الثالثة : أن جماعة إنسانية مهما وفر نصيبها من نور العلوم والفنون ومهما علا مقامها في سماء الارتقاء العقلي لا يمكنها التخلص من براثن الهوى ما لم تكن مطيعة للقانون الرباني ومتمتعة بقوة الإيمان ، ولا بد أن يكون عليها من سلطان الأصول النفسية ما لا تطيق معه الصبر عما تألفه وتميل اليه ، وإن بينت لها مضاره أجلى من شمس النهار ، وجئت بالعلوم التجريبية - أي جئت بآلهة العقليين - شاهدة على مساوئه ومفاسده ، وعرضت عليها شهادة الإحصاءات - التي لا تكذب أبداً عند أهل الحكمة في هذا العصر - وبرهنت آفاته وأضراره بالتجربة والمشاهدة .

ومن ذلك كله يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية في الانسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمّارة ، كل ذلك ليس من مقدور العلم والحكمة ولا هو في طوق العقل والمنطق ، بل هو مما لا يحققه إلا الإيمان وحده .

الفصل الخامس

إنتحار الحضارة الغربية

لشد ما تندهش العقول لما ترى من هذا الرقي العجيب الذي حازته أمم الغرب في ميادين السياسة والتجارة والصناعة والحرف والعلوم والفنون . وإنه ليخيل إليها أن رقي هذه الأمم الغربية أبدي سـرمـدي، وأنه قد قضي الامر بدوام غلبتها واستيلائها على العالم ، وأنها قد اختصت ـ دون غيرها ـ بالحكم على البسيط الارضي والسيطرة على عناصر الكون ، وأن قوتها قد بلغت من الشدة والرسوخ أن لا يمكن استئصالها .

مثل هذا الظن قد غلب العقول في كل زمان بالنسبة إلى كل تلك الأمم التي كانت « الأمة الغالبة » في زمانها . ففراعنة مصر وأمتا عاد وثمود في العرب ، والكلدانيون في العراق ، وأكاسرة فارس ، والغزاة اليونان العالميون ، وملوك الروم الحاكمون على أقطار الأرض ، والمجاهدون المسلمون الفاتحون للعالم ، والجنود التتر المخربون للبلاد ، كل أولئك

قد مثل دور القوة والسيادة على مسرح هذه البسيطة . فأي من جاءت نوبته منهم ، صعد المنصة وأدهش العالم - كفعل الامم الراقية اليوم - بما عرض من مظاهر قوته ومشاهد ذهابه وإيابه في أنحاء الأرض . وكل أمة من تلك الأمم لما نهضت عمرت العالم كله بسيادتها . وقد سمع دوي شوكتها وجبروتها في ربوع الأرض على هذا النحو . وهكذا ارتاعت الدنيا لعظمتها وخيل إليها أن قوتها لن تزول . ولكنه لما جاء أجلها وقضى بزوالها الحاكم القوي الذي لا زوال لقوته أبداً ، عثرت عثرة لم ير لأكثرها وجود بعدها ، ولو أنه بقيت لبعضها آثار الوجود بعد ذلك ، فإنها هانت إلى درجة أنها خضعت لمحكوميها بالأمس وأصبحت مملوكة لمماليكها في الغابر . (قد خلت من قبلكم سنن . فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

ومن خصيصة نظام هذا الكون أنه لا سكون له ولا وقوف . فهناك حركة دائمة وتغير ودوران مستمر . لا يدع شيئاً يستقر على حال . فكل كون يتبعه فساد ، وكل بناء يصحبه خراب ، وكل ربيع يتلوه خريف ، وكل صعود بعده هبوط ، وهكذا على العكس . فأنت ترى حبة مستصغرة تذروها الرياح اليوم من مكان إلى آخر ، وغداً تتأصل هذه الحبة في الارض ، فإذا هي شجرة باسقة الفروع ، ثم تذوي هذه الشجرة بعد غد فتسقط وتندفن في الارض ، فتغادرها القوى الفطرية المنشئة لتغذي بذرة أخرى . وهذا كله من عمل الرفع

والخفض الجاري في هذه الحياة . فإذا ما رأى المرء حالاً معينها من الحالين تستمر على كائن لمدة طويلة ، ذهب به الظن إلى أن هذه الحالة ستبقى إلى الأبد . فإن كان هبوط فلا بد أن يبقى هبوطاً أبداً ، وإن كان صعود فلا بد أن يظل صعوداً أبداً . ولكن كل ما هنالك من فرق بين الحالتين هو من حيث التقدم والتأخر ، ولا خلود لأيتهما أبداً . ﴿ وتلك الأيامُ نداولُها بينَ الناس ﴾ .

لا تزال أحداث هذا العالم تجري وتتحرك فيما يشبه حركة دورية . فالولادة والموت والشباب والشيخوخة والقوة والضعف والربيع والخريف والنضارة والذبول ، كل أولئك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية . وتبعاً لهذه الحركة تطرأ على كل كائن ـ حسب نوبته ـ حال من الإقبال ينمو في أثنائها ويزكو ، ويظهر من نفسه القوة والشدة ويعرض ما يتسم به من جمال وبهاء ، حتى يبلغ ذروة رقيه وكماله . ثم تعقب ذلك حال من الإدبار ، يتناقص فيها ذلك الكائن ويذوي ، ويأخذه الضعف والاضمحلال ، حتى تقضي على وجوده نفس القوى التي كانت أنشأته .

تلك سنة الله فيما خلق . وهذه السنة كما هي جارية في سائر الموجودات ، هي جارية أيضاً في الإنسان ، سواء في حالته الفردية أو في حالته الجماعية القومية ، فلا يزال العز والذل ، والعسر واليسر ، والصعود والنزول ، وما إلى ذلك من الحالات ينتاب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة

الدورية ، فتطرأ على الجميع كل هذه الأحوال بالتناوب ، وليس منهم من حرم في هذه القسمة للأبد ، ولا منهم من اختص بدوام حالة واحدة عليه للأبد ، سواء أكانت حالة الإقبال أم الأدبار : ﴿ سنة الله في الذين خلوْا من قبلُ ولن تجدَ لسنةِ الله تبديلاً ﴾ .

وإنا لنرى اليوم على كل بقعة من بقاع الأرض آثار الأمم التي سبقتنا ، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضارتها وتمدنها وصناعتها وحذقها وكمال فنها وبراعة يدها ما يدل على أنها لم تكن بأهون من هذه الأمم الراقية الغالبة في زمانها ، بل الحق أنها كانت أقوى وأغلب من هذه على الأمم المعاصرة لها في ذلك العصر : ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ ، ولكن ماذا كان مصيرها ، إنها انخدعت بما وجدت نفسها فيه من حالة الإقبال ، وغرتها النعم وفتنتها الرفاهية ، فتكبروا وتجبروا لما استتب لهم من القوة والغلبة ، فأخذوا يظلمون أنفسهم بما يرتكبون من سيئات الأعمال : ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ . وقد أمهلهم الله تعالى على رغم تمردهم وعصيانهم ﴿ وكأيّنْ من قريةٍ أمليْتُ لها وهي ظالمة ﴾ ، ولم تكن هذه المهلة بيسيرة ، بل أمهلت بعض الأمم مدة قرون متوالية ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ ، ولكن كل مهلة أمهلوها أصبحت لهم بلاء من ربهم جديداً ، إذ زعموا أنهم قد عاجزوا الله بمكرهم

وتدبيرهم . وهنالك هاج غضب الله فانصرفت عنايته عنهم ، وأعقب عهد إقبالهم عهد الخمول والإدبار : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون ﴾ . وإن المكر والتدبير الإلهي لا يواجه المرء من أمام ، بل هو ينبعث من داخل الإنسان نفسه ، فيسري إلى ذهنه وقلبه ليعمل عمله ، فهو يثبت على عقل المرء وشعوره وتمييزه وفكره وحواسه ، فيسلب عيني عقله وبصيرته النور ، ويجعله مكفوف البصيرة لا مكفوف البصر : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . وإذا افتقد المرء نور قلبه الداخلي ، فكل تدبير يدبره لمصلحته يأتي على عكس المقصود فيضر ، وكل خطوة يخطوها نحو غاية النجاح تقوده إلى مهوى الهلاك ، وتعصى عليه جميع قواه ومقدراته إلى أن تخنقه يداه هو نفسه ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . إنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ .

إنا نجد صورة متكاملة لتناوب هذا الإقبال والإدبار على الأمم في قصة آل فرعون وبني إسرائيل ، وذلك أن أهل مصر لما وصلوا إلى قمة الرقي ، أخلدوا إلى الظلم والعدوان . فادعى كبيرهم فرعون : أنا ربكم الاعلى ، وجعل يعذب وينتقم من أمة ضعيفة ـ تدعى بني إسرائيل ـ استوطنت أرض مصر أيام النبي يوسف عليه السلام ، فلما بلغ عدوان فرعون والامة المصرية نهايته ، قضت مشيئة الله أن تخضد شوكتهم وترفع تلك الأمة المستضعفة ـ بني اسرائيل ـ التي كانوا

يحتقرونها . فتحقق ما أراد الله وولد في بني إسرائيل النبي موسى عليه السلام . ومهد التدبير الإلهي لأن تكون نشأته وتربيته على يد فرعون وفي قصره . فلما بعث نبياً ، عهد الله إليه أن ينقذ أمته من عبودية المصريين . فنصح فرعون بلطف . ولكنه لم ينتصح . ثم جاء فرعون وقومه من ربهم إنذار بعد إنذار بما تتابعت عليهم المجاعات . وتكرر عليهم الطوفان ، ونزل عليهم الدم ، وأكل حرثهم الجراد ، وآذتهم كثرة القمل والضفادع . ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من عتوهم وكبريائهم : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . ولما تمت الحجة عليهم . قضي الامر بنزول العذاب الإلهي . فخرج موسى عليه السلام مع أمته من مصر بإذن الله ، وأغرق فرعون وجنوده في اليم ، وسقطت القوة المصرية بذلك سقوطاً لم تنهض منه مدة قرون : ﴿ وأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ . ثم جاءت نوبة بني إسرائيل ، فبعد أن انتصرت هذه الامة على المصريين ، فوض إليها الحاكم الحقيقي لهذا الكون الأمر ، بعدما كانت ذليلة محتقرة فيها : ﴿ وأورثنا الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ وفضلها على جميع أمم الأرض ﴿ وفضلناكم على العالمين ﴾ . ولكن هذه الفضيلة والوراثة الارضية كانت منوطة بالعمل الصالح ، فقال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام : إنكم ستورثون الأرض ولكن الله سيرى كيف تعملون . وهذا شرط

لم يختص به بنو إسرائيل وحدهم . بل تلزمه كل أمة تمنح حكومة الأرض : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

فلما عصى بنو إسرائيل ربهم ، فحرفوا كلام الله واستبدلوا بالحق الباطل واتبعوا سبيل الكذب والخيانة وأكل الحرام وغدر العهد . وأصبحوا عبده الفضة والذهب ، طماعين ، جبناء . محبي الراحة والرغد ، وقتلوا من بينهم الأنبياء وعادوا القائمين بدعوة الحق ، وأعرضوا عن أئمة الخير وأطاعوا أئمة الشر ، ازورت عنهم عين عناية الله فنزعت من يدهم وراثة الأرض وجُعلوا رمية لسهام جبابرة العراق واليونان والروم ، وأخرجوا من ديارهم ليتشردوا في أقطار الارض في حال بؤس وشقاء ، وحرموا من أن تستقر لهم حكومة إلى الابد . ومن لعنة الله الواقعة عليهم منذ ألف سنة أنهم لا يجدون لانفسهم مكاناً كريماً في الارض ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ﴾ .

وإن سنة الله هذه نراها تتكرر اليوم أمامنا ، فوبال الاعمال السيئة التي ذاقته الامم السالفة قد أحاق اليوم بالامم الغربية ، وذلك أنه قد أنذرت هذه الامم بكل وجه ممكن للإنذار . فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الامراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي ، كل أولئك آيات بينات . لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق .

ولكنهم لا يجدون في هذه الآيات ما يعتبرون به ، فلا يزالون يميلون عن الحق ، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض ، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض يستفرغون جهودهم لمعالجتها ، وبهذا الخطأ البين في العلاج لا يزال داؤهم يستفحل كلما عولج ، ومما تدل عليه الأحوال الآن أن مرحلة الإنذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهي ، وقد اقتربت ساعة القضاء .

إنه قد سلط على الأمم الغربية شيطانان قويان ، يجرانها إلى ما فيه الهلاك . أولهما شيطان قطع النسل والآخر شيطان القومية ، فالشيطان الأول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها . وأن الأول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسالهم بأيديهم . إنه يعلمهم تدابير منع الحمل ويحضهم على تعمد الإسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم (Sterilization) التي يقضون بها على قوتهم التوليدية للأبد ، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم ، فهذا هو الشيطان الذي يدفعهم تدريجياً إلى الانتحار .

وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح ، فهو يبعث فيهم نزعات الاثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وبذلك

يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض . وهذا أيضاً من صور النقمة الإلهية ﴿ أو يَلبِسَكم شيعاً ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعض ﴾ ، فهو يهيئهم لانتحار عظيم لا يرتكبونه على مهل ، بل سوف يساقون اليه في آن واحد ، وقد جمع هذا الشيطان ذخائر البارود في أنحاء العالم وأقام مراكز الخطر هنا وهناك ، فهو الآن ينتظر ساعة بعينها ، اذا ما حانت سيشعل إحدى ذخائر البارود تلك ، وإذا القوم يحل بهم هلاك وخراب سيهون في جنبه هلاك الأمم الماضية .

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه ، فإن الاستعدادات الحربية التي لا تزال تباشر الآن في أوربا وأميركا واليابان للحرب الآتية ترسل هزة الذعر والخوف في نفوس أولي الأبصار من تلك الأمم نفسها، وقد استطيرت ألبابهم روعاً لما يتصورون من نتائج الحرب الآتية. فهذا المستر سرجل نيومان (Sergel - Neumann) الذي كان عضواً في الهيئة الجندية الأميركية سابقاً، قد كتب مقالاً عن صورة الحرب الآتية ،يقول فيه : أن الحرب الأتية لن تقتصر على الجنود المتحاربين ، بل هي ستكون افناء عاماً لا تنجو منه النسوة ولا الأولاد ، وذلك أن عقول العلماء الكيمياويين (Scientists) قد نزعت وظيفة الحرب والقتال من الجنود الإنسانيين وفوضتها إلى المركبات الكيمياوية وآلات الحرب التي لا روح فيها ولا شعور ، والتي لا تميز بين محارب وغير محارب (Non-Combatant) ، فالآن لا يتحارب الفريقان في الميادين أو في القلاع ، بل

ستقع حربهما في المدن والقرى ، لأن قوة العدو الاصلية - حسب النظرية الجديدة - لا تكون في جنودها بل في بلادها المعمورة وأسواقها التجارية ومصانعها الصناعية ، فالآن سترمى كل هذه الاماكن بالقنابل من فوق ، وستنفجر عن المواد المحرقة والغازات السامة وجراثيم الامراض التي تهلك آلافا مؤلفة من الجموع الإنسانية . ومن تلك القنابل قنبلة عظيمة تدعى (Lewists Bomb) تكفي وحدها لتهدم أضخم عمارة من عمارات لندن . وهناك غاز سام يعرف باسم (Green Gross Gas) من خاصيته أن كل من أستنشقه أحس كإحساس الغريق في الماء ، وغاز سام آخر يقال له (Yellow Gross) خاصيته كسم الحية ، كل من استنشقه لقي من الأذى والحتف ما يلقاه سليم . وهناك اثنا عشر نوعاً آخر من مثل هذه الغازات كلها غير مرئي ، فلا يحس المرء أثره بادي ء ذي بدء ، واذا أحسه فلا يكون هناك إمكان لتدبير العلاج . ومن تلك الغازات غاز اذا وصل إلى علياء في الجو ، امتلأ وانتشر ، فإذا اجتازت منطقته طائرة عمي كل من فيها . وقد قدروا أنه لو يطلق بعض الغازات السامة بمقدار طن واحد على مدينة باريس ، لأفنى كل من فيها في ساعة واحدة ، وهذه العملية لا تحتاج إلا إلى مائة من الطائرات .

وقد اخترعوا أخيراً قنبلة مدفعية كهربائية محرقة ، لا يزيد وزنها على كيلو جرام واحد ، ولكن هذه القنبلة الصغيرة تنطوي من القوة على ما يدهش ، وذلك أنها إذا اصطدمت

بشيء تولدت فيها حرارة بمقدار ٣٠٠٠٠ فارن هيت ، مما يكون منه حريق لا يمكن أن يطفئه شيء ، حتى الماء لا يفيد في إطفائه بل هو كالبترول يزيده تضرماً . ولم ينجح علم الكيمياء بعد في أن يجد ما يطفأ به هذا الحريق . ومما ينوون أنهم سيقذفون هذه القنبلة على كبار شوارع المدن والعواصم ، حتى يضطرم فيها ذلك الحريق الهائل من جانب إلى آخر ، وإذا فزع الناس بهذا السعير وحاولوا الفرار منه ألقيت على رؤوسهم قنابل الغازات السامة لكي يستكمل الردى والهلاك .

ونظراً إلى هذه المخترعات المهلكة قد حدث الماهرون أنه تكفي عدة طائرات لان تهدم بها أكبر وآمن عاصمة في الأرض في مدة ساعتين فقط ، وأن يسمم مئات الآلاف من النفوس الإنسانية بحيث يرجعون إلى فراشهم بالليل سالمين ولا ينتبه منهم أحد من نومه في الصباح ، وأن تهلك الماشية والسوائم وتخرب الحقول والرياض ، فتسمم ذخائر الماء كلها في قطر بأجمعه ولم تكشف العلوم التجريبية (Science) بعد وسيلة ناجحة لمدافعة مثل هذه الحملات المردية ، إلا أن يهجم كل من الفريقين المتحاربين على الآخر في آن واحد فيهلك كليهما معاً .

هذا بيان موجز لما يتخذون من الأهب للحرب المستقبلة ، ومن شاء التوسع في الموضوع فليراجع كتاب « ما

يكون من صفة الحرب الآتية »[١] الذي قد نشره الاتحاد البرلماني العالمي بجنيف بعد التحقيق التام ، وإذا نظرت فيه علمت كيف أن الحضارة الغربية قد هيأت الاسباب لخرابها وفنائها بأيديها ، فحياتها الآن مرتهنة بالساعة التي تعلن فيها الحرب ، فإذا ما شبت الحرب بين دولتين كبيرتين من هذا العالم فاعلموا أنه قد قضي الأمر بخراب هذه الحضارة الغربية ، لأنه إذا نزلت الدولتان الكبيرتان ساحة الحرب فلن يكون هناك ما يمنع الحرب أن تكون عالمية ، وإذا كانت الحرب عالمية ، فلا بد أن يكون البوار والدمار أيضاً عالمياً شاملاً (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون) .

على كل حال قد اقترب الوقت لأن يدبر أمر الوراثة الأرضية من جديد ، وأن يسقط الظالمون المسرفون عن مقام الخلافة الأرضية ، وتشرف بها أمة أخرى ، لعلها أن تكون من الأمم المستضعفة ، فلينظر الناظرون من يقع عليه الانتخاب الإلهي في هذه المرة .

وإنا ليست عندنا وسيلة للعلم بأنه أية أمة ستقام في الأرض فيما يأتي ، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ ، ولكن هناك سنة الله في هذا الأمر

---

(١) What woods be the Character of a new world-war.

أيضاً ، قد بينها في كتابه العزيز ، وهي أنه إذا صرع الله أُمة لأعمالها السيئة أقام مقامها أمة لا تكون آثمة متمردة كأختها المغضوب عليها : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

ومن الظاهر على هذا ، أن الأمم المغلوبة المستضعفة التي هي عاملة اليوم بمجالات الحضارة الغربية في كل شيء ، وهي بدل أن تصطنع محاسن الأمم الغربية ـ التي بقيت فيها قليلاً أو كثيراً ـ تحرص على اصطناع معايبها ومساوئها التي هي مجلبة للغضب الإلهي عليها ، لا مجال لفوزها وغلبتها ـ مرة أخرى ـ فيما ينتظر من الانقلاب .

الفصل السادس

خطبة اللورد لوثين

إن الخطبة التي ألقاها اللورد لوثين بمناسبة حفلة توزيع الشهادات بجامعة عليكر في الأسبوع الأخير من يناير الماضي لجديرة بأن يتعمقها كل من أصحاب الثقافة الجديدة والقديمة من أهل الهند ويستخلصون منها العبرة والدرس ، ففي هذه الخطبة قد كشف لنا عما في قلبه وذهنه رجل لم ينظر إلى العلوم الجديدة وإلى ما نتج عنها من الحضارة من بعيد ، بل هو قد نشأ في حضن تلك الحضارة وأنفق ستة وخمسين عاماً من عمره في خوض غمارها . إنه أوربي بالمولد والنسب وخريج جامعة أوكسفورد ، قد كان فيما مضى رئيس تحرير مجلة معروفة كمجلة روند تيبل (Round Table) ، ولم يزل يشارك كمسؤول في مهام أمور الدولة البريطانية منذ قريب من ٢٢ عاماً ، فهو على ذلك ليس بشاهد أجنبي ، بل هو من أهل بيت المدنية الغربية ، وهو يحدثنا عن هذا البيت ويخبرنا ما هي المفاسد الحقيقية التي قد سرت في جنباته ، وما هو منشؤها ، وإلى أي شيء يتعطش أفراده الآن في الحقيقة .

هذه الخطبة تتضمن العبرة من ناحية للمثقفين بالثقافة الجديدة منا ، فإنهم يعلمون منها أن العلوم الغربية وما تبعها من الحضارة الجديدة ليست كلها الترياق خالصاً ، بل هي تحمل في ثناياها كثيراً من السم ، وأن الذين اتخذوا منها المعجون الشافي. واستعملوه طوال القرون هم بأنفسهم ينذروننا في أمره ويمنعوننا من تناول المقدار الوافي من هذا المركب بقولهم : إن هذا قد استدرجنا إلى شفا الهلاك ، فلا بد أن يفضي بكم أيضاً إليه ، وإننا بأنفسنا نحتاج اليوم إلى ترياق خالص ، ومع أننا لا نعلم بالتحقيق أين هو ، ولكنا نظن أنه موجود عندكم ، فإياكم أن تلقوا بترياقكم هذا إلى الرياح ، وتتهافتوا على لذة معجوننا المسموم .

ومن ناحية أخرى تتضمن هذه الخطبة كثيراً من العبرة والموعظة لعلمائنا والطبقات الدينية منا ، فإنهم عسى أن يتبينوا منها : أي نواحي التعليم الإسلامي هي التي يجب أن توضح وتخرج إلى النور لهذه الدنيا التي هم يعيشون فيها ، إنه لما تزل هذه الدنيا تجرب حضارة المذهب المادي منذ قرون ، وقد أرهقتها هذه التجربة ، وإن حرية الفكر وروح التحقيق التي أعطينا أهل الغرب ترياقها قبل قرون قد خلطه القوم بأنفسهم بسم اللادينية والمادية بغير علم ، وهيؤوا باختلاط هذا وذاك مركب تصعد بالقوم في سلم المجد والرقي ، ولكن عناصره السامة أيضاً بقيت تعمل عملها في أثناء ذلك حتى تغلب أخيراً تأثير هذا السم على العنصر

الصحي منه ، وأصبح أهل الغرب ، بعدما ذاقوا النتائج المرة لهذه الحالة طويلاً ، يتطلعون إلى ما حولهم ليجذوا مزيداً من ذلك الترياق ، وإنهم لا شك قد علموا أي أجزاء مركبهم هي السامة ، وقد جربوا أيضاً التأثير الواقع في حياتهم لتعامل تلك الأجزاء ، وقد عادوا كذلك يشعرون شعوراً واضحاً بأنه أي نوع من الترياق هم يحتاجون إليه لحسم الآثار السامة ، ولكن الذي لا يعلمونه هو أنه لا يوجد ذلك الترياق المطلوب إلا عند الإسلام ، وأنهم لن ينالوا الجرعة من هذا الترياق إلا من تلك الصيدلية التي تناولوا منها الجرعة الأولى منه ، فلو أن القوم يظلون يتيهون الآ في طلب الترياق حتى بعد كل هذا الشعور باحتياجهم إليه ، ويروحون يسممون العالم بسم حضارتهم لكونهم لم يجدوا الترياق ، فإن علماء الإسلام لا بد أن يكونوا شركاءهم بالسوية في هذا الاثم العظيم ، وذلك لأن هذه الظروف لا تصلح ـ وأيم الله ـ لأن ينهمك فيها علماؤنا في مسائل اللاهوت وما بعد الطبيعة وفي المناقشات حول الجزئيات الفقهية ويتركوا ما هو أكبر وأهم ، وإن المسائل من مثل : هل أوتي رسول الله ﷺ علم الغيب أم لم يؤت ؟ وهل يقدر رسول الله تعالى على أن يقول الزور أم لا ؟ وهل من الممكن أن يكون نظير لرسول الله ؟ وما حكم الشريعة في زيارة القبور وإيصال الثواب إلى الأموات ؟ وهل يجب الجهر بكلمة آمين خلف الإمام ورفع اليدين في الصلاة أم لا ؟ وكم يجب أن يكون بين المنبر والمحراب في

المسجد ؟ إن هذه وما شاكلها من المسائل الكثيرة التي لا تزال الشغل الشاغل لهداتنا الدينيين وهم يضعون قواهم في حلها لا أهمية لها أصلاً عند هذه الدنيا المعاصرة . وإن حلها والتصفية في بابها لم يكن ليغني في شيء عن تصفية أمر الصراع الجبار القائم بين الضلالة والهدى في العالم كله ، فالضرورة الحقيقية اليوم هي أن تفهم تلك المسائل التي قد نتجت عن بقاء العلم والمدنية يترعرعان في حضن اللادينية وإنكار الوجود الإلهي على طول القرون ، وأن تدرس دراسة تحليلية عميقة ، ثم يعرض حلها على ضوء مبادىء الإسلام . هذا هو واجب الساعة ، ولئن لم يتأهب علماء الإسلام للقيام به ولم يبذلوا لذلك جهدهم فإن جميع تلك الأزمات التي قد واجهت بلاد الغرب إلى الآن قد أخذت تظهر بكل شدة في كافة أقطار المسلمين وفي وطننا الهندي أيضاً ، ولما لم يكن مهيأ هناك الحل الصائب لتلك المعضلات ، فإن المسلمين وغير المسلمين جميعاً لا يزالون يستعملون لعلاجها تلك التدابير المخطئة التي قد زاولها الغربيون الذين هم بأنفسهم مرضى ، ولم يعد الأمر إذن يختص الآن باوربا وأميركا وحدهما ، بل هو أصبح يمس وطننا نحن وأجيالنا القادمة أيضاً .

لهذه الاسباب كلها نود أن يطالع خطبة اللورد لوثين هذه كل من رجالنا المثقفين وعلمائنا الدينيين بوعي وتفكير . وإنا نسرد فيما يلي أجزاء من هذه الخطبة وسنوضح في أثنائها

بعض مطالبها حسب الضرورة تسهيلاً للقراء في الوصول الى معزى الكلام .

إن اللورد لوثين يبتديء بحثه بالكلمات الآتية :

« هنالك أمر آخر يطلب البحث والدرس ، أريد ان ألفت نظركم إليه ، وهو أنه هل يمكن للهند أن تسلم من مضرة التعليم العقلي السانتيفيكي لهذا العصر ، تلك المضرة الشديدة التي قد أصابت أوربا وأميركا في الوقت الحاضر .

إن العلم الحديث في الغرب قد أدّى إلى أمرين عظيمين : ففي جانب قد وسع هذا العلم سيطرة الإنسان على الفطرة وقواها ، وفي جانب آخر قد أضعف سلطان الدين الموروث على الجيل المتخرج من الجامعات وعلى سائر الناس على العموم ، وكل ما يوجد اليوم من المفاسد في هذه الدنيا المعاصرة فإن نصفه على الأقل آت من هذين السببين . فالإنسان المتعلم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التي قد زوده بها العلم (Science) ، ولكنه لم يتقدم في سبيل الاخلاق مثل تقدمه في المدنية والعلوم ، مما يكون ضماناً بأن لا تستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان ، بل لفلاحه » .

قد أشار الخطيب الفاضل في هذه المقدمة الكامنة إلى مسألة جوهرية من مسائل الحضارة والتمدن الإنساني ، وهي أن العلم (Science) من حيث هو علم لا يعدو أن يكون ولوعاً بالبحث والتحقيق والتنقيب والاجتهاد ، يطلع الانسان

بعقله على القوى السرية لهذا العالم الطبيعي ويهيء الوسائل لاستخدامها . وهذه القوى الجديدة التي يمتلكها الإنسان برقي هذه العلوم إذا أخذ يستعملها في حياته العملية اليومية فذاك يقال له رقي المدنية ، ولكن هذين الأمرين في ذاتهما لا يضمنان فلاح الإنسان وسعادته ، إذ أنهما كما يكونان سبباً لفلاحه قد يكونان سبباً لهلاكه ، ولئن كان الإنسان قد صار يعمل بالمكنة بدل أن يعمل بيده ، ويقطع المسافات بالقطار الحديدي والسيارات والسفن البخارية والطائرات بدل أن يقطعها على ظهور الأنعام ، وصار نظام بريده يجري بآلات البرق واللاسلكي بدل محطات البريد القديمة ، فليس معناه أن الإنسان قد عاد أسعد وأرضى مما كان في الغابر ، لأن هذه الأمور كلها كما قد تزيد في سعادته ورخائه قد تزيد أيضاً في نكبته وهلاكه ، وان دور المدنية الذي لم يكن يملك فيه الإنسان من آلات الحرب إلا الرمح والسيف ، لم يكن يضمن من أسباب الهلاك والدمار ما يضمنه هذا التمدن الذي قد اخترع الانسان فيه من تلك الآلات المدافع الرشاشة والغازات السامة والطائرات والغواصات . أما أن يكون رقي العلم والمدنية مبعث السعادة أو سبب النكبة والهلاك فالأمر موقوف على الحضارة السائدة التي يتم في ظلها ارتقاء العلوم والفنون والمدنية والتحضر ، وإن الحضارة هي التي تبين في الحقيقة طريقة الارتقاء وتحدد غاية أعمال الإنسان وتعين كيفية الانتفاع بما يكتشف الإنسان من القوى ، وهذه هي التي تقرر نوعية العلاقة بين الناس ، وهي التي تضع المباديء للحياة

الاجتماعية وتسن قوانين الاخلاق في دائرة الشؤون الفردية والقومية والدولية ، وبالجملة إن الحضارة هي التي تؤهل الذهن الإنساني للحكم في أمر القوى الحاصلة بفضل رقي العلم بأنه كيف يدخلها في نظام مدنيته ولأي غرض وبأية صورة يستخدمها وماذا يختار من وجوه اسعمالها المختلفة وماذا يرفض . وان مشاهدات العالم الطبيعي (Physical World) ومعلومات القوانين الطبيعية لا يمكن أن تكون أساساً لحضارة سامية ، لأن هذه المشاهدات والمعلومات لا تجعل الإنسان إلا في منزلة حيوان عاقل ، ولا تعين إلا على أن تُتخذ للحياة تلك النظرية التي هي نظرية الماديين ، وهي أن الإنسان تنحصر حياته كلها في هذه الدنيا ، وغايته النهائية أن يحقق رغباته الحيوانية في هذه الحياة بأكثر ما يكون من الجودة والكمال ، وأن الوجه الحقيقي لاستعمال القوة هو أن ينسجم الإنسان مع ما يجري في هذا الكون من قانون التنازع للبقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح فيُخضع ويهين كل من حوله من الخلائق ويتغلب عليهم . فالحضارة التي اتخذتها أوربا كانت تقوم على هذه النظرية للحياة ، وكان من عاقبة الأمر أن جميع القوى التي تسلح بها الانسان بفضل رقي العلم والتمدن غدت تستعمل لهلاك الإنسانية لا لسعادتها وفلاحها ، وعاد أهل الغرب أنفسهم يشعرون بأنهم في حاجة إلى حضارة إنسانية أسمى مما هم فيه من الحضارة الحيوانية ، وأنه لا يمكن أن يكون أساس تلك الحضارة المطلوبة إلا الدين .

« لا ريب أن الروح العلمية التحقيقية (Scientific Spirit) قد بددت الأوهام القديمة شيئاً فشيئاً ووسعت دائرة العلم وحررت بذلك الرجال والنساء من كثير من الأغلال التي كانت عليهم من قبل ، ولكنها مع هذا كله قد تركت الإنسان شديد الافتقار إلى الحق والصدق في باب الروحانية والدين ، ولم تمهد له طريقاً للوصول إلى ذلك الحق ، فحال الاكثرية من أهل الغرب الآن أنهم كالصغار مغرمون بسرعة النقل وإتيان الأعاجيب والتلذذ باللذات الحسية ولم يعودوا أهلاً لان يحيوا حياة ساذجة طبيعية ولم يبق هناك من صلة ـ فعلاً ـ بينهم وبين تلك الحقيقة الأزلية الأبدية اللانهائية التي يعرضها الدين .

وإنا لنرى الآن من نتائج زوال سلطان الدين ـ وهو هادي الإنسان الذي لا مندوحة له عنه والوسيلة الوحيدة لتحلية الحياة الإنسانية بالهدف الأخلاقي والشرف والمعنوية ـ أن الدنيا الغربية قد كلفت بتلك المذاهب السياسية التي تقوم على مفارقات النسل والطبقية ، وآمنت من بين وجوه العلم (Science) المختلفة بذلك الوجه الذي يستهدف الرقي المادي وحده ، والذي يجعل الحياة الإنسانية منعقدة مستثقلة يوماً بعد يوم ، ومن نتائج ذلك أيضاً أنه قد أصبح من الصعب لاوربا اليوم أن تخلق بين حياتها وروحها من التلاؤم ما ينقذها من أكبر آفات هذا العصر وهي القومية الضيقة » .

ويوجه اللورد لوثين بعد ذلك سؤالاً إلى أصحاب الثقافة الجديدة من أهل الهند ، فيقول :

« هل للديانتين الكبريين في الهند أعني الديانة الهندكية والإسلام أن تقاوما روح النقد والتحقيق السائدة في هذا العصر الجديد بنجاح أكثر وأتم مما قاومتها به العصبية الدينية الموجودة في الغرب ؟ هذا السؤال في غاية الأهمية ، لأنه إن أريد بالهند السلامة من تلك النكبات التي قد حلت بأهل الغرب فمن واجب زعماء الفكر والدين في هذا القطر أن يركزوا عنايتهم كلها على هذا السؤال ، وما من شك أن روح التحقيق ستمحو رويداً رويداً عناصر التوهم والجاهلية التي هي منتشرة في عامة أهل الهند إلى الآن ، وسيكون ذلك حسناً ولكن هل لا يؤثر ذلك في أذهان الذين سيكونون في المستقبل زعماء الحياة السياسية والمدنية والصناعية في الهند ولا ينزع منها كل ما لهاتين الديانتين من المباديء الخلقية والقيم الروحية ؟ إني لا أدعي المعرفة بدخائل حياة الديانة الهندكية والإسلام ، ولكنه يخيل إلي أن كلاً منهما تضمنت في ذاتها على حدة تلك العناصر التي ستجعلها قوية على استبقاء سلطانها على الشبان والرجال من طلبة الجامعات . أما النصرانية فقد أخفقت في هذا الأمر لبعض القيود الاعتقادية الخاطئة التي حجبت ما كان لزعيم هذه الديانة الجليل من التعاليم الصادقة الحقة » .

إن اللورد لوثين ـ كما اعترف بنفسه ـ لا يعلم في الحقيقة شيئاً عن الديانة الهندكية والإسلام ، وإنما لمح من بعيد لأشياء في الديانة الهندكية وأخرى في الإسلام قد تنجح ـ في

رأيه ـ في استبقاء الطبقة المثقفة مؤمنة بمباديء الأخلاق والروحانية العليا بإزاء النقد والتحقيق الجديد . ولكن الذين لهم معرفة تفصيلية داخلية بهاتين الديانتين بل بجميع الديانات في الهند لا يخفى عليهم أنه كان هناك دين يمكن أن يثبت في وجه روح النقد والتحقيق العصري ، بل بعبارة أصح يمكن أن يتقدم بمتبعيه إلى الأمام بتلك الروح ويصبح دين النوع الإنساني بأكمله في عهد الرقي والنور فما هو إلا الاسلام . وهل رأيت لماذا أخفقت النصرانية في الغرب ؟ لأنها ليست بمذهب اجتماعي (Social) بل هي ضد للاجتماعية . إنها لا تعني إلا بنجاة الفرد ، وإن السبيل الذي اقترحته لنجاته هو أَن يعرض عن الدنيا ويولي وجهه شطر الملكوت السماوي . وهذا هو السبب في أنه لما سارت الأمم الأوربية خطوات في سبيل الرقي قامت النصرانية تعارضها بدل أن تحفزها على السير . واضطر القوم لكي يمضوا إلى الأمام إلى أن يحطموا قيود هذه الديانة . ومثل ذلك حال الديانة الهندكية . فإنه ليس بيدها أيضاً فلسفة ناهضة ولا قانون خلقي مستند إلى العقل ، ولا نظام اجتماعي قابل للتوسع والشمول . إن العامل الأقوى الذي قد لَمَّ شعث الأمة الهندكية إلى الآن في دائرة نظام اجتماعي ومنعها من التأثر بالحضارات الأخرى هو نظام طبقات النسب (Caste System) فيها . ولكنه من المحتوم أن تنحل قيود هذا النظام إذا ما احتك بروح النقد والتحقيق العصري ، وستنحل لا

محالة . وإذا حدث ذلك فلن يكون هناك ما يمنع المجتمع الهندكي من التمزق والانحلال ، وستعود إذن أبوابها المقفلة إلى الآن مفتوحة على مصراعيها للمؤثرات الخارجية . ثم إننا نرى مع ذلك أن ما عند الهنادك من القوانين العتيقة للمدنية والاجتماع وما هم عليه من الأوهام الوثنية والأخيلة الفلسفية التي لا تستند إلى العقل أو العلم ، لا يمكن كل ذلك أن يثبت أمام الرقي العلمي والوعي الاجتماعي لهذا العصر . وعلى هذا كله تتقارب الأمة الهندكية يوماً فيوماً إلى مفرق طريقين سيقضي لديه أمر مستقبلها ومستقبل القطر الهندي إلى حد بعيد .

فإما أن تبقى هذه الأمة ثابتة على ذاك التعصب الشديد على الإسلام الذي كان غلب الأوربيين النصرانيين عند النهضة العلمية في أوربا ، فتسُقط الإسلام من اعتبارها وتتخذ سبيل الحضارة المادية الذي كان فعل أهل اوربا من قبلها ، وإما أن تقبل الإسلام ويروح أفرادها يدخلون في دين الله أفواجاً .

ويتوقف الفصل في هذه القضية ـ إلى حد بعيد ـ على سلوك المسلمين الهنديين ، وبالأخص المتعلمين ذوي الثقافة القديمة والجديدة منهم وذلك أنه لم يكن الإسلام ليأتي المعجزات بمجرد اسمه ، ولا يمكن ظهور المعجزة من مبادئه ما دامت مكتوبة في الأوراق وكفى . إن التشتت والخطأ العملي الذي لا يزال عليه المسلمون الآن ، وإن الجمود

الذي قد غلب علماءهم . وإن التأثر والانفعال الأنثوي الذي تظهره من نفسها أجيالهم الناشئة المتعلمة ؛ إن ذلك كله مما لا يتوقع أن يستطيع معه المنتمون إلى الإسلام حتى الثبات في موقفهم الحاضر ، دع عنك أن يفتحوا روح الحضارة الهندية ويغلّبوا الإسلام على القطر بأجمعه . وذلك أن ثبات جماعة ما في مكان واحد وسط تيار قوي من الثورة لمن غير الممكنات . إن مثل هذه الجماعة لا بد أن تتخير بين أمرين : إما أن تنساق مع التيار ، وإما أن تقوم قومة الأسد فتحول بقوتها وجه التيار . وهذا الوجه الأخير لا يمكن تحقيقه إلا بأن تصلح أولاً حالة المسلمين الخلقية على العموم وتبث فيهم روح الحياة الإسلامية ، وأن يتبادر ثانياً علماء الإسلام وأصحاب التعليم الجديد من المسلمين فيتدارسوا معاً مسائل الحياة الجديدة ويتفهموها على ضوء مبادىء الاسلام ، ثم يحلوها من الناحية العلمية بصورة واضحة مقنعة حتى يعترف كل امرىء سليم الفكر ـ ما خلا المتعصبين العميان ـ بأنه لا يمكن لغير الحضارة الإسلامية أن يكون أساساً سالماً صحيحاً لتمدن ناهض .

إنه لا يزال يوجد في الهند إلى الآن تصور صراع العلم والدين ، الذي كان يسود في أوربا قبل خمسين أو ستين عاماً . ولكنه قد تغير الوضع أخيراً في أوربا وقد كاد يتغير أيضاً في الهند الآكلة من فضالة المائدة الغربية ، وقد اقترب الزمان الذي سيزول فيه هذا التعصب على « الدين » من

الناحية العلمية والعقلية على الأقل . ولكنا لن ننتفع بذلك الوضع إلا أن نكون مستعدين له من ذي قبل . وقد أشار إلى ذلك اللورد لوثين بكلمات موجزة آتية :

« إنه قبل ستين سنة كان يقوم بين العلم والدين صراع لا يرجى أن ينتهي أبداً . وكان بين التصور الروحي والتصور المادي للحياة حرب شديدة يخيل إلى المرء أنها لن تنتهي قبل أن يفنى أحد الجانبين فناء كاملاً . ولكنه جاء الفريقان اليوم وقد وضع كل منهما الأوزار . فلا العالم الطبيعي (Scientist) ولا الرجل الديني يدعي الآن بجزم أنه قد وفق لحل لغز هذا الكون . بل الحق أنه قد صار كلاهما يشك ـ عند نفسه ـ في أنه هل يعرف شيئاً عن هذا اللغز أم لا يعرف . ومن ثم قد صار من الممكن أن يمتزج العلم والدين امتزاجاً كان من المستحيل في أوائل سَورة التحقيق العلمي » .

إن اللورد لوثين لا يكاد يتحرر على كل حال من التصور المسيحي للدين . ولم يبلغه ما جاء به الإسلام من تصوره العقلي . لذلك فإن أقصى ما يفكر اللورد هو أنه من الممكن الآن أن يتم بين العلم والدين نوع من الامتزاج . ولكنا نعتبر هذا الامتزاج بين العلم والدين شيئاً لا يعقل . لأنا نعتقد أن الدين الحقيقي هو الذي لا يكون منفصلاً عن العلم بل يكون منه بمنزلة الروح والقوة الموجهة ، وأن الإسلام في الحقيقة دين من هذا الطراز ، ولئن كان هناك ما يمنعه اليوم أن يكون

روحاً في هيكل العلم فهو ليس بنقص داخلي فيه بل هو غفلة متبعيه وتجاهل أصحاب العلم الطبيعي العصري وتعصبهم الجاهلي عليه . ولو أنه يزول اليوم عن طريقه هذان العائقان فلن يكون الإسلام إلا روحاً سارية في جسد العلم .

وقد بحث الخطيب الفاضل بعد ذلك أنه أي نوع من الدين يستطيع أن يقف أمام الوعي العلمي والنقد العقلي الذي طلع به هذا العصر وما يجب أن تكون مزايا الدين الذي يفتقر اليه الإنسان في عصر النور هذا ، وما هي المطالب الحقيقية التي يلتمس الإنسان لأجلها هداية الدين . وهذا الجزء من خطبته هو أجدر بالعناية والإمعان ، فيقول اللورد :

« إن كنت لا أخطيء في تقدير الأوضاع الراهنة فإن من الحقيقة أن الاختبار الذي قد تعرض له الدين في هذا الوقت لن يخرج منه فائزاً إلا إذا اطمأن الجيل الناشيء بعدما يمتحن نظامه الداخلي أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجه في الحياة من المسائل العملية والمشكلات المزعجة المتعقدة . وذلك أن النحلة الشخصية قد مضى زمانها . وأن الديانة العاطفية المحضة أيضاً لم تعد طلبة أحد الآن . وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدين الذي لا يهديء من بال الفرد ولا يشد أزره إلا بأن يعطيه تعليمات قليلة بشأن سلوكه الخلقي ويبعث في نفسه أملاً في نجاة لن يتكشف أمرها إلا بعد الممات . وإنما الإنسان العلمي العصري يريد أن يمتحن كل شيء حتى الحق والصدق على محك النتائج البينة . وإن كان عليه أن

يتبع الدين فهو يطلب أن يبين له الدين ماذا بيده من حل لمسائل حياته العملية . أما الأمل في حصول النجاة بعد سلسلة متكررة من المواليد في هذه الدنيا أو الرجاء في التوصل إلى الملكوت السماوي بعد اجتياز باب الموت ، فليس من الأمر الذي يدفعه إلى اعتناق الدين على أساسه وحده . إنه يطلب من الدين أن يزوده قبل كل شيء بذلك المفتاح الذي يفتح به الحقيقة المغلقة لهذا الوجود ، ويهتدي إلى حل للغزه تطمئن إليه النفس ، وأن يبين له ثانياً بإقامة البرهان على الصلة الواضحة بين العلة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمي السانتيفيكي أنه بأي وجه يمكن الإنسان أن يسخر تلك القوى التي قد انفلتت من يده الآن ، وقد جاءت تهدد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه ، وبأي طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بني جنسه كالبطالة ، وعدم المساواة والظلم والاعتداء والحرب والقتال وكيف يمنع التنازع بين الأفراد وتبدد النظام العائلي ، الذي قد ذهب بمباهج الحياة الإنسانية كلها .

إن الإنسان لا يتطلع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد في مشكلاته بدل أن يحلها . فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلاً لشبهاته ومشكلاته اضطراراً لم يعهد فيه من قبل . فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته ويستعيد ما زال من سلطانه فعليه أن يجيب على كل هذه الأسئلة جواباً روحياً ، يكون في الوقت نفسه علمياً

سانتيفيكياً ، ويمكن أن يختبر صدقه على محك النتائج في هذه الدنيا ، بدون أن يحال ذلك على الحياة الأخرى بعد الموت . إننا ـ أهل الغرب ـ نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأهم الذي قد واجهنا في هذا العصر . فهل باستطاعتكم ـ معشر أهل الهند ـ أن تجيبوه وتجدوا له حلاً ؟ » .

واذا مر القاريء على هذا الجزء من خطبة اللورد لوثين فإنه ليخيل إليه أن هناك ظمآنا لا يعرف وجود الماء ولكنه يحس بكيفية ظمئه أصدق ما يكون من الإحساس . فهو يمضي يبين لنا أن أوام كبده يتطلب شيئاً يكون فيه هذا وهذا من الصفات . فلو أننا نضع أمامه في هذه الحالة كأساً من الماء لصاحت فطرته من الفور أن هذا هو الشيء الذي يتعطش إليه ، ووثب نحوه ليشربه . وليس هذا يخص اللورد لوثين وحده ، بل الأمر أن الذين قد لفحهم سعير الحضارة والمدنية الغربية في أوربا وأميركا وسائر العالم ، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرملي القفر الذي لا ماء فيه ولا ظل ، قد أصابهم جميعاً مثل هذا الأوام ، وهم كلهم يتطلبون شيئاً بتلك الصفات التي ذكرها اللورد لوثين ، وهم كلهم لا يعرفون اسم الماء ولا أين يوجد . ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة : « ظَمِيءَ الفؤاد فهاتها يا ساقي ! » .

إن الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه ولكنهم يرتاعون لهذا الاسم لمجرد أنهم لم يجدوا مسماه الحقيقي . وأما

الذي قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين فهو أن الماء شيء مسموم جداً يجب أن لا يقاربه أحد . ولكنهم قد بلغ منهم التعطش أن لو يوضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يعلن اسمه فلا جرم أن يصيحوا أن هذا هو الذي هم يظمأون اليه . ولو يقال لهم أنه هو (الماء) الذي كانوا يهابون ذكره لقضوا العجب من هذا الخداع الذي قد انخدعوا به إلى الآن .

إن الإنسان العلمي العصري ، قد امتحن النصرانية وخبر ما عندها جيداً . وقد تجلى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافي لمرضه . وبعد النصرانية قد تروقه وتسحر لبه الديانتان : الهندكية والبوذية ، لفلسفاتهما الخيالية الأسطورية ولتعبدهما للقديم على الوجه التقليدي التاريخي . ولكن فشل هاتين الديانتين أيضاً يفتضح لأول امتحان النقد والتحليل العلمي ، فأما البوذية فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية ، وأما الديانة الهندكية فهي تخلق بنفسها تلك المشاكل والعقد التي لأجل التخلص منها يشعر الإنسان العلمي العصري بضرورة الدين . فهي التي تشجع على عدم المساواة بين الإنسان والإنسان أكثر من غيرها ، وتجعل المراباة واستثمار الأموال الذي هو أقبح صور السلب والنهب الاقتصادي جزءاً لنظامها لا ينفك . وتبقي على السبب الحقيقي لقيام الحرب ـ وهو التفريق بين المجتمع الإنساني بمفارقات الجنس والنسل ، وبعث المنافرة النسلية بين أفراده ـ شيئاً متأصلا في أساسها لا

يبرحه . فالنظام الذي قد قررته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الأفراد الإنسانيين ، بل هو يقسمهم على شتى الأجناس والطبقات . وإن قوانين اجتماعهما تبلغ من الخلوقة والبلى بحيث قد اضطر أبناء البيوتات الهندكية النازلة من آلاف السنين أنفسهم أن يلغوها في عصر الوعي العلمي والعملي هذا . ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أساس من العلم والعقل ، بل تستند إلى العصبيات والأوهام . ثم إن هذه الديانة توجد أضعف وأفقر فيما وراء هذه المسائل الدنيوية من مسائل اللاهوت والأخلاق ؛ فليس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكون بطريقة مقنعة ، وعقائدها من جنس العقائد التي لا يطلب في بابها إلا القبول والإذعان ، ولا يمكن أن يثبت شيء من ذلك ببرهان علمي أو عقلي . وأما في نظام الأخلاق فلا شك أن الديانة الهندكية تقدم طلسماً من المفروضات الرائعة المعجبة كما قدم واحداً منها في أيامنا هذه المهاتما غاندي ، ولكنه يخلو من البرهان العقلي والحكمة العملية (Practical Wisdom) وفي عصر الوعي العلمي هذا لا بد أن يفتضح فشله عما قريب ، إن لم يكن قد افتضح بعد .

ولا يبقى في المضمار بعد ذلك إلا الإسلام . وهو الذي يثبت على المحك ويوافق كل معيار من تلك المعايير التي يطلبها فعلا الإنسان العلمي العصري ، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود .

أما القول بأن الدين مسألة شخصية فقط ولا صلة له إلا بالضمير الفردي وحده ، فقد أصبح من خبر كان . إنه من جملة السخافات الفكرية التي راجت في القرن التاسع عشر ، فلا ينفك يرددها في الهند في هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعودوا السير خلف العالم على مسافة خمسين عاماً أبداً ، على رغم ادعائهم للتجدد والتقدم . وذلك أنه قد أصبح أو كاد يكون من المسلم به الآن أنه لا يمكن تصور الفرد منفصلاً غن الجماعة ، إذ كل فرد إنساني قد ارتبط بفرد آخر بما لا يحصى من الأواصر الكبيرة والصغيرة ، وليس المجتمع في جملته إلا كالجسم الحي يكون فيه الأفراد بمثابة الجوارح والاعضاء . وإن كانت هناك ضرورة الدين فهي ليست للفرد وحده لطمأنينة قلبه ونجاته بعد الممات ، بل هي للجماعة كلها لكي تنظم أمرها وتدبر جميع شؤون حياتها الدنيوية على ضوء هدايته . وإن انعدمت ضرورة الدين فهي تنعدم للفرد أيضاً كما تنعدم للجماعة . ومن التصور الصبياني السفيه أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضع وتكون عقائد الأفراد وأعمالهم الدينية على وضع آخر مختلف لا صلة بينها وبين ذلك النظام ، لأن العقائد والأعمال الدينية إن لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط ، فإنها شيء عبث يخلو من كل فائدة . وليس ذلك فقط ، بل هي حرية أن تضعف وتضمحل في نظام اجتماعي لا تتعامل مع أجزائه الأخرى .

ومن ذلك لا يمكن أن يكون الأمر إلا على أحد اثنين : إما أن يكون نظام الجماعة بأكملها لا دينياً صرفاً ويطرد الدين من حياة الإنسان طرداً تاماً ، كما هو مذهب الشيوعيين . وإما أن يكون النظام الاجتماعي بأكمله دينياً ويعترف بكون الدين هادياً ومرشداً لكل من العلم والمدنية ، كما يقتضيه الإسلام . ولطالما جربت الدنيا الصورة الأولى منهما ، فنتجت عن هذه الشجرة الخبيثة تلك الثمرات الكريهة المرة التي قد ذكرها اللورد لوثين . وهي التي كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة فنتجت بالفعل وستنتج أبداً فيما يستقبل . فليست نجاة الدنيا الآن إلا في الصورة الأخرى ويبدو أن فرصة ظهورها إلى حيز العمل لا تزال تتقارب يوماً بعد يوم .

ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضييعها للأبد كما مر متوقف على المسلمين . إن مجرى الحوادث قد جاء بالدنيا وبالقطر الهندي أيضاً لكونه جزءاً منها إلى موقف هام يمكن أن تميل منه إلى الإسلام ، كما يمكن أن تميل إلى المادية ودرك الفساد الخلقي الأسفل . وأن ميلانها الآن بالطبع إلى هذا الطريق الآخر لكونها قد سارت فيه منذ زمان ، مع أنها خائفة مذعورة ، لما ترى من مهالك هذا الطريق ، وتردد نظرها في فزع إلى الجهات الأربع لتجد سبيلاً للفرار . ولكن سبيل الفرار والنجاة لا تراها عيونها هي نفسها لما يغشاها من ظلام التعصب . إنها في الحق لفي حاجة الآن إلى رجال من أهل الإسلام ينهضون بالعزم والجد فيزيحوا الغشاوة عن

أبصارها ويبرهنوا لها أن صراط الإسلام المستقيم هو وحده سبيل النجاة مما هي فيه . إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبعث من بين المسلمين اليوم فإنه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالم بأجمعه ، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التي كانوا عليها في الغابر ، والتي يرون عليها اليوم الأمم الغربية فيتحلب ريقهم حرصاً على اتباعها . ولكنه إن بقي جمهور هذه الأمة متقاعدين هكذا بضعف الهمة وخور العزيمة ، وبقي شبابها هكذا يظنون غاية كمالهم في اقتيات فضلات الغير ، وبقي علماؤها متشبثين كما هم الآن بالمناقشات العقيمة حول مسائل الفقه والكلام التي قد ولى زمانها ، وبقي من هوان قادتها وزعمائها السياسيين ومن حالتهم الذهنية المتخلفة أن يظنوا السير في مؤخر ركب الأمم الأخرى أعلى مراتب العزيمة النضالية ويعتبروا دفع أمتهم إلى الخداع الأكبر من خدع هذا القرن العشرين غاية الكياسة والحكمة . . وبالجملة إن بقي كل أجزاء هذه الأمة ، من الأيدي العاملة إلى الأذهان المفكرة والنفوس الواعية ، على تعطلها أو على تعسفها وخرقها ولم يتقدم من هذا الحشد العظيم المشتمل على مئات الملايين من الأفراد رجال قليلون قد تشمروا لمزاولة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله . . فإن هذه الأمة المسلمة أيضاً ستتبع الدنيا إلى ما هي منحدرة إليه من الدرك الأسفل وتهوي في هاوية الهلاك مشدودة بذيلها ، وسينادي الغضب الإلهي مرة أخرى :

ألا بُعداً للقومِ الظالمين !

الفصل السابع

على هامش كتاب

النزاع بين الشرق والغرب في تركيا

(مجموعة خطب السيدة خالدة أديب خانم)

زاره الهند في الماضي القريب الفاضلة المجاهدة التركية السيدة خالدة أديب خانم بدعوة من الجامعة الإسلامية وألقت بضع محاضرات في عاصمة دهلي ، قام بترجمتها إلى اللغة الأروبية أستاذ الجامعة الفاضل الدكتور عابد حسين بعنوان « النزاع بين الشرق والغرب في تركيا » ونريد فيما يلي أن ننظر في هذه المجموعة من المحاضرات نظرة نقد وتحليل .

إن في العالم الإسلامي الآن قطرين اثنين يتبوءان منصب القيادة بين مسلمي العالم باعتبارين مختلفين : هما مصر بالاعتبار المعنوي وتركيا بالاعتبار السياسي . أما القطر المصري فترتبط به الأمم الإسلامية بعلاقات أوثق وأعمق ، لأن لغته هي العربية ، اللغة القومية المشتركة لجميع الأمم الإسلامية ، ولأن مطبوعاته تنتشر بين مسلمي العالم كله ويمتد تأثيره الفكري إلى الصين شرقاً وإلى مراكش غرباً ، ثم إنه هو أكبر وسيلة للارتباط والتفاهم بين المسلمين والتعرف على

أحوالهم في مختلف أقطار الأرض . وأما تركيا بخلاف هذا فلا ريب أن العالم الإسلامي كله يجل ويكبر ما لهذه الأمة من حياة نضالية وما قامت به من الدفاع الجريء في وجه الحملات الغربية ، وما قدمته من التضحيات في سبيل العز والشرف القومي ، ولهذا كله تحتل هذه الأمة بين المسلمين مكانة السيادة والقيادة ، ولكنه مع هذا كله قد جاءت غرابة اللغة وفقد أسباب التفاهم والارتباط حاجزاً قوياً بين تركيا ومعظم الممالك الإسلامية ، وقد قلل ذلك من معرفتنا بالارتقاء الفكري في الأمة التركية ، وبتركيبها الذهني الحديث وبما أصابها من التطور في الناحية المدنية والسياسية والدينية والعلمية . وقلما وجدنا الفرصة الكافية لأن نفهم - على الخصوص - كنه الأسباب الداخلية لتلك الثورات التي وقعت في تركيا في العقد الماضي من السنين . فكثير من الناس من بيننا ساخطون على الأتراك ، وهناك منهم من يظنون بهم حسناً ، ومنهم آخرون قد جعلوا تقليد الأتراك للغرب حجة لنزوعهم أنفسهم إلى الحضارة الغربية . ولكنه ليست المعلومات الموثوق بها في هذا الباب حاصلة عند أحد . وإن كان لدينا بعض المعلومات فهي لا تكفي لتفهم روح تركيا الحديثة .

ففي مثل هذه الظروف نعد من حسن حظنا أن قد زارت وطننا وكشفت لنا عن باطن أمتها التركية شخصية لم تلعب على مسرح الثورة التركية دور الممثلة فحسب ، بل كانت قوة

من القوى المهيجة لتلك الثورة . وقد حباها الله بجانب ذلك بالنظرة العلمية التحقيقية والفهم الفلسفي والتعمق الفكري ، الذي تستطيع به هذه الفاضلة أن تفهم بنفسها العوامل الداخلية للأحداث الخارجية وتبينها أيضاً لغيرها من الناس . فهذه أول مرة تسنح لنا الفرصة فيها لأن نعرف تركيا معرفة صحيحة عن هذا المصدر الموثوق به . وقد حاولت هذه الفاضلة أن تزيح لنا الستر عن روح تركيا الحديثة وقد أخبرتنا بكل أمانة وصدق بأن الأمة التي لم تكن تتولى قيادة العالم الإسلامي في المحيط السياسي فحسب ، بل هي عاملة على إحراز قيادتها الفكرية أيضاً ، ما حقيقتها الداخلية ؟ ومن أي العناصر تم تركيبها ؟ وما هي القوى العاملة في كيانها ؟ وما هي الأسباب التي قد زجتها إلى موقفها الحاضر ، وما هي وجهتها الآن وإلى أين تسير ؟ فهذا المجموع الموثوق به من المعلومات مفيد لنا باعتبارات شتى . فليس من فائدته الوحيدة أنه قد تبلور لنا واقع الأمة التركية كما هو ، بل من فوائده الكبرى أيضاً أننا نستطيع الآن أن نفهم روح ذلك الإيحاء الذي لا تزال تتلقاه أجيالنا الناشئة من قبل تركيا فهماً أصح وأكمل ، وأنه قد أتيحت لنا فرصة أخرى للتعمق في الأسباب الداخلية لهذه الثورة التي قد بدت طلائعها في العالم الإسلامي الآن .

وقبل أن نعرف تركيا الجديدة بواسطة السيدة خالدة أديب خانم ، يحسن بنا أن نعرف السيدة نفسها جيداً . إنه لا شك

في أن السيدة التركية قلبها مسلم بكل معنى الكلمة ، فائض بالإيمان ، الذي ينبغي أن نغبطها عليه لأنه إيمان امرأة مجاهدة[١] ثم لا تشوب أفكارها شائبة من الإلحاد واللادينية . إنها تحب الإسلام ذلك الحب الذي يجب أن يعمر قلب كل امرأة خالصة الإسلام . ولكن كما أن قلبها مسلم ليس ذهنها مسلماً كذلك . إن السيدة أكثر ثقافتها هو الثقافة الغربية الجديدة وأكثر ما درست من العلوم هو العلوم الغربية . ومن ثم قد نظرت إلى الدنيا وإلى الإسلام وأمتها التركية بالمنظار الأوربي ، وإن مداركها الفكرية والنظرية قد انصاغت في قالب الغرب . ولا ريب أَن ما تكنه نفسها من النزعة الإسلامية والشرقية قد عارض إلى حد كبير سيطرة النزعة الغربية هذه على ذهنها ، ومن نتيجة هذا التعارض بين النزعتين في ذهنها وقلبها أنه يوجد في أفكارها كثير من التوازن والاعتدال بخلاف غيرها من زعماء الأمة الثوريين ، ولكن هذا التعارض بين قلبها وذهنها لم ينج السيدة من غلبة التأثير الغربي .

أما معرفة السيدة خالدة بالإسلام فتبدو محدودة جداً ، ولعلها لم تصرف من ساعات حياتها لمطالعة القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الإسلامي عشر ما صرفته لمطالعة الفلسفة الغربية وعلوم التاريخ والعمران . ومن ثم نرى أن أفكارها التي تلوح لنا من خلال محاضراتها لا شك تتسم

---

(١) نقول مع الأسف إن الذي أطلعنا عليه من أحوال الفاضلة التركية فيما بعد لم يدعنا نثبت على هذا الرأي أيضاً .

بحسن الاعتقاد والإيمان ، ولكن ليس فيها من الفهم والبصيرة والتدبر شيء كثير .

ففي خطبتها الأخيرة تقول السيدة التركية : » إن شخصية غاندي أنموذج كامل للإسلام الجديد « . فهذه الكلمة لا تخرج طبعاً إلا من لسان من لا يعلم ما الإسلام وما أرفعه عن النسبة إلى القديم أو الجديد ، وكيف يكون أنموذجه الكامل . إن من كان له نظر في مزايا السيرة الإسلامية وكان قد اجتلى النماذج الكاملة لهذه السيرة فلا يملأ عينه حتى أكابر أبطال التاريخ العالمي ، دع عنك غاندي أو أمثاله . ولا نقول هذا بدافع من العصبية القومية ، بل الأمر تثبته الحقائق التاريخية التي لا تجحد . تمثل في ذهنك سير أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعلي المرتضى والحسين بن علي ، وأحمد بن حنبل وعبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، ثم انظر بعين الإنصاف مَن من رجالات التاريخ العالمي ـ عدا الأنبياء عليهم السلام ـ يجدر بأن يوضع في مستوى هذه الشخصيات العالية الرفيعة .

إن السيدة الفاضلة ترى من تركيب المزاج السياسي للأمة العثمانية آثار كل شيء : من خصائص الجنس التركي القديم إلى حضارة اليونان وبيزنطة والروم حتى إلى ديمقراطية أفلاطون ، ولكنها لا تكاد ترى فيه أثراً لتعاليم القرآن الكريم والنبي العربي ﷺ . والحال أن الذي هذب أتراك البادية من آسيا الوسطى وكساهم حلة المدنية والعمران وخلق فيهم

الصفات اللازمة لقيادة الدنيا مع القوة والمقدرة على غزو العالم . ثم جعلهم قوة من قوى البناء والتعمير ، لا الهدم والتخريب ، للنوع الإنساني . هو هذا التعليم القرآني الذي جاء به النبي ﷺ . إن أقصى ما لمحت السيدة خالدة أديب من أثر الإسلام في مقومات الجنس العثماني هو العدل والمساواة الإسلامية فحسب . وفي هذا أيضاً لا توفي السيدة التعليم الإسلامي حقه ، فهي لا ترى في موقف شيخ الإسلام جمالي أفندي من السلطان سليم حين أراد نشر الإسلام في رعيته بقوة السيف فمنعه شيخ الإسلام من ذلك فذعن لأمره سلطان جبار كمثل سليم ، لا ترى السيدة في أعماق هذا الموقف الجليل إلا شعور القومية العثمانية وإلا التحمس لصوت « مبادىء الحكم العثماني » بدل أن تجد فيها آيات العدل الإسلامي . ولا يخطر ببال السيدة أن فتوى الشيخ جمالي أفندي كانت تحمل روح ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأن الذي جرأه على ذلك الإفتاء في وجه السلطان سليم هو قوة اتباع الحق التي يبعثها الإسلام في قلب المرء وأن الذي أكره السلطان سليم على الخضوع أمام فتوى الشيخ هو عظمة الدين الإسلامي وحدها .

إن السيدة خالدة تبدو ضجرة مما ترى في الطبقة الحاكمة الموجودة من حب التطرف والاستبداد والحرص على التنظيم الإجباري للحياة الاجتماعية والتقليد الغربي المفرط والنزعات المادية ، وخفتها المنحرفة في أمر الدين . إنها تريد امتزاجاً معتدلاً من « الحياة الغربية » و« الحياة الشرقية » وتريد

موافقة بين « المادية » و « الروحانية » وهي تعترف أيضاً بأن الامتزاج الذي يضمنه الإسلام بين هاتين النظريتين للحياة هو الأحسن والأقوم ، ولكنها ليست على بصيرة كاملة بالإسلام ، فلا تعلم ما هي الصورة الصحيحة لذلك الامتزاج ضمن مبادىء الإسلام وما هو خط القصد والاعتدال المستقيم بين جانبي الإفراط والتفريط . على أنه إن تأملنا محاضراتها بصرف النظر عن آرائها الشخصية ، فإنا نرى فيها بياناً واضحاً صحيحاً لعقلية تركيا الحديثة وميولها والأسباب التاريخية لثورتها . وهذا هو الذي نطلبه .

إن الأمة التركية ـ ونعني بها الأتراك العثمانيين ـ دخلت في الإسلام في عصر بدأ فيه انحطاط المسلمين الفكري والذهني ، فماتت فيهم روح الاجتهاد وإن بقيت روح الجهاد ، وندر بينهم مفكرون متبصرون في الإسلام وعلماء متفقهون في الدين . فالحضارة الإسلامية قد اضمحلت من الضعف ، والفكر الإسلامي قد فارقه الروح . وأصبحت الغلبة في الشريعة للتقليد الجامد الأعمى ، وتأصلت في محيط التمدن العناصر الطارئة من الأعجمية والرومية ، وغلب على التصوف المذهب الإشراقي وعلى التفكر النزعة الفلسفية . فلم يوجد بين المسلمين من يكتسبون العلم من القرآن والسنة مباشرة ، والأكثرية من العلماء تشتمل على الذين يغوصون في معميات الألفاظ ويشغلون أنفسهم بمعضلات الكلام ويثيرون الجدال حول الشرح والإيضاح

لآثار المتقدمين البوالي . والأمراء يتبعون سيرة قيصر وكسرى ، والصوفية والهداة الروحانيون خالون من روح التصوف الحقيقي لصدر الإسلام ، وقد عادوا يقلدون الرهبان وتاركي الدنيا من النحل الأخرى . وفي العلوم والفنون تعطل سير المسلمين نحو الرقي وقد توقف ارتقاؤهم أو كاد في درب التحقيق والاكتشاف ، وأصبحت أعلام الهبوط بادية في جميع الممالك الإسلامية بعد كل ما سبق من الترقي والصعود !

فكانت بداية الأتراك في التاريخ الإسلامي إذن من نقطة ضعف أساسي . لقد قامت الدولة العثمانية تقريباً في الزمان الذي كان الارتقاء الفكري والنهضة العلمية قد أرهص بناؤه في أوربا . ومع أن الأتراك العثمانيين رفعوا راية الإسلام عالية في الدنيا وألقوا مهابته في نفوس العالم بما هزموا أوربا مراراً متكررة في القرنين أو أكثر منذ قيام دولتهم ، كانوا هم كذلك يسيرون في جهة الانحطاط كعامة الأمم المسلمة في هذا الزمان ، بينما الامم الأوروبية التي تقابل الأمة التركية في الميدان كانت تسير الخبب في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري . وفي القرن السابع عشر انقلبت الأحوال ، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكري وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند أمم الافرنج أنها هزمت الأتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة في معركة سينت جوثرد . ولكن الأمة التركية لم تتخذ العبرة بهذه الهزيمة فتابعت سيرها في منحدر الهبوط ، وتابع الافرنج سيرهم نحو الرقي والكمال ، حتى بلغت حالة

الأتراك في جميع نواحي الأخلاق والدين والسياسة والعلم والمدنية قرارة الضعة ، وأصبحت غلبة الافرنج أمراً ظاهراً للعيان .

إنه في أوائل القرن التاسع عشر أحس السلطان سليم بهذا الضعف في الأمة التركية ، فأخذ في إصلاح نظام إدارة الحكم ، وفي نشر العلوم الجديدة وتنظيم الجنود على النمط الحديث وترويج الآلات الحربية الأوربية ، ولكن الصوفية الجهال والعلماء الرجعيين ممن ليس لهم نصيب من علم الدين وروحه قاموا يعارضون إصلاحات السلطان . فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللادينية ، وجعلوا لبس الزي الجندي الحديث في حكم التشبه بالنصارى وقد خالفوا حتى استعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم إثم عظيم . وأساؤوا سمعة السلطان سليم وبثوا النفرة منه في نفوس الجمهور بقولهم إنه يسيء إلى الإسلام بترويجه أساليب الكفار . فأفتى شيخ الإسلام عطاء الله أفندي أن السلطان الذي « يعمل بخلاف القرآن » لا يجدر بالبقاء على العرش . وفي آخر المطاف عزل السلطان سليم في سنة ١٨٠٧م . وهذه أول مرة قدم فيها الزعماء الدينيون بجهالتهم وظلمة فكرهم ، التصور الخاطيء أن الإسلام عائق للرقيّ .

وكانت أوضاع العصر متغيرة إذ ذاك بسرعة . وكان الأتراك أكثر تعرضاً من غيرهم من المسلمين لتأثير ذلك

التغير ، إذ كانوا يقابلون الأمم الاوربية ويقاومونها وجهاً لوجه . وكانت صلاتهم السياسية والمدنية والتجارية مع أمم الغرب عميقة جداً . وكانت الأمم الأوربية والنصرانية التابعة لهم نفسها تقبل تأثير الوضع الغربي بسرعة . ولكن زعماء الأتراك الدينيين الذين كانوا صفراً من روح التفقه والاجتهاد وجاهلين التعاليم الإسلامية الحقيقية أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغيير والانقلاب ، وأكرهوا الأمة التركية على أن لا تخرج - ولو خطوة - من حدود البيئة التي ساءتهم منذ سبعمائة عام . وتبع السلطان سليم السلطان محمود في الحكم ، فحاول الإصلاح ، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان في سنة **١٨٢٦م** من ترويج التنظيم العسكري الجديد في تركيا . ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بأن كل تلك الإصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الإسلام ، وأن السلطان قد مرق من الدين وأن التطوع في الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة لإيمان المسلمين .

وكان هذا هو الزمان الذي أحس فيه أهل الفكر من الأتراك بتخلفهم وهوانهم القومي . فأقبلوا يدرسون أسباب رقي الأمم الغربية ويطالعون علومها وآدابها ويعمقون النظر في صور تنظيمها . وحاولوا أن يدخلوا على قوانين دولتهم وشؤون إدارتهم وأمور تعليمهم ونظام حربهم إصلاحات يستطيعون بها ان يسايروا الأمم الغربية في طريق الرقي .

وكان هؤلاء ـ كما قالت السيدة خانم ـ أناساً قد أشربوا في قلوبهم الروح الإسلامية . وكانوا مسلمين صادقين قلباً وذهناً . وكانوا لا ريب يحسون بضعفهم ولكنه لم يغلبهم يوماً شعور الذل والهوان أمام الغرب . ولا كانوا يرتاعون لقوة الغرب ، ولا يقبلون كل ما يأتيهم منه بدون تمييز . وإنما كانوا يهدفون إلى أن يأخذوا من الغرب ما ينفع ويفيد ، فيصلحوا به نقائص أمتهم ودولتهم ويتمكنوا من مجاراة الأمم الاوربية في مضمار الحياة . وقد قام هؤلاء فعلا بإصلاح نظام الدولة وتنظيم الجنود في زمن السلطان عبد المجيد ، وبثوا روح الحياة في آداب أمتهم وفتحوا المدارس والكليات الجديدة ، وأخرجوا في مدة سنوات قلائل جيلا كان تام الأداة في شؤون التفكير والتدبر ، بجانب ما يتصف به من محاسن الثقافة الإسلامية وقد أبلت هذه الطائفة بلاء حسناً في عمل الإصلاح القومي على رغم المشكلات الداخلية والخارجية حتى عزل السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦ . وكان من ثمرات هذا العمل الإصلاحي نبوغ القادة الحربيين كعثمر باشا ، والساسة المحنكين كمدحت باشا وأقطاب الأدب والفكر الصادقي الإسلام كنامق كمال وعبد الحق حميد .

ولكن السلطان عبد الحميد الذي تلا في الحكم حول مجرى هذه الحركة كلها إلى جهة أخرى . فمدة الثلاثة والثلاثين عاما بين سنة ١٨٧٦ وسنة **١٩٠٩** ، التي جرت في أثنائها امة شرقية أخرى ـ اليابان ـ أشواطا طوالا في حلبة

الرقي قد أهلكها هذا السلطان الأناني المغرض في إماتة روح الأمة التركية وفي منع رقيها العلمي والعقلي والمدني والسياسي والتنظيمي . ولا يلائم هذا المقام لأن ننقد أعمال هذا الرجل بشيء من التفصيل . وإنما نكتفي بالإشارة إلى أنه ضيع زمان البناء والتعمير الذي كانت كل ساعة من ساعاته ثمينة جداً في عمل الهدم والتخريب ، وطوح بأجود العقول والأذهان من الأمة التركية . وقد أزجى القدر إليه رجلاً عبقرياً كجمال الدين الأفغاني ولكنه لم ينتفع به وأضاعه .

على أن أعظم الضرر الذي لم ينل الأمة التركية فحسب ، بل شمل العالم الإسلامي قاطبة من سوء تدبير هذا الرجل هو أنه استغل سلطة الخلافة الدينية ونفوذ العلماء والمشايخ الرجعيين لنقض الدعائم التي أرساها المصلحون الأتراك لعهد التنظيم ، وصد الارتقاء الفكري والأدبي في الأمة التركية والقضاء على الإصلاحات السياسية والتنظيمية . وكان من رد فعل هذه الخطة السلطانية القديمة على الأثرة وإهمال العواقب أن ثار الجيل التركي الناشيء ثورة عنيفة عادوا معها يعتبرون الدين مانعاً للرقي وينحرفون ذهنياً عن شرعة الإسلام وتحولت النفرة التي انبعثت في نفوسهم ـ بحق ـ من أهل الجمود والظلام الفكري من العلماء والمشايخ . . تحول تيارها في عاصفة الثورة هذه إلى الدين نفسه . فاعتقدوا بأنفسهم وحملهم العلماء والمشايخ الجاهلون على أن يعتقدوا بأن الإسلام دين جامد لا يصلح

لمسايرة الزمن ولا تجاري قوانينه تغير الأحوال والأوضاع ، وليس فيه ما يكون له ثبات ودوام اللهم إلا بعض العقائد . فهذا الاستبداد الملكي الممتد على الثلاثة والثلاثين عاماً الذي كان لسوء الحظ ذا صيغة دينية جاء يبعث في الجيل التركي الحديث النزوع إلى المذهب المادي والإلحاد ، والهزيمة الذهنية أمام الغرب والتقليد الأعمى للأفكار الغربية والنفرة من الماضي والتضجر من كل شيء قديم والكراهية الشديدة للخلافة والوحدة الإسلامية ـ التي اتخذها السلطان عبد الحميد آلة لأغراضه الدنيئة ـ وأكد في نفوسهم أنه إن أريد للأمة التركية العز والشرف في هذا العالم فلا بد أن تهدم جميع الأسس القديمة ويبنى عليها صرح القومية التركية على الطراز الغربي الخاص .

إن ثورة عام ١٩٠٨ دكت عرش حكومة السلطان عبد الحميد خان وانتقل الأمر إلى أيدي الشباب الثائر المضطرم ذي العقلية المنحرفة . وهؤلاء كما قالت السيدة خالدة أديب خانم كانوا مختلفين جداً عن رجال الإصلاح لعهد التنظيم . فلم يكن من بينهم رجل واحد يسامي حكماء عهد التنظيم في الأداة العلمية والتدبر والتفكير والسمو العقلي . ولا كان نصب عيونهم تلك الغاية السامية التي كان يطمح إليها أولئك ، ولا كانت سيرتهم تتسم بتلك القوة والأحكام الذي عرفت به سيرة الماضين ، ولا هم على شيء من تهذب أولئك المصلحين وحسن تربيتهم ، ولا فيهم ذلك الحماس القومي وشعور العز

والفخار ، ولا فيهم ملكة أسلافهم في النقد والامتحان الذي يدركون به الفرق الصحيح بين القديم والجديد . وإنما كان هؤلاء جماعة من شبان لا نصيب لهم من العلوم الإسلامية ناقصين في التربية الإسلامية ، ولا نظر لهم غائراً في علوم الغرب أيضاً . وقد تمكنت من نفوسهم وأذهانهم عصبية شديدة على دينهم وحضارتهم وعلومهم وآدابهم وتنظيماتهم الجماعية القديمة ، وبلغت فيهم الروعة لمظاهر التقدم الغربي حداً متناهياً ،فكانوا يتململون شوقاً إلى أن يبدلوا كل ما عندهم من العادات والتقاليد القومية . فلما انتقل إليهم أمر الدولة طغى هذا التيار المحبوس الذي كان قد تعفن من السكون والوقوف طِوال **٣٣** عاماً متدفقاً كالسيل الهاجم . وهذا هو الزمان الذي سطا فيه على الأتراك غول القومية الضيقة والعصبية التورانية ، وخبا حماسهم للوحدة الإسلامية فبدؤ وا يعيبون الدين ويعترضون عليه ، ويدعون بشدة إلى قبول الحضارة الغربية بحذافيرها .

ولقطع الصلة بالماضي وزيادة التقرب إلى الغرب اقترحوا اصطناع الخط اللاتيني للغة التركية . وقامت طائفة من العلماء الرسميين تصوغ الإسلام في قالب النظريات الجديدة ، على رأسها رجل كفياكوك الب . وهو الرجل الذي شدد في الدعوة إلى الاتحاد التوراني ضد الوحدة الإسلامية ، ونفر الأتراك من تاريخ العهد الإسلامي وأبطاله المشاهير وعلمهم الاعتزاز بالتتر العجميين القدامى ـ الذين أبرز

شخصياتهم جنكيز خان وهولاكو ـ واجتهد لتطهير اللغة التركيّة من خصائص الأدب الإسلامي وأكد على تقليد الغرب تقليداً كاملاً ، في المدنية والاجتماع والحضارة والعادات والحياة العملية . فأخذ هذا الرجل الذي ينزع تلك النزعة ويفكر على هذا الأسلوب مكانة الإمام المجتهد للجماعة الثورية الجديدة وجعل يحاول مع أتباعه ، أن يؤول التعاليم الإسلامية تأويلاً يمكن أن يثبت به كون كل أمر من أمور الإسلام ـ اللهم إلا بعض العقائد والمباديء الخلقية ـ قابلاً للتغيير فيسكب في القالب الغربي .

كان بجانب أن الأمة التركية على عتبة مثل هذه الثورة العظيمة ، وكان هناك ـ بجانب آخر ـ علماء الأتراك ومشايخهم الذين لم يكونوا يرضون ـ حتى في هذه الآونة ـ أن يخرجوا مما ضربوا حواليهم من جو القرن السابع . وكان من جمودهم وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم وإبائهم الأكيد لمسايرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم . فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع ، والحال أن باب الإلحاد الصريح كان ينفتح أمام أعينهم ، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرِّسون في الفلسفة والكلام تلك الكتب التي كان الزمان قد خلفها من ورائه منذ خمسمائة سنة وتقدم إلى الامام . وكانوا يلقون على الناس مواعظهم ، من ذلك التفسير القرآني وتلك الأحاديث الضعيفة التي لا شك أن الناس كانوا يستمعون إليها بشوق قبل مائة سنة ، ولكنها

جاءت تنفر في هذا الزمان العقول الجديدة لا من أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القرآن الكريم والحديث النبوي نفسه ، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الأمة التركية تلك القوانين الفقهية التي هي مكتوبة في مجموعات الشامي وكنز الدقائق ، وإن كانت نتيجة هذا الإصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الأصولية المنصوص عليها في القرآن والسنة !

فموجز القول إن العلماء والمشايخ ما زالوا بجانب ـ ثابتين لا يتزحزحون على سلوكهم الذي انحدر بالأمة التركية من مرحلة عهد التنظيم إلى مرحلة الثورة هذه ، وظل الزعماء الثوريون للأمة التركية ـ بجانب آخر ـ يبتعدون عن الإسلام في حياة الفكر والرأي والعمل الواقعية ، مع كونهم مسلمين من الناحية القلبية العاطفية . وفي هذا العصر وقعت الحرب العالمية الأولى التي جاء فيها مسلمو العرب والهند يحاربون الأتراك ويقتلونهم جنباً إلى جنب مع أعداء الإسلام ولما قام الأتراك بعد الحرب العالمية يجتهدون لصون حياتهم القومية من الفناء الكامل كان في طليعة من خالفهم في ذلك هو الخليفة القائم وشيخ الإسلام .

فجاءت هذه الضربات النهائية قاضية على الروح الإسلامية المضمحلة في التركي الثوري . ومن نتيجتها ما صرنا نشاهده اليوم من هذه النزعة التجديدية المتطرفة في تركيا الحديثة . وذلك أن الأفكار الثورية التي كانت فجة بعدُ

في سنة ١٩٠٨ ، والتي كانت منعتها حروب طرابلس وبلقان والحرب العالمية الأولى وحملة اليونان من النضوج والكمال بلغت نضوجها وكمالها على أثر مؤتمر لوزان وصارت تظهر في حيز العمل . فاختيار الطريقة الغربية في المدنية والاجتماع والتعصب القومي المتناهي في الأدب واللغة والسياسة والتفريق بين الدين والدولة عقب إلغاء الخلافة ، وفصل الدين من الدولة ـ كما قالت السيدة خانم ـ وجعله تابعاً ومحكوماً للدولة ، واختيار القانون السويسري بدل القانون الإسلامي ، وتغيير القوانين القرآنية الصريحة في مسائل الوراثة والنكاح والطلاق ، وتسيير طبقة الإناث على درب الحرية الذي سارت عليه نساء الغرب بعد الحرب العالمية ، على رغم تعاليم الإسلام ، كل أولئك نتائج طبيعية لجمود العلماء والجهال ، وضلال الصوفية والمتبعين للأهواء ، وأنانية السلاطين المستغلين لمنصب الخلافة ، وجهل الزعماء الثوريين بعلم القرآن والسنة . إنه لمن المؤسف جداً أنه لم ينبغ من بين الأمة التركية في هذا القرن رجل واحد يملك البصر النفاذ في القرآن والفهم الصحيح لروح التعليم الإسلامي الحقيقية ، فيدرس أوضاع العصر المبتذلة بإمعان ويستعمل قوته الاجتهادية السديدة ، ليطبق مبادیء الإسلام على تلك الأوضاع ، ويخرج نظاماً شاملاً متسقاً يقوم على أساس الكتاب والسنة ويصلح لمسايرة الزمن .

إن الذين لا يعرفون كل هذه التحولات في التاريخ

التركي يتعرضون للوقوع في أخطاء عجيبة . فأهل الفكر الديني القديم لا يزالون يصفون الشبان الأتراك بالكفر والفسق ، ولكنهم لا يعلمون أن علماء الأتراك ومشايخهم هم الأكثر ذنباً وجريمة من شبانهم أولئك ، فإن جمودهم هو الذي أبعد الأمة المجاهدة التي ما زالت تذب - وحدها - عن حريم الإسلام منذ خمسمائة سنة ودفعها من الحياة الإسلامية إلى الحياة الفرنجية ، ويخشى أن أمثال هؤلاء الجامدين لا بد أن يدفعوا الأمم المسلمة الأخرى أيضاً إلى ذاك المحذر . وبجانب آخر لا يزال المتجددون يعرضون على المسلمين كل ما ينزل عليهم من وحي أنقرة كأنه هو الهدى وكأن القرآن قد نسخ ورسالة محمد ﷺ قد انتهت . فلا هداية الآن إلا في حياة أتاتورك ولا نور إلا في الوحي المنزل من سماء أنقرة ، والحال أن المسكين أتاتورك ومن يتبعه مصداق قول الله عز وجل : ﴿ ما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يخرصون ﴾ .

الفصل الثامن

خداع المذهب العقلي

إن التأثير الذي يؤثره التعليم الغربي والحضارة الجديدة في الأفكار الدينية لشبابنا الذين يكونون ناقصين في التعليم والتربية الإسلامية أو غير ناضجين ، قد يقدره المرء مما يصدر عن أمثال هؤلاء من الكتابات والخطب بين حين وآخر . ونذكر على سبيل المثال ما اطلعنا عليه أخيراً من المقال الذي قد خرج من قلم شاب مسلم حائز لشهادة البكالوريوس من الولايات المتحدة في الهند . يقول فيه عند ذكر سياحته في بلاد الصين واليابان :

إن الذين يصحبوننا من المسافرين الصينيين هم مدمنون للخمر أكالون يستطيبون لحم الخنزير إلى حد أنهم لا يستطيعون العيش بدونه . . . وها هو ذا السر من وراء ارتقاء النصرانية ، فالصيني يعد من العار اتباع نحلته القديمة مع التعليم الجديد . ولو أنه عرف الإسلام لما أحجم عن قبوله ، ولكن الآفة مع الإسلام أنه يحرمه من جميع الأطعمة الشهية التي يستمرئها ، فهو يصير إذن نصرانياً على الرغم منه . . .

وليس من المستبعد أن تصبح النصرانية هي الديانة الرسمية للصين فيما يأتي من الزمان. وإني لأوثر شخصياً أن ترخص للمسلمين الحديثي العهد من أهل أوربا والصين بعض الترخيص في أمر لحم الخنزير . وإني أشك في كونه حراما قطعيا حتى من نصوص القرآن . بل عندي الأمر لا يعدو أن يكون الخنزير قد حرم على العرب بسبب خاص . فأي جناح الآن في استعماله في البلاد التي يكون أهلها مصداق الآية ﴿ فمنِ اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ . . . ﴾ . على كل حال هذا هو الحكم الوحيد - من أحكام القرآن - الذي لم أدرك بعد علة التحريم العام الذي جاء فيه ، إذ أن هناك من البعد الشاسع بين معدة الإنسان وحوافز الأخلاق ما لا ينبغي معه أن يتدخل الدين في أمور مأكلنا ومشربنا . ولو أنه يتدخل فيها ويقرأ لنا بيان المائدة (Menu) أيضاً ، فلماذا لا يعلمنا الخياطة والحدادة والصرافة كذلك . وإني لأعتقد أن السر في عدم ارتقاء الإسلام في العالم هو أنه يسلب المرء جميع حقوقه الإنسانية ويتركه جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور . فهو يغمض عينيه عن كل ما هو لازم لرقيه في هذه الدنيا . ومن الواجب عندي أن ينحصر الدين في تلك الحدود التي قد حده فيها النصرانيون .

ويكتب بعد ذلك عند ذكر أحوال شنغاي :

وإذا رأى المرء هذا الخلق الذي لا يحصى من الناس ينعمون برغد العيش والهناء ، فلا يكاد قلبه يشهد أن هؤلاء

برمتهم سيكونون حطب جهنم بعد مدة من الزمان ، كأن هذه هي الغاية الوحيدة عند الله من خلقه إياهم . وإن كان هؤلاء كلهم ـ اللهم إلا النزر القليل ـ منكرين ووثنيين فهل ذنبهم الوحيد الذي يستحقون لأجله أن يخلدوا في جهنم هو أنهم عمروا أرض الله ؟ إن القوم لا يقتلون الحجاج ولا يسلبون أموالهم ولا فيهم سيئة آل لوط ، ولا هم يأكلون مال الغير أو يتأولون الآيات لاستباحته لأنفسهم . إنهم يعيشون حياتهم الوادعة الهادئة بأمن وسلام ، ولكنه مع ذلك يستحقون العذاب ! لماذا يا ترى ؟ ولأي ذنب ؟

لا شك في أن عقيدة الشرك من الحماقة والسخف . ولكن قولوا لي : إن آمن المرء بإيحاء من فطرته بذات سامية تميته وتحييه فهل أنتم تكونون أعداءه ويكون عدوكم لمجرد أنه لا يعتقد العربية هي اللغة الإلوهية ؟ . . بل الأمر في الحقيقة أنه لا يهمكم مثل هذه الأمور . إنما المهم عندكم أن يكون الجلباب على تقطيع خاص ، وتكون العمامة على هيئة بعينها وتكون اللحية على الذقن بقدر معلوم ، وأن يأكل المرء لوناً بعينه من الطعام ، ولا يدخل أبداً المدارس الأهلية لأنه لا تعلم فيها لغة الدين ولا فنون الدين .

ويقول عن ميناء كوبي (Kobe) في اليابان :

بقيت أمشي في شوارع كوبي مدة ساعتين فلم يقع نظري على متسول واحد ، ولا وجدت رجلاً سيء الحال في خرق

عالية . هذا هو مستوى رقي الأمة التي لا تعرف الدين ولا الله .

ويأخذ الفاضل بعد ذلك في الموعظة الحسنة ، على حد زعمه ، فيقول : ـ

اعلموا أن الإحسان هو أصل الدين ، ولا يحتاج الإحسان إلى لغة أو فن . وإنما غايته الطبيعية أننا مسؤولون عن أعمالنا في هذه الحياة وسنكون كذلك في الخياة الأخرى . وهذا هو الدين الإسلامي في حقيقة الأمر . وأما عدا ذلك مما سميتموه « الدين » فهو خداع قد ابتليت به أنفسكم أو خلط قد وقعت فيه أذهانكم فإذا ما حصرتم دينكم في هذين الأمرين ـ أي الإحسان وشعور المسؤولية ـ وحطمتم كل ما ترسفون فيه الآن من قيود الشريعة وأغلالها فإنكم أيضاً ستركبون سنام الرقي مع الأمم الأخرى ، بل يجب أن يقال : ستودعون ضميراً في نفوس تلك الأمم ، التي إن لم تضع عنها الدنيا في هذه الحياة فلن يضيع عنها الملكوت السماوي أيضاً . إنكم لستم في أنفسكم أمة كهذه الأمم بل أنتم مصلحون للأمم ، ولكن لا تجعلوا الناس ـ بالله عليكم ـ يقولون : إن الأمة الفلانية على قمة المجد والرقي من حيث المجموع ، ولكن المسلمين من أهاليها هم في حال بؤس وشقاء وإن السبب في شقائهم هذا هو دينهم العجيب .

هذه العبارة أنموذج صادق الدلالة لذهنية جيلنا المثقف

الجديد . انهم ولدوا في بيت مسلم ، ونشأوا كعضو مجتمع مسلم ، وارتبطوا بالمسلمين بأواصر التمدن والاحتماع . ولهذا كله قد شبوا على حب الإسلام والنصح للمسلمين والرغبة في البقاء في دائرة الدين . وقد قر ذلك في نفوسهم من حيث لم يريدوا ولم يشعروا ولم يعملوا لذلك عقلهم أو فكرهم . بيد أنهم قبل أن يحول فيهم هذا الإسلام التقليدي اللاشعوري إلى الإسلام الاختياري الشعوري بفعل التربية والتعليم ، وأن يؤهلوا لأن يكونوا مسلمين عن فهم للتعاليم الإسلامية وامتحان لأحكام الإسلام وقوانينه باستعمالها في حياتهم العملية ، بعثوا إلى المدارس والكليات الإنكليزية حيث ربيت قواهم الفكرية والذهنية على غير الطريقة الإسلامية للتربية والتعليم . فاستولت على أذهانهم الأفكار الغربية ومباديء الحضارة الغربية استيلاء جعلهم ينظرون إلى كل شيء بمنظار الغرب . ويفكرون في كل مسألة بالذهن الغربي . ولم يعد من الممكن لهم أن ينظروا أو يفكروا مستقلين عن هذا التأثير الغربي . إنهم تلقوا من الغرب درس المذهب العقلي (Rationalism) ولكن العقل في رؤوسهم لم يكن عقلهم أنفسهم وإنما استعاروه من الغرب . فجاء مذهبهم العقلي المذهب العقلي الغربي في الحقيقة ، لا المذهب العقلي الحر . وأخذوا من الغرب درس النقد (Criticisur) أيضاً ولكنه لم يكن درساً في النقد البريء الحر ، بل كان درساً لأن ينتقد كل ما ليس غربياً بمقياس

المباديء الغربية التي يجب أن يعتقدها حقاً وأرفع عن كل نقد . فلما خرج هذا الجيل من الكليات متحلين بهذا التعليم والتربية وخاضوا غمار العمل في الحياة ، كانت قلوبهم وأذهانهم قد وقع بينها بعد المشرقين . كانت القلوب مسلمة ولكن الأذهان غير مسلمة . وكانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين وكانت معاملتهم اليومية أيضاً مع المسلمين وكانوا متصلين بهم بروابط التمدن والاجتماع ، يشاهدون فيما حولهم أحوال حياة القوم الدينية والمدنية وتتعلق بهم أيضاً أواصر حبهم ونصحهم . ولكن كل ما يملكون من الفكر والفهم وتكوين الرأي كان قد انسكب في القالب الغربي . فلم تكن تطابقه ضابطة من ضوابط الإسلام ، ولا عمل من أعمال المسلمين فجاء القوم ينتقدون كل شيء يتصل بالإسلام أو المسلمين بالمقياس الغربي . فكل ما وجدوه لا يطابق هذا المقياس اعتبروه خطأ وأمراً واجب الإصلاح والترميم سواء أكان من أصول الإسلام وفروعه أم كان من عمل المسلمين فحسب . ومنهم من عنوا أيضاً بدرس الإسلام دراسة قليلة لأجل البحث عن أسباب هذه الحال المتخلفة . ولكنه ما دام مقياس نقدهم وتحقيقهم غربياً صرفاً فكيف كان التعليم الإسلامي المستقيم أن يطابق ذهنيتهم الزائفة المعوجة !

إن هؤلاء المتجددين إذا أبدوا آراءهم في الشؤون الدينية فإن السامع يتبين من كلامهم أنهم يتكلمون بلا تفكير أو شعور . فلا المقدمات من كلامهم تصح ولا هم يرتبونها

على الأسلوب المنطقي ولا هم يحاولون الاستنتاج السليم . ويبلغ بهم الأمر في ذلك أنهم إذا تكلموا فلا يحددون حتى موقفهم أنفسهم ، بل تراهم يتخذون مواقف مختلفة متضادة في سلسلة واحدة من الكلام ، كانوا يتكلمون الساعة في موقف بعينه ، وإذا في الجملة التالية حولوا هذا الموقف بغتة وجعلوا رأسهم مكان عقبهم وراحوا يتكلمون في الموقف الجديد المضاد . فالاسترخاء الفكري (Loose- Thinking) هو الميزة البارزة لمواعظهم الدينية . إنهم إذا تكلموا في أية مسألة غير مسألة الدين ؛ يتكلمون بحيطة وحذر ، ثقة منهم بأنه إن بدا منهم خطأ أو زلل في تلك المسألة سيسقط اعتبارهم في أعين أهل العلم . ولكن الدين لما أنه لا أهمية له عندهم لا يعتدون بأمره حتى بقدر أن يشعروا بضرورة إعمال الفكر والروية حين التكلم في موضوعه بل هم ينطقون في أمره بكل سهولة وفراغة بال كأن الناطق منهم مضطجع على الكرسي المريح عقب تناول الطعام وهو يتكلم استجماماً للنفس على سبيل التفكه واللهو ، مما لا حاجة له فيه إلى مراعاة ضوابط الكلام الجاد .

والشيء الآخر الذي يبدو بارزاً في كتاباتهم هو فقدان المعلومات وسطحية الأفكار . إنهم لا يتجرؤون على أن يتكلموا في غير مسائل الدين بتلك المعلومات الناقصة وبذلك التفكير الفج لأنهم يخشون أن يفقدوا اعتبارهم إذا تفوهوا بكلمة واحدة بدون التحقيق . ولكنهم لا يستلزمون شيئاً من

التحقيق والتعمق والتفكير في أمر الدين ، بل هم يكونون الرأي بكل ما يسقط في أيديهم خلال دراستهم العاجلة . ويعلنون به من غير تحذر ، لأنهم لا يخافون حساباً في هذا الموضوع وإن حاسبهم أحد فلا بد أن يكون « رجل دين » وقد تقرر وأصبح من مسلمات الأمور على سبيل الأصول الموضوعة أن « رجل الدين » في كل حال ضيق النظر مظلم الفكر نزاع إلى القديم .

فالعبارة المقتبسة آنفاً للكاتب الفاضل ـ وقاها الله عين الحسود ـ تحمل كلا من هاتين الميزتين . فقبل كل شيء لا يعلم منها أن كاتبها هل هو يتكلم من موقف المسلم أو غير المسلم . وذلك أن كل من تكلم في موضوع الإسلام فلا بد أن يكون له موقف من اثنين : موقف المسلم أو موقف غير المسلم . فمن تكلم من حيث هو مسلم ، سواءً أكان راسخ العقيدة (Orthodox) أم حر الفكر أو في حاجة إلى الإصلاح ، وجب عليه أن يتكلم داخل دائرة الإسلام ومعناه أن يعتقد بأنّ القرآن منتهى كل كلام، والحجة النهائية الأخيرة (Final Authority) ويذعن بما قد قرره الإسلام من مباديء الدين وقوانين الشريعة . فإنه إن لم يؤمن بحجية القرآن ورأى مجال القول في أمر قد نص عليه القرآن ، خرج عن دائرة الإسلام ولم يبق له شيء من منزلته الإسلامية حتى يتكلم في الإسلام . وأما الذي تكلم في الإسلام من حيث هو غير مسلم فله الحق تماماً في أن ينتقد أحكام القرآن ومبادئه

ويعترض عليها كيفما شاء ، لأنه لا يعتبر كتاب الله هو الحجة النهائية . ولكنه متى وقف هذا الموقف فلا يحق له بعد ذلك أن يتكلم كالمسلم ويفسر للمسلمين أحكام الإسلام ويدلهم على أسباب رقيه . فكل عاقل رشيد متى أراد أن يتكلم في الإسلام فالمرجو أن يقطع ـ قبل كل شيء ـ بأنه أي الموقفين يختار لنفسه . وإذا اختار موقفاً بعينه فعليه أن يراعي في كلامه مقتضيات هذا الموقف ولا يحيد عنها ، لأنه لا يمكن أن يكون من فعل العاقل أن يتسمى باسم المسلم وفي الوقت نفسه يستعمل حق الاعتراض على المباديء والقوانين التي جاء بها القرآن ، أو أن يشك في حجية القرآن وفي الوقت نفسه يلقي على المسلمين موعظة حسنة في أمر الدين . إنه الجمع بين النقيضين ، ومعناه الآخر أن يكون المرء مسلماً وغير مسلم في آن واحد . ويكون داخل دائرة الإسلام وخارجها في وقت معاً ! .

ولا يبلغ من سوء ظننا بمنطقية صاحب المقال وكفاءته العلمية أن نتوقع منه أنه كان سيجمع المنزلتين المختلفتين في ذاته في وقت واحد على هذا النحو لو أنه تكلم في غير مسألة الإسلام . إننا لا نتوقع منه مثلاً أن يكون قاضياً في إحدى محاكم حكومة الهند ثم يستعمل حقه في الاعتراض على مجموعة القوانين المنفذة في البلاد ، ولا نتوقع منه كذلك أن يدعي اتباع مذهب من مذاهب الفكر (Echcol of Thought) ثم ينتقد المباديء التي يقوم عليها ذلك المذهب انتقاد

المعترض المخالف . ولكنه من أغرب الأمور أن صاحبنا قد وقف من الإسلام موقفين متناقضين جداً ولم يخطر له أنه يغير موقفه مرة بعد أخرى في حديث واحد . فهو بجانب يدعو نفسه مسلماً ويتسمى باسم من أسماء المسلمين ويبدي الأسف الشديد لحالة المسلمين المتخلفة ويظهر رغبته في رقي الإسلام ويلقي على المسلمين موعظة « الإحسان » أي « أصل الدين » وبجانب آخر يأتي ويعترض على المباديء والقوانين التي يقررها الكتاب الذي هو أساس هذا الدين ومن الشرط اللازم لإسلام المرء أن يؤمن بكونه الحجة النهائية الأخيرة. إن القرآن يحرم لحم الخنزير في أربعة مواضع لا في موضع واحد[1]، ولكن صاحبنا يجب أن يرخص لبعض الناس في أكله . وأعجب من ذلك أن هذا النزوع إلى الترخيص أيضاً لأجل رقي الإسلام ، كأن رقي الإسلام يهم صاحبنا أكثر مما يهم القرآن ، أو كأن هناك إسلاماً خارج حوزة القرآن يود صاحبنا رقيه . إن القرآن الكريم لا ريب يضع للإنسان بيان المائدة (Menu) بمعنى أنه يهديه إلى ما يأكل وما لا يأكل وأن يفرق بين الطيب والخبيث ، ويقول بصراحة : ﴿ ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسِنَتُكم الكَذِبَ ، هَذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ ﴾ « النحل : ١١٦ » ولكن صاحبنا يصر على أن له الحق في أن يقول هذا حلال وهذا حرام ، ويتردد في الاعتراف بأن للقرآن

(١) راجع سورة البقرة الآية : ١٧٣ وسورة المائدة الآية ٣ وسورة الانعام الآية ١٤٥ وسورة النحل الآية ١١٥ .

حقاً في أن يجعل الأكل والشرب أيضاً تحت سيطرة الدين . ثم إن القرآن لا يحصر الدين في الحدود التي قد حصره فيها أتباع سينت بول (Saint-paul) - لا أتباع المسيح كما يقولون خطأً - بل هو يضع قوانين اللباس والأكل والشرب والنكاح والطلاق والوراثة والمعاملة والسياسة والقضاء والتعزير وما إلى ذلك ، ولكن صاحبنا يفند هذا التشريع القرآني ويعتبره مانعاً « لرقي الإسلام » ، ويعيب عليه أنه يجعل الإنسان جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور ، ويقترح بأن الدين يجب أن يكون منحصراً فيما حصره فيه النصرانيون - بل البولوسيون في الحقيقة - إن القرآن قد وضع بنفسه قوانين الشرع وعبر عنها بحدود الله وأمر باتباعها ولكن صاحبنا يعبر عن حدود الله تلك بالقيود والأغلال ويعتقد كسينت بول أنه من اللازم لرقي الدين واتساعه أن تحطم تلك القيود ، ثم إن القرآن يجعل الإيمان الشرط الأولي اللازم لنجاة المرء ويقول عن الذين لا يؤمنون بالله بتصريح : ﴿ إنْكم وما تعْبُدونَ من دونِ الله حَصَبُ جهَّنم ﴾[1] سواء أكانوا يحصَوْن أم لا يحصون ، وكانوا في رغد العيش أو في بؤس وشقاء . ولكن هذا الفاضل اذا رأى خلقاً لا يحصى من الكفار والوثنيين يحيون حياة الرغد والهناء ، فإنه لا يشهد قلبه بأن أولئك سيكونون حصب جهنم أجمعين بعد مدة من الزمان ، ولا بفهم أنه أي ذنب قد جنوه

(١) الانبياء آية ٩٧ .

سوى أنهم قد عمروا أرض الله . إن السؤال أيها الأفاضل أنه كيف يكون لكم أن تبقوا مسلمين وأنتم تخالفون القرآن هذه المخالفة الصريحة في آرائكم ، وأنى يكون لكم أن تكونوا مسلمين ثم تخالفوا القرآن هذا الخلاف الواضح ، إن كنتم مسلمين فلا يجوز لكم أن تخالفوا القرآن . وإن أردتم مخالفة القرآن فليس لكم إلا أن تخالفوه من موقف خارج دائرة الإسلام .

إن من لم تطمئن نفسه إلى المبادىء والأحكام ، والقوانين التي يقوم عليها دين من الأديان ، ولم يشهد قلبه بصدقها وقصر عقله عن إدراك علتها ومصلحتها ، وكان يظن أن بعضها أو أكثرها موضع النقد والاعتراض ، فأمامه طريقان اثنان يختار بينهما : إما أن يترك ذلك الدين ، ليكون له الحق في أن ينقد كل ما يشاء من ضوابطه وأحكامه بحرية ، وإما أن يجتنب المظاهرة عليه ، إذا هو أحب البقاء في دائرته على رغم عدم طمأنينته إليه . وبدل أن يلبس لبوس المجتهد وينحي على ضوابطه وقوانينه بمعول الهدم والتخريب يجب أن يقف منه موقف الطالب للعلم ويجتهد لحل ما يخالجه من الشكوك والشبهات في بابه . أما العقل والمنطق فلا يستسيغ إلا هذين المذهبين من مذاهب سلوك المرء وكل رجل عاقل إذا رأى نفسه في مثل هذه الحال لا بد أن يختار أحد هذين المذهبين لا غير . ولكن صاحب هذا لمقال وكثيراً من المثقفين بالثقافة الغربية مثله ليسوا من الشجاعة الخلقية

بحيث يختارون لأنفسهم المذهب الأول ، وأما المذهب الآخر فهم يخجلون من اتخاذه . ولهذا كله قد اختاروا لأنفسهم مذهباً وسطاً بين الاثنين لا يقبله العقل السليم وهو أنهم يندمجون ـ بجانب ـ في جماعة المسلمين ويتمون تقدم الإسلام ويضطربون ألماً لسوء حالة الاسلام والمسلمين ثم هم ـ بجانب آخر ـ يقولون ويفعلون في مخالفة الإسلام كل ما قد يقوله ويفعله غير المسلم . إنهم لا يحجمون حتى عن القدح في القرآن فضلاً عن تنقصهم للحديث أو الفقه ، ويضربون بمعولهم جميع الأسس التي يقوم عليها بنيان الإسلام . إنهم يدعون أنهم أصحاب المذهب العقلي (Rationalists) ويقولون أنهم لم يكونوا ليقبلوا أمراً ينافي العقل ويخالف المنطق ، وأكبر اعتراضهم على رجال الدين أن القوم لا يستعملون عقولهم ، ولكن من شأنهم أنفسهم أنهم يقولون في أمر الدين أقوالاً ظاهرة التناقض ويختارون لعملهم وسلوكهم مذاهب متعارضة متضادة حتى يأتي قولهم اللاحق في حديثهم ناقضاً لقولهم السابق . ولا يدري المرء أي نوع هذا من المذاهب العقلية ، يرجع إلى هؤلاء المحققين المستنيرين فضل إيجاده .

وتعالَ الآن ننظر إلى سعة معلومات صاحبنا الفاضل وعمق تفكيره .

إن صاحبنا يستلزم لرقي الإسلام أن ترفع قيود الشريعة عن هذا الدين أيضاً كما رفعت عن النصرانية ، فيبقى الإسلام

في صورة عقيدة فحسب . وذلك أن الذي قد انتبه له هذا الفاضل من سر رقي الدين المسيحي هو أنه لا توجد فيه قيود الحلال والحرام ولا هناك ضوابط أخلاقية ، ولم يسلب الإنسان فيه حقوقه الإنسانية ولا ترك جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور ، بل قد سمح له فيه بأن يفعل ما يشاء بعد أن يؤمن بالمسيح . ولكن صاحبنا لم يدرك أن الذي يقال له الإسلام هو الذي تضمه دفتا القرآن . وقد جعل القرآن الإسلام مجموعة الإيمان والعمل الصالح . ثم قد وضع القيود للعمل الصالح وسن القوانين وقرر نظاماً عملياً كاملاً للحياة الفردية والجماعية ، لا يمكن أن يقوم الإسلام بدونه كدين وحضارة . وليس بيد مسلم أن ينسخ ذلك النظام ويمحو حدوده ، لأن نسخ ذلك نسخ للقرآن ، ونسخ القرآن هو نسخ الاسلام . وإذا أريد نسخ الإسلام فأي معنى هناك للعناية برقيه وتقدمه ؟ إن المرء لا شك حر في أن يبتدع ديناً جديداً ويعمل على نشره وترويجه . ولكن كيف يكون له أن يدعو الأمر الذي هو مخالف للقرآن باسم الإسلام ويجعل رقيه رقي الإسلام ! .

إن صاحبنا يطلق اسم الإسلام على مجرد العقيدة القائلة بأننا مسؤولون عن أعمالنا في الحياة الاخرى أو في هذه الحياة . ولعله قد فعل هذا رجاء أنه إن حصر الإسلام في هذه الحدود الضيقة أصبح سهلاً ويسيراً وأمكنه الانتشار في الأرض . ولكنه لو تأمل مضامين هذه العقيدة لعلم أن الإسلام

بعد أن ينحصر في هذه الحدود لا يمكن أن يتفق مع هواه . وذلك أنه لكي تقام هذه العقيدة المجردة مقام الدين بكامله يجب أولاً أن يؤمن المرء بالحياة الأخرى . ويأتي بعد ذلك مفهوم المسؤولية فيتقاضى أموراً ثلاثة : أولها أن يعين الوجود الذي سيكون الإنسان مسؤولاً أمامه ، ويذعن بكونه فوق الإنسان . والثاني أن تحدد نوعية المسؤولية ويفرق بين أعمال الحياة من حيث أن كذا وكذا من الأعمال ستفضي إلى النجاح في تلك المسؤولية وكذا وكذا ستفضي إلى الخيبة فيها . والثالث الأخير أنه يجب أن تعين النتائج المختلفة للخيبة والنجاح في تلك المسؤولية ، لأنه إن كانت نتيجة الخيبة فيها كمثل نتيجة الفوز والنجاح أو لم تكن لأيهما نتيجة أبداً فلا يبقى هناك معنى لنظام المسؤولية . هذه لوازم منطقية لتلك العقيدة حسبما يقترحه فلا شك أنه ستعترض صاحبنا تلك المشكلة التي أراد أن يهرب منها . إذ سيكون من اللازم إذن أن يؤمن المرء بالله ، مما يرى صاحبنا الأمة اليابانية تصعد بدونه في سلم الرقي . وستكون هناك أغلال الشرع وقيود الاخلاق التي يريد صاحبنا أن تحطم ، والتي يكمن فيها السر الحقيقي لعدم ارتقاء الإسلام . وستكون تلكم السلسلة البغيضة من العذاب والثواب . وإذا ما رأى صاحبنا مرة أخرى خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الإيمان بهذه العقيدة فإن قلبه سيأبى أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون حصب جهنم بعد مدة من الزمان .

لأجل ذلك نرجو من صاحبنا الآن أن يتفضل ويطلق اسم الإسلام على شيء لا يكون فيه قيد ولا منع ولا تكون نتيجة الإيمان به وعدم الإيمان مختلفة . والذي تكفي فيه عمارة أرض الله للفوز في الدنيا والآخرة ، والذي إذا رأى صاحبنا خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الإيمان به فيستطيع قلبه أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون بلابل الجنة في اليوم الآخر .

إن كون لحم الخنزير حراماً قطعياً بموجب القرآن ليس من مسلمات الأمور عند صاحبنا . فهو يزعم ان لحم الخنزير حرم على العرب لأمر مخصوص . ولكنه لو فتح المصحف ، قبل أن يبوح برأيه هذا لقرأ فيه : ﴿ قُل لا أَجِدُ فيما أوحِيَ إليَّ مُحرَّماً على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أن يكونَ مَيْتةً أو دَماً مسفوحاً أو لحمَ خِنزيرٍ فإنه رِجْسٌ ، أو فِسْقاً أُهِلّ لغيرِ الله به . فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم ﴾[1] . ففي هذه الآية قد حرم لحم الخنزير على كل طاعم وبين من علة هذا التحريم أنه « رجس » . أفيراد من كلمة الطاعم هذا الطاعم العربي وحده ؟ وهل يكون الشيء الواحد رجساً للعرب وطيباً لغير العرب ؟ وهل يحب صاحبنا أن يرخص الأمر لآكلي الميتة أيضاً بعض الترخيص . ولئن أراد الفاضل أن يسامح بعض الأمم في أكل لحم الخنزير فليفعله من عند

---

(١) النحل : ١١٥ .

نفسه . ولكن من جعل له أن يقول بخلاف النصوص القرآنية أن تحريمه القطعي أمر غير ثابت في القرآن .

من طرائق الاجتهاد التي قد ابتكرها المجتهدون الجدد في هذا العصر أنهم يقولون في كل حكم إسلامي يريدون الخروج عليه أنه نزل خاصة للعرب ، وإن لم تكن في القرآن ولو إشارة خفيفة إلى هذا التخصيص ، ولم يكن عندهم من حجة عقلية أو نقلية على ذلك . وإن استمرت الحال على هذا النحو فلعل القوم يعودون يوماً فيجعلون القرآن كله نزل خاصة للعرب .

أما استدلال صاحب السياحة من الآية : ﴿ فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عاد ﴾ فهو يبلغ من الطرافة أن لا يتمالك المرء من الإعجاب به والتصفيق له . فلعله فهم من هذه الآية أنه إذا قرمت أنفسكم إلى لحم الخنزير فكلوه ولكن بشرط أن لا تبغوا أكله على الدوام وأن لا تتخذوا أكله عادة فيكم ، إذ أنه لا يتسخرج من هذه الآية مجال الرخصة والمساهمة لأهل أوربا والصين في أمر لحم الخنزير إلا من لم يكن يعلم معنى الاضطرار ولا كان يفهم المراد من كلمتي الباغي والعادي في هذا المقام . ومن المحال جداً الذي علم أن يتجاسر على مثل هذا الاستنباط . إنه ليس من مفهوم الآية أنه يدخل في حكم (من اضطر) كل من استمرؤوا أكل الميتة والدم المسفوح أو استطابوا لحم الخنزير وتهالكوا عليه ، أو كانوا يأكلون ﴿ ما أُهِلَّ به لغير الله ﴾ عادة . ولو كان الأمر كذلك

لبطل حكم التحريم . فإن تحريم تلك الأشياء لو أنه مقصود للذين يعتادون أكلها لبقوا يأكلونها حسب عادتهم متمتعين بهذا الاستثناء الوارد في الآية . ولو أنه مقصود للذين كانوا يجتنبون هذه الأشياء بأنفسهم من قبل ، لما كانت لهذا الحكم ضرورة أصلاً أما ما ورد في الآية من الاستثناء المشروط بـ ﴿ غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ مع الاضطرار ، فالمقصود به في الحقيقة هو أنه من كان يوشك أن يموت جوعاً ولم يجد ما يأكله غير حرام ، فيجوز له أن يأكل من ذاك الحرام لمجرد حفظ وجوده ، بشرط أن لا يتجاوز حد الرخصة أي لا يتناول منه أكثر مما هو لازم لسد الرمق . ولا تكون في نفسه نزعة إلى البغي على حدود الله . وقد ذكر هذا في موضع آخر عند بيان تحريم الخنزير والميتة بالكلمات الآتية : ﴿ فمن اضُطرَّ في مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثم ﴾ أي إذا اضطر أحد إلى تناول شيء من هذه المحرمات في حال اشتداد الجوع بدون أن يكون في نفسه ميل إلى الإثم ، فيجوز له أن يأخذ منها قدر الضرورة . فأين هذا من اقتراح صاحبنا أنه لما كان أهل اوربا والصين مغرمين بلحم الخنزير ، فيجب أن يباح لهم ذلك انتفاعاً باستثناء (فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ ، وكل ذلك لكي يسهل لهم الدخول في الإسلام . وإن نحن سرنا هكذا في عمل الترخيص والتسهيل في أحكام الإسلام مراعاة لرغائب كل أمة وشهواتها ، اضطررنا إلى إباحة كل من الخمر والقمار والزنا والربا وما إلى ذلك واحداً بعد الآخر . إن السؤال أن الذين

لا يريدون أن يتبعوا أحكام الله ويلتزموا حدوده ويحرموا حرامه فأي حاجة إلى إدخالهم في الإسلام؟ ومتى كان الإسلام مفتقراً إليهم حتى يساومهم على ذلك بالنقص والخفض من أحكامه .

إن صاحبنا لم يتفطن باديء ذي بدء إلى تحريم الخنزير . فلما أعمل فكره في ذلك بعدُ تبين له أن هناك بوناً شاسعاً بين معدة المرء وحوافز الأخلاق . فاستنتج من ذلك أنه لا حق للدين بأن يفرق بين المأكولات والمشروبات من حيث الحلة والحرمة . وافتضح من رأيه هذا أن مبلغ معرفته بعلم الحيوان ليس بأحسن من معرفته بالقرآن . أما الجهل بالقرآن فليس بشيء يخجل له « رجل مثقف متنور » ولكن كل هذا الجهل بالعلوم التجريبية العصرية (Science) من الخزي والعار حقاً . إن صاحبنا لم يعرف بعد : ما العلاقة بين النفس الإنسانية وتركيبه الجسدي ، وما العلاقة بين تركيبه الجسدي والغذاء الذي يأكله ، ولم يدرك أن الشيء الذي يعيد إلى الجسم الإنساني كل ما ضاع من أجزائه التركيبية ويكون فيه جميع الأعصاب والعروق ، ويبدل جسمه القديم جسماً جديداً بكامله ، ليس عجيباً أن يكون لخواصه تأثير في النفس والروح بل العجيب أن لا يكون لها أي تأثير . وقد كانت دنيا العلم غافلة عن هذه الحقيقية غالباً فيما سبق ولكن التحقيق الذي تم أخيراً في فن التغذية (Dietetice) قد انكشف منه أن غذاء الإنسان يترتب أثره حتماً ولازماً على

اخلاقه ومداركه الذهنية . فلا يزال العلماء المعاصرون يبحثون في أنه ما هي الآثار التي تترتب على نفوسنا ومداركنا الفكرية لمختلف ألوان غذائنا . ويبدو أن معلومات صاحبنا الحائز لدرجة البكالوريوس ليست متمشية مع العصر (Up to date) وإلا لم يدع بكل هذه الجرأة أن هناك من حيث المبدأ والأصل بوناً بعيداً بين المعدة وحوافز الأخلاق .

الفصل التاسع

خداع المذهب العقلي أيضًا

إن المذهب العقلي أيضا (Rationalism) والمذهب المادي الطبيعي (Naturalism) هما الأمران اللذان لا تزال الحضارة الغربية تقوم بدعايتها لهما وإعلانهما بكل قوة وحماس منذ القرنين الماضيين . إن قوة هذا الإعلان وشدته أمر لا يشك فيه أحد . وأنى يمكن للمرء أن يجنب قلبه وذهنه التأثر بشيء يعرض أمام عينيه مرة بعد أخرى ويكرر على سمعه بصفة مستمرة . وإذن قد خضعت الدنيا لتأثير هذا الإعلان فاعترفت بأن العلوم الغربية والمدنية الغربية تقومان على أساس المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي فحسب . والحال ان دراسة نقدية لحضارة الغرب توضح جلياً ان أساسها ليس النزعة العقلية ولا مراعاة نواميس الطبيعية ، بل يقوم هيكلها كله على الحس والرغبة والاحتياج . وان النهضة العلمية الجديدة لم تعدُ في الحقيقة ان تكون ثورة على العقل والطبيعة فإنها قد هجرت المعقولات الى ما يدخل تحت المادة والحس وجاءت تعتمد على الحس بدل العقل ،

وألغت التوجيه العقلي والاستباط المنطقي والوجدان الطبيعي ، وقررت ـ بدل ذلك ـ النتائج المادية المحسوسة هي المقياس الحقيقي الصحيح لتقييم الأشياء ، وألغت إلهام الطبيعة وإرشادها لتتخذ الرغبة والحاجة هي الهادية في شؤون الحياة وجعلت كل شيء لا يمكن أن يوزن أو يذرع وهماً لا حقيقة له ، وكل ما لا يترتب عليه نفع مادي محسوس أمراً هيناً لا يحفل به وكانت هذه الحقيقة خافية على أهل الغرب أنفسهم في مبتدأ الأمر ، فما زالوا يزعمون على رغم مخالفتهم للعقل والطبيعة في سلوكهم العملي ، أن « الاستنارة الفكرية » التي قد افتتح القوم عهدها الجديد ترجع في أصلها وأساسها إلى المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي . وبرح الخفاء بعد ذلك وافتضحت الحقيقة الواقعة ولكنه لم يجتريء أحد على الاعتراف بها ، وبقي القوم يخفون ـ بكل نفاق ـ كل ما هم عليه من تقديس المادة واتباع الأهواء والتعبد لمطالب النفس والجسد تحت ستار الاستدلال العقلي وادعاء المذهب الطبيعي . ولكن قد تسللت الهرة الآن من الحقيبة ـ كما يقول المثل الانكليزي ـ وبلغ من مخالفة القوم للمعقول ومعارضتهم للنواميس الطبيعية أن لا يمكن أن يغطيها ستار ، فجاؤوا لذلك يعلنون بثورتهم على العقل والطبيعة كل الإعلان . وقد وقعت هذه الثورة في كل ناحية من نواحي الحياة ، من بيئة العلم والفلسفة الى ما دونها من أوساط الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ويعترف جميع القادة

والزعماء لهذا العالم الجديد ـ اللهم إلا نفر من المنافقين « النازعين إلى القديم » منهم ـ بأن الغلبة والسيطرة على حضارتهم هي للرغبة والحاجة فحسب .

وأما المستغربون المتفرنجون من أهل الشرق فيتخلفون عن أئمتهم بعد بخطوات . وإنه لما تقتضيه التربية والتعليم والبيئة الفكرية والعوامل الحضارية والمدنية التي تمت تحت ظلالها نشأتهم العقلية أن ينشأ في هؤلاء أيضاً ذلك التقديس لكل ما هو مادي محسوس وتلك العبودية للرغبات والحاجات . وقد نشأ فيهم كل ذلك بالفعل . ولكن القوم لم يبلغوا من ذلك بعد حيث تتسلل الهرة من الحقيبة . إنهم لا شك يظلون يقولون في خطبهم وكتاباتهم إنهم لا يخضعون إلا لهداية العقل والطبيعة فيجب أن لا يعرض عليهم إلا الاستدلال العقلي المحض ، وإنهم لن يذعنوا لشيء لا يثبت بالأدلة العقلية والشواهد الطبيعية . ولكنه تخفى في داخل هذا الوعاء الظاهر من الدعوى والإعلان تلك الهرة التي لا علاقة لها بالعقل او بالطبيعة . فإن أنت حللت مقالاتهم تبين لك أن عقولهم تعجز عن إدراك المعقولات ومشاهدات الوجدان الطبيعي ، وإن الذي يدعوه هؤلاء « الفائدة العقلية » إن استقصيت حقيقته علمت أن المراد به هو « الفائدة التجريبية » . و« الفائدة التجريبية » هي ما يكون له جرم ووزن ، وما يمكن أن يعد أو يقاس . فكل مالا يمكن أن تبين لهم منفعته بصورة الأعداد الإحصائية أو بالوزن في كفة

الميزان أو بالقياس بالذراع ، لم يكن هؤلاء ليعتبروه نافعاً ومفيداً . وما دام الأمر لا تثبت لهم منفعته على هذا الوجه المخصوص فإن اتباعه عند القوم أمر يعبرون عنه بـ « الطريقة اللامنطقية » . وأما إلهام الطبيعة الذي هم يدعون اتباعه فتفتضح حقيقته أيضاً بقليل من النقد والتحليل . وذلك أنه ليس المراد بالطبيعة عندهم هو الطبع الإنساني ، بل المراد هو الطبع الحيواني الذي يخلو من الوجدان وشهادة القلب المدرك ولا يشتمل إلا على الحس والرغبة ومطالب النفس والجسد . فالمعتبر المعتد به عندهم هو مجرد الاشياء التي يمكن أن تؤثر في الحواس وترضي الرغبات وتفي بمطالب النفس أو الجسد والتي تقع منفعتها تحت مشاهدتهم على الفور ، وتغيب مضرتها عن الأنظار أو تبدو في رأيهم أقل وأهون من جانب المنفعة . وأما الأشياء التي هي من مقتضيات الطبع الإنساني والتي يحس بأهميتها المرء في وجدانه ، والتي ليست منافعها أو مضارها حسية مادية بل هي روحانية معنوية ، فهي كلها أوهام وخرافات وأمور هينة لا يكترث لها ، ومن الرجعية والتوهم والإظلام الفكري أن يهتم بها المرء في شيء بل أن يقر حتى بوجودها . فبجانب كل هذا الانحراف عن العقل والطبع ، وبجانب آخر ذاك الادعاء لمراعاة مقتضيات العقل والطبيعة . ويبلغ من افلاس العقل نفسه أنه لا يحس ابداً بهذا الجمع بين النقيضين الصريحين !

إن أقل ما ينبغي أن ينال المرء من فائدة التعليم والتهذيب

الفكري أن لا يبقى في أفكاره تشابك ، ولا في آرائه اضطراب وتنافر ، بل يتسنى له أن يختار أسلوباً واضحاً قويماً للفكر والرأي ، يرتب المقدمات على الوجه السديد فيستخلص منها النتائج الصحيحة ، ويسلم من الوقوع في الأخطاء الواضحة كالجمع بين النقيضين وخلط مواضيع البحث ، ولكننا نجد عامة أصحابنا المثقفين ـ اللهم إلا من رحم بك ـ محرومين من هذه الثمرة الباكورة للتربية العقلية فهم لا يكونون من الحصانة والرشد بحيث يحددون موقفهم الصحيح قبل أن يبدأوا البحث في مسألة فلسفية ، ويفهمون بعد ذلك مقتضيات هذا الموقف ويراعونها فيما يختارون من خطة للمناقشة والاستدلال حتى تأتي متضامنة مع موقفهم ذلك . وأنت إن تتكلم معهم أو تقرأ ما يكتبون تشعر لأول وهلة أن افكارهم فيها كثير من المعاضلة والتعقيد ، وأن الرجل منهم يبتديء البحث في مسألة ما من موقف بعينه ، فإذا خطا في البحث خطوات حول موقفه الأول إلى موقف ثان مختلف ، وبعد خطوات مزيدة في البحث اتخذ موقفاً ثالثا جديداً . إنهم لم يتعلموا حتى الآن كيف تنتخب المقدمات بروية وتدبر لإثبات الدعوى ، وكيف ترتب على الأسلوب المنطقي . فالقاريء لكتاباتهم أو السامع لكلامهم لا يدري من أول حديثهم إلى آخره ماذا أراد الباحث الفاضل في الحقيقة وما هي المسألة التي كان يقصد بحثها وما الذي أثبته وبرهنه . والسبب لهذا كله أن اتجاه الحضارة الجديدة وما

يتبعه من اتجاه التعليم العصري هو في الأغلب إلى الشؤون المادية والحسية . إن هذا التعليم لا شك يثير الرغبات في النفوس ويقوي إحساسها بالمطالب والضرورات ويؤكد أهمية المحسوسات في القلوب ، ولكنه لا يربي العقل والذهن ولا يشحذ مقدرة النقد والتمييز . ويغفل كل الأغفال عن تهذيب النفس وتنوير الأفكار . وهو فوق كل ذلك يخل بالتوازن العقلي في المرء بما يبعث فيه من الميل المتطرف الى الماديات . فالذين يخرجون من الجامعات متحلين بهذا التعليم فلا ريب يغلبهم الزعم بكونهم عقليين ومفكرين ، وهذا الزعم هو الذي يجعلهم ينقدون كل شيء نقداً عقلياً ويجحدون بكل ما لا يسوغ منه في عقلهم ، ولكن ذهنهم يكون في الحقيقة منحرفاً عن مقتضى العقل ولا تكون فيهم الأهلية المطلوبة لتصفية مسألة ما على الطريق العقلي الصحيح ، أو تكوين رأي سديد في أمر من الأمور .

وتظهر هذه « النزعة العقلية » غير المنطقية أكثر ما تظهر في المسائل التي تتعلق بالدين ، لأنها هي المسائل التي تصطدم مبادئها الروحية والخلقية والاجتماعية والعمرانية بنظريات الغرب في كل نقطة وفي كل مكان !

تكلم مع رجل مثقف بالثقافة الانكليزية في مسألة دينية ، واجعله على سبيل الامتحان لذهنيته ـ يعترف قبل كل شيء بأنه مسلم . ثم اعرض عليه حكماً شرعياً مدعماً بسند ، تجده يهز كتفيه ويقول كمنطقي مؤمن بالعقل : هذا من

خرافات رجال الدين ، ائتوني بحجة عقلية على الأمر ، وإن لم يكن عندكم تلك الحجة وكان كل ما بيدكم مقصوراً على المنقول ، فاعفوني من الاتفاق معكم في الأمر . وهذه الجملة أو الجملتان من كلام الرجل تفضح السر في أن الرجل لم يتشمم رائحة المذهب العقلي ، ولم يعرف المسكين حتى بعد التعليم والتربية العلمية المستمرة على السنوات الطوال أنه ما هي المقتضيات العقلية لطلب الحجة وماذا تكون المنزلة الصحيحة لطالب الحجة والبرهان . إن المرء يمكن أن يقف تجاه الإسلام موقفين اثنين لا غير : أحدهما أن يكون مسلماً والآخر أن يكون كافراً . وإن يكن مسلماً فمعنى إسلامه أنه قد آمن بالله هو الإله المعبود وأن محمداً ﷺ رسول من عنده ، وقد أقر بأن كل ما بلغه الرسول عن ربه سيتبعه بدون سؤال أو نقاش . فلم يبق له إذن أن يطلب الحجة العقلية في كل واحد من الأحكام الشرعية على حدة وليس له من حيث هو مسلم إلا أن يحقق في حكم بعينه هل أمر به الرسول أم لم يأمر . ومتى أثبت بالحجة النقلية إنه قد أمر به الرسول فليس له إلا أن يخضع له ويتبعه . إنه يجوز له أن يطلب برهاناً عقلياً للحكم لطمأنينة قلبه وزيادة بصيرته فيها ، ولكن بعد أن يطاطيء رأسه لاتباع ذلك الحكم ، أما اشتراط الحجة العقلية للإطاعة ، ورفض الإطاعة إذا لم تتهيأ تلك الحجة أو لم تطمئن إليها النفس فمعناه أنه يجحد بحاكمية الرسول وسلطته ، وهذا الجحود يستلزم الكفر ، والحال أنه اعتراف بكونه مسلماً عند ابتداء البحث . فالآن إذا

اختار لنفسه موقف الكافر فموضعه الصحيح ليس داخل دائرة الإسلام بل خارجها . ويجب أن يكون ـ قبل كل شيء ـ من الشجاعة الأخلاقية بحيث يخرج من دائرة الدين الذي لا يؤمن به في حقيقة الأمر . فإذا فعل اعتبر حقيقاً بأن يطلب الحجة العقلية وبأن يجاب إلى طلبه .

هذه القاعدة من مقتضيات العقل السليم ولا يقوم بدونها تنظيم أو ضابطة في هذه الدنيا . ولا يمكن أن تقوم حكومة في الأرض ـ ولو لساعة ـ يطالب كل فرد من أفراد رعاياها بالحجة العقلية على حكمها ويرفض اتباعه بدون تلك الحجة . وكذلك لا يمكن أن يكون جيش ما جيشاً بمعنى الكلمة إذا سأل كل جندي منه عن السبب وراء أمر القائد ، وجعل اطمئنان قلبه شرطاً في اتباع كل ما يؤمر به ، ولا يمكن أن تقام مدرسة أو كلية أو نقابة وبالجملة أي نظام اجتماعي على مبدأ يحاول إقناع كل فرد من الأفراد على حدة ، ولا يطاع أمر من أموره ما لم يطمئن إليه كل واحد من أفراد ذلك النظام . وإنما الحق أن كل نظام يدخل فيه المرء يدخل بهذه المفروضة الأساسية البدائية أنه يعتقد بالسلطة العليا لذلك النظام اعتقاداً كلياً ويذعن لحاكميتها . لذلك ما دام المرء جزءاً من هذا النظام فإنما واجبه أن يطيع تلك السلطة العليا سواء اطمأنت نفسه إلى امر جزئي من اوامرها أم لم تطمئن . إن عصيان المرء لأمر من أوامر السلطة على سبيل الإجرام شيء مختلف ، ويمكن أن يبقى المرء داخلاً في نظام مع

عصيانه لبعض جزئياته . ولكنه إن جاء يتطلب اطمئنانه الذاتي ويشترطه لإطاعته في جزئية بعينها من تلك الجزئيات مهما صغرت ، فإنه قد أبى - في الحق - الإقرار بحكم السلطة العليا . وهذا إن ارتكبه رجل في نظام حكومة حاكمته السلطة باتهام الغدر ، وإن ارتكبه في جندية سيق إلى محكمة القضاء العرفي ، وإن فعل ذلك في مدرسة أو كلية اتخذ الإجراء لطرده منها ، وإن اقترفه في دين حكم عليه بالكفر . وذلك بأن مثل هذه المطالبة بالحجة العقلية لا يسمح بها لأي فرد في داخل أي نظام من النظم . وليس المقام الصحيح لمثل هذا الطالب للحجة داخل ذاك النظام أم خارجه . فعليه أن يخرج من دائرته أولاً ثم يعترض عليه كما يشاء .

هذه القاعدة هي الأصل والأساس في تنظيم الإسلام . فإن الإسلام لا يصدر الأحكام قبل كل شيء ، بل هو يدعو الإنسان الى الإيمان بالله والرسول ، ويركز على هذا كل ما هناك من الأدلة والحجج . فهو يعنى بأن يقنع الإنسان بكل حجة عقلية وكل شهادة من شهادات الفطرة الإنسانية بأن الله الواحد هو إلهه . وأن محمداً ﷺ رسول من عنده . فكل ما شئت من البحث والتدقيق العقلي فلك أن تعالجه في هذه المسألة الجوهرية ، ولئن لم تطمئن نفسك إلى الإسلام بأية حجة أو دليل ، فلن يكرهك أحد على الدخول فيه ولا يجري عليك حكم من أحكام الإسلام . ولكنك متى اخترت لنفسك هذا الدين بعد ذلك . البحث والامتحان . كنت في

منزلة « المسلم ». ومعنى « المسلم » هو المطيع الخاضع. ولم يكن من اللازم إذن أن تعرض عليك الحجة والبرهان لكل امر من أوامر الإسلام وتكون إطاعتك لتلك الأوامر موقوفة على طمأنينتك القلبية. وإنما كان واجبك الأول بعد أن اصبحت مسلماً ان تطأطيء رأسك لاتباع كل ما يبلغك من أوامر الله ورسوله. ﴿ إنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾[1]. إن الإيمان وطلب الحجة العقلية كشرط في الإطاعة والإذعان أمران متناقضان لا يسوغ العقل السليم اجتماعهما أبداً. فالذي هو مؤمن هو طالب للحجة العقلية على هذا النحو، فلا يمكن أن يكون مؤمناً ﴿ وما كانَ لِمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قضى اللّهُ ورسوله أَمراً أن يكونَ لهمُ الخيَرة مِنْ امرهِم ﴾[2].

إن العمل الجبار الذي قد قام به الإسلام في محيط الإصلاح والتنظيم يرجع الفضل فيه كله إلى هذه القاعدة المتينة. فالذي نهى عنه الدين بعد تثبيت الإيمان في القلوب، انتهى عنه جميع المؤمنين. والذي أمرهم به جرى العمل عليه بإشارة واحدة في ملايين من بني آدم ولو أنه وجب تقديم الحجج العقلية لكل أمر من أمور الدين وتوقفت إطاعة الأوامر على تبين المنافع والمصالح لكل أمر ونهي، لما

(١) النور: ٥١.
(٢) الاحزاب: ٣٦.

أمكن أن يتحقق إلى يوم القيامة ذاك الإصلاح لأخلاق الإنسان وذلك التنظيم لأعماله الذي تم على يد النبي ﷺ في مدة قليلة لا تربو على **٢٣** عاماً .

على أنه ليس المراد بذلك أن أحكام الإسلام مخالفة للعقل أو أن حكماً مهما صغر من أحكامه الجزئية يخلو من حكمة أو مصلحة ، وكذلك لا يعني ذلك أن الإسلام يطلب من متبعيه تقليداً أعمى ويمنعهم من البحث عن الأسس العقلية والفطرية لأحكامه ومن تفهم مصالحها وحكمها . بل الحقيقة هي على عكس ذلك . والتدبر والتفكير لازم لاتباع الإسلام على الوجه الصحيح المرضي ؛ لأن الإنسان كلما أدرك حكمة الأحكام ومصالحها أكثر ، كان اتباعه لها أصح وأكمل . ومثل هذا التفهم والتبصر لا يصد عنه الإسلام بل هو يشجع عليه . ولكنه شتان ما بين التحقيق العقلي الذي يتبع الإطاعة ، والامتحان العقلي الذي يتقدم الإطاعة ويكون شرطاً مشترطاً فيه . فالمسلم يطيع قبل كل شيء إطاعة غير مشترطة ثم يجتهد لإدراك مصالح الأحكام . وليس من الضروري أن يحيط فهمه بمصلحة كل حكم ، وإنما قد حصل له في الحقيقة اطمئنان تام إلى ألوهية الله ورسالة الرسول . وهو يريد مزيداً من الطمأنينة في الجزئيات متوخياً للبصيرة الكاملة . وإن حصلت له هذه الطمأنينة شكر الله ، وإن لم تحصل له ، ظل يطيع الأحكام في بابها بلا حرج في النفس بفضل ذلك الاطمئنان الحاصل له بالله والرسول . فأين

هذا الطلب للحجة العقلية من ذاك الطلب الذي يقدمه المرء عند كل خطوة ، ويقدمه مع الإيذان بإنه إن اقتنع بتلك الحجة سيقبل على الإطاعة وإلا سيرجع على أعقابه .

وقد صادفنا أخيراً عبارة قد نشرتها جماعة مسلمة تشتمل على المثقفين بالثقافة الجديدة العليا من المسلمين . وليست معرضة عن الدين ، بل هي ـ عند نفسها ـ تقوم بخدمة دينية جليلة . فمن الأمور التي تقوم بنشرها وتبليغها باسم « الإصلاح الديني » أنها تمنع المسلمين من التضحية أيام عيد الأضحى من كل سنة ، وتقترح عليهم أن الأموال التي يهلكونها في ذبح الأنعام يجب أن ينفقوها لإعانة الهيئات والمؤسسات الاقتصادية وتربية الأيامي والأيتام وتهيئة المعاش لذوي البطالة . وقد اعترض على هذا التبليغ رجل من المسلمين لم يبلغنا مقاله كاملاً ، فالذي قيل جواباً عليه في هذه المسألة هو ما يأتي :

« إنه ما عدا اللجوء إلى النقل والتقليد لم نر أحداً يلقي لنا الضوء على المصالح العقلية والتجريبية من وراء عمل التضحية هذا . . . . ولئن أطلعنا فاضل قبل هذا كله على الناحية العقلية مما يعتقد من وجوب التضحية لاستحق منا الشكر والامتنان ! »

هذه العبارة مثال لذهنية الرجال الذين يدعون أنفسهم « متعلمين مثقفين » فبجانب ذاك الادعاء الشديد للمذهب

العقلي ، وبجانب آخر هذا الإظهار السافر لمخالفة مقتضى « العقل » فهاتان الجملتان الاثنتان اللتان قد خرجتا من قلم الباحث الفاضل تشهدان بأنه لم يحدد موقفه الصحيح قبل الكلام ، فإن كان يتكلم من حيث هو مسلم ، فواجبه أن يخضع أمام « المنقول » قبل كل شيء ، ويكون له بعد ذلك أن يطلب الحجة العقلية بعد أن يطاطيء رأسه ، للاطاعة أما إن كان ذلك منه شرطاً في إطاعته فليس له حق في أن يتكلم في موقف (المسلم) ، فمثل هذا الطالب للحجة العقلية يجب أن يتخذ موقف غير المسلم أولا ثم له أن يعترض على ما يشاء من أحكام الإسلام ومسائله . ولكن لن يكون له عندئذ أن يلبس جلباب الإفتاء فيصدر فتواه في أمر من أمور المسلمين الدينية . أما صاحبنا الفاضل فيتخذ كلا من هذين الموقفين المتعارضين في آن واحد ، ولكنه لا يفي بالمقتضيات العقلية حتى لموقف واحد منها ، فبجانب لا يقوم الرجل مقام المسلم فحسب بل يتبوأ منصب المفتي الديني ، وشأنه بجانب آخر أنه يستخف « بالمنقول » . واذا أثبت له كون الحكم « حكما دينياً » بواسطة النقل فإنه يأبى أن يتبعه ويشترط لذلك أن يلقي الضوء على مصالح هذا الحكم العقلية والتجريبية قبل كل شيء . ومعناه أن الرجل لن يقبل حكماً ما لمجرد كونه حكم الله والرسول ، بل سيقبله نظراً إلى فوائده العقلية والتجريبية . ولئن لم تتبين له تلك الفوائد أو لم يرها الرجل « فوائد » بما عنده هو من المقياس ، فإنه لا

بد أن يرفضه وينادي بمخالفته ويجعله حكماً « نكداً » لا معنى له غير ملائم لروح العصر ، بل شيئاً مضراً وتقليداً إسرافياً ، ويبذل جهده كله لصد المسلمين عن اتباعه . ويا ليت شعري أي عقل هناك يستسيغ الخلط بين هاتين الخطتين المتناقضتين والموقفين المتعارضين ؟ ولو فرض أن مطالبة صاحبنا بالحجة العقلية أمر جائز صحيح ألا يجب قبل ذلك أن يبرهن أن صاحبنا من ذوي « العقول » ؟

إن الفائدة « العقلية » و « التجريبية » ليس المراد بها في الحقيقة شيء معين معلوم ، بل هي شيء نسبي إضافي . وذلك أن عقل رجل من الرجال يعتبر شيئاً ما نافعاً ومفيداً وعقل الرجل الآخر يحكم على نفس الشيء حكماً بخلافه ، ويأتي الثالث فيقر بنوع من المنفعة في ذلك الشيء ولكنه لا يعيره اهتمامه بل يظن شيئاً آخر أكثر منفعة منه . ومجال الاختلاف أوسع في دائرة الفوائد التجريبية . فإن « الفائدة » أمر تختلف فيه نظرية كل امريء عن الآخر . وبناء على هذه النظرية يرتب المرء تجاربه الذاتية أو تجارب الغير فيحكم عليها بأنها مفيدة أو غير مفيدة . ثم هناك رجل يطلب النفع العاجل ويظن المضرة العاجلة شيئاً واجب الحذر فلا بد أن يكون اختياره مختلفاً عن اختيار الذي ينظر إلى عواقب الأمور . وثمة كثير من الأشياء فيها نوع من المنفعة ونوع آخر من المضرة ، فيختارها رجل لأنه يرضى قبول المضرة لأجل الفائدة المرجوة منها على جانب آخر ، ويجتنبها ثان لأنه يرى

أن مضرتها أكثر من منفعتها . ثم يوجد هناك كثير من التعارض بين الفوائد العقلية والتجريبية فمن الأشياء ما هو مضر من ناحية التجربة ، ولكن العقل يحكم بأنه ينبغي أن تحتمل مضرته لأجل ما فيه من فائدة عقلية كبرى . كما أن هناك من الاشياء ما هو مفيد من الناحية التجريبية ولكن العقل يفتي بأنه يجب اجتنابه لتفادي ما فيه من مضرة عقلية . وما دام كل هذا التعارض بين أحكام التجربة وأحكام العقل ، فليس من الممكن أن يلقى الضوء على الفوائد العقلية والتجريبية لشيء ما على نحو يجعل جميع الناس يتفقون على كونه مفيداً ولا يبقى مجال الانكار لدى أحد . ولا يقف الأمر على التضحية وحدها ، فأي عمل من الأعمال الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة وسائر الأوامر والنواهي الشرعية هو الذي قد ألقي الضوء على فوائده العقلية والتجريبية بحيث يكون الناس قد عادوا يرونها لامعة كالشمس المشرقة ، ويكونون بأجمعهم قد اعترفوا بها وجروا على التزامها . ولو كان الأمر كذلك لما بقي على وجه الأرض اليوم تارك للصوم والصلاة ولا منكر لأحكام الحج والزكاة . وهذا هو السبب في أنه لم يقف الإسلام أحكامه على فتوى العقل والتجربة لدى كل فرد ، بل وضع أساسها على الإطاعة والإيمان . فالمسلم لا يؤمن بالفوائد العقلية والتجريبية بل هو يؤمن بالله والرسول . وليس مذهبه أن يقبل شيئاً بعد أن تثبت له فائدته من ناحية التجربة والعقل وأن يجتنب شيئاً بعد ما تبرهن له

مضرته على محك العقل والتجربة ، بل مذهبه أن كل حكم يثبت من عند الله والرسول هو واجب الاتباع وكل حكم لا يثبت على هذا النحو لا يتبع !

فالسؤال الجوهري في هذا الوضع كله هو أنه هل آمنت بالعقل والتجربة أم بالله والرسول ؟ فإن كانت الأولى فلا علاقة لك بالإسلام ، ومن جعل لك أن تتكلم كالمسلم وتشير على المسلمين باجتناب « تقليد » من تقاليد الأرض غير ذات الزرع يدعى سنة ؟ وإن كانت الأخرى فلا يجب أن تكون موضوع البحث الفوائد العقلية والتجريبية بل ينبغي أن يبحث ويرى : هل التضحية مجرد تقليد قد ابتدعها المسلمون أو هي عبادة قد رضيها الله لعباده وأجراها الرسول في أمته ؟ !

الفصل العاشر

تهافت مذهب التجدد

قد تناول الاستاذ (ن) مجلتنا الشهرية « ترجمان القرآن » بنقد تفصيلي في عدد يونيو من مجلته المعروفة ، فنشكر له هذا الصنيع . ومع أنه ليس من المعمول به عامة أن يناقش النقد الذي يظهر في الجرائد والمجلات ويعقب عليه بمثله ، ولكن الناقد الفاضل لما كان قد أبدى في نقده هذا أفكاراً وآراء تتصل بالمباديء والأصول المخصوصة لمذهب التجدد الذي هو يعرف به . ومن أهم مقاصد مجلة « ترجمان القرآن » إصلاحها وتصحيحها ، نرى من اللازم أن ننتهز أول فرصة سانحة لإبداء الرأي في موضوعها . يكتب الأستاذ (ن) :

« إن الغرض من إصدار هذه المجلة « أي مجلتنا ترجمان القرآن » ظاهر من اسمها ، وهو عرض مطالب القرآن وتعاليمه على الناس في صورتها الصحيحة المشرقة . ولا شك أن هذا الغرض مفيد ولا ينكر نفعه أحد . ولكن ـ كما أشار إليه رئيس

التحرير الفاضل نفسه - ليس يسهل تحقيقه في العصر الحاضر . وذلك أن العصور الماضية التي كان الدين فيها عبارة عن مجرد تقليد السلف واتباع القديم لم يكن يصعب على المرء فيها أن يتولى عمل المصلح والمبلغ ، ولكن الآن وقد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية بأسلوب مبتكر للعمل والتفكير فأسبغت على الأذهان نعمة حرية الفكر والرأي ، لا يمكن لدين من الأديان أن يحتفظ بوجوده الآن لمجرد أنه يدعو إلى عمل كان يسير عليه السلف ويعرض فكراً كان يفكر في مثله الماضون .

فبينما كان البحث يدور فيما مضى حول وحدانية الله فقد أصبح الآن حتى وجود الذات الإلهية محل نظر . وبينما كانت تثبت هداية النبي فيما مضى بما أتى من المعجزات ، فقد كادت « العلوم المغناطيسية » الآن تخرج آلافاً من الرسل والأنبياء بحجة إتيان تلك المعجزات . وكان الواعظ قبل هذا الزمان يجوز له أن يرفع نظره إلى السماء ويدعو إله العرش والكرسي ، ولكن اليوم وقد تحقق أن السماء ليست بشيء لم يكن عمله ذلك ليفيد اليقين . وموجز القول إن هذا العصر لم يعد عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة » . وليس من الهيّن في هذا الوضع الحرج أن يقوم رجل لمناصرة الدين وحمايته ، على حين أن فكرة الدين نفسه قد أضحت غير مقبولة » .

ويكتب بعد ذلك :

« إن القرآن الكريم ينقسم باعتبار معانيه إلى أقسام ثلاثة : فالأول يحتوي على تعليم الأخلاق ، والثاني هو الذي قد عرضت فيه العقائد ، والثالث هو المشتمل على القصص والتمثيل . أما القسم الأول فلا حاجة هناك إلى أن يكتب فيه المرء ويسوق الحجج والبراهين في بابه ، لأن التعليم الأخلاقي يكاد يكون سواء في جميع النحل والأديان ، ولا محيص عن الاعتراف بأن تعليم الدين الإسلامي في باب الأخلاق لا يختلف ولا يقصر عن تعليم الأديان الأخرى . أما القسمان : الثاني والثالث ، فيجب ولا شك أن يوليهما الباحث أكثر العناية ، لأنهما هما اللذان قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية تبعث الريبة والشك في أمرهما في نفوس الناس . والواقع أنه إن وفق رجل في إزالة كل هذه الشبهات من أذهان الجيل الحديث ، فإنه سيكون حقيقاً بأن يدعى مجدد هذه الامة » .

« لذلك من نصحنا لصاحب المجلة أن يجعل على صفحاتها باباً مستقلاً مختصاً بهذا الموضوع ، يستقصي فيه جميع الآيات القرآنية التي نزلت بخصوص العقائد والقصص ، ويعين معناها ومدلولها على الوجه الصائب المعقول ، ويدفع بذلك تلك الاعتراضات التي يوجهها الآن أهل العلم والتحقيق الجديد » .

ويكتب في ختام نقده :

« وإنا ندعو صاحب المجلة أن يبتديء ـ قبل كل شيء ـ

بالكلام عن حقيقة الوحي والإلهام لأنه على فهمها يقف فهم حقيقة كلام الله ، وبالكلام على مسألة المعاد لأنه على حلها يتوقف اختيار المرء للطريقة الدينية أو اللادينية . ونحن نحب أن نرى أي معنى يعنيه صاحبنا للكلام الإلهي والمعاد . وسنعرض بعد ذلك شبهاتنا واعتراضنا في الموضوع . وإن فازت جهود صاحبنا في إزالتها سررنا بالأمر جداً ، لأن شناعة « الإيمان التقليدي الاضطراري » التي قد وقع فيها كثير من الناس من أكبر أسبابها عقيدة المعاد أيضاً » .

هذه مقتبسات من مقال الناقد الفاضل . وإنا نترك المسائل الفرعية والجزئية التي قد ألم بها في نقده ونتناول بالبحث المسائل التي تتصل بالأصول .

إن صاحبنا قد قسم مباحث القرآن الكريم على أقسام ثلاثة . ولكنا نستطيع أن نقسمه على قسمين اثنين بيسر وسهولة . فالقسم الأول يحتوي على الأمور التي هي خارجة من حدود علمنا أو هي فوق إدراكنا والتي لا نستطيع أن نحكم بكونها صحيحاً أو خاطئاً بالجزم ، وإنما يدعونا القرآن إلى أن نؤمن بها على الغيب . والقسم الثاني يتضمن الأمور التي لا تخرج من دائرة علمنا ولذلك يمكننا أن نحكم في أمرها حكماً جازماً قطعياً . فيدخل في القسم الأول : الوجود الإلهي والصفات الإلهية ، والملائكة والوحي والكتب السماوية وحقيقة النبوة والبعث بعد الموت ونظام العقوبة والثواب في اليوم الآخر وما عدا ذلك من الأمور التي تعلو على حدود

العلم والإدراك الإنساني ، مما ورد في القرآن الكريم في ضمن القصص والتماثيل ، سواء أكانت هذه الأمور فوق الادراك الإنساني العام بحكم نوعيتها أم كانت كذلك لكوننا لا نصلح لأن نحكم بصدقها وصحتها ما دمنا في هذه المنزلة العقلية والعلمية التي نحن فيها الآن . وأما القسم الثاني فيدخل فيه جميع الأمور التي ترتبط بمباديء تعلم الحكمة وتزكية النفوس وتنظيم الحياة الإنسانية في الإسلام .

وحسبما يرى الناقد الفاضل لا حاجة هناك إلى البحث في القسم الثاني لأنه يتساوى فيه الإسلام والديانات الأخرى . وإنما البحث يجب أن يباشر في القسم الأول وحده لأنه لم تطرأ على النفوس حالة الريبة والتردد إلا في تلك الأمور التي تدخل في هذا القسم . أما السؤال عن السبب في انبعاث هذه الريبة والتردد في تلك الأمور فيجيب عنه صاحبنا بأن الناس في الزمان الماضي كانوا يؤمنون بالغيب لجهالتهم وتقديسهم للقديم . ولكن الآن قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية بأسلوب مبتكر للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة حرية الفكر والرأي لذلك لم يعد هذا العصر عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة » .

وهذا الرأي يقوم على أخطاء : أولها عدم التفطن للفرق الحقيقي بين العصر الماضي والعصر الحالي . ومن سوء الحظ أنه قد وقع لا الأستاذ (ن) وحده ، بل طائفة كبيرة من

أمثاله في الظن الخاطيء أن مشعل الدين كان لا يمكن أن يضيء إلا في ظلام العصر الماضي ، ومن المحال جداً أن يضيء في هذا العصر الذي قد أشرقت فيه شمس العلوم الجديدة . والحال أن العلوم العقلية التي يعبر عنها صاحبنا بضياء الشمس لا تخص هذا الزمان وحده ، بل أن ضياء هذه العلوم قد برقت له الأبصار في الزمان الغابر أيضاً ، وكان الذين برقت أبصارهم للألائها في الزمان الغابر ، يظنون أن مشعل الدين لا يمكن أن يبقى مضيئاً الآن ، إذ أن العلوم التي كانت بمنزلة « العلوم الجديدة » في ذلك الزمان والاكتشافات التي تعتبر « الاكتشافات العصرية » عندئذ كانت ـ على حد زعمهم ـ قد جاءت بأساليب مبتكرة للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة حرية الفكر والرأي على وجه لم يدع مجالاً للقوم لأن « يؤمنوا بالغيب » في عصرهم المتنور . أفلم تحدث هذه الحالة في تاريخنا من القرن الثاني بعد الهجرة إلى القرن الرابع ؟ وهل رأيت أنه لما انتشرت في البلاد الإسلامية أفكار أفلاطون وأرسطو وأبيقوريس وزينو وبرقليس والأسكندر والقردوسي وفلاطينوس ومن سواهم من علماء الفلسفة والحكمة ، فطلع عليها بذلك عصر التفكير الفلسفي والاجتهاد العقلي الجديد ، ألم تظن طائفة من الناس حينئذ عين ما تظنه الآن طائفة منا ؟ وهل لم تدفع الناس موجة « حرية الفكر والرأي » و « الأسلوب المبتكر للعمل والتفكير » في ذلك الزمان إلى الريبة والشك في

عقائدهم الدينية ؟ ولكنه ماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث أن وجدت تلكم المسائل النظرية والقياسية الكثيرة التي عرضها الفلاسفة وآمن بها كثير من الناس باطلة مخطئة بعد ، وأمست شمس الحكمة والعلوم التي كان الناس يرون مشعل الدين يخفق ويتضاءل أمامها منكسفة مظلمة في دورة واحدة من دورات الحدثان، وانقلبت « العلوم الجديدة » عندهم علوماً « متقادمة » ولم يبق في « اكتشافاتهم العصرية » قوة لإبداع « الأساليب المبتكرة » للعمل والتفكير . وأصبحت الأساليب المبتكرة التي كانت ابتدعتها فيما قبل قديمة مزمنة . وانتهى الأمر إلى أن الاستنباطات العقلية التي قد باشرها القوم بناء على إيمانهم وثقتهم الكاملة باكتشافات عصرهم والتي أسسوا عليها مذاهب الفلسفة والحكمة ، قد بلغ من هوانها اليوم أن لا يتحرج من تنفيذ أكثرها طالب عادي من طلاب هذا العصر .

فالآن إذا كان يزعم أحد أن مشعل الدين كان يمكن أن يضيء في ظلام العصر الماضي ولكنه لا يمكن أن يضيء في عصر النور هذا ، فإنه ليخيل إلينا أن التاريخ يعيد نفسه . والأشياء التي يسمونها اليوم « العلوم الجديدة » و« الاكتشافات العصرية » ويدعون بناء عليها أموراً ادعتها أسلافهم في الغابر ، فإنا نعتقد أن أكثرها سيلقى المآل الذي لقيته « العلوم الجديدة » و « الاكتشافات العصرية » لعهد السالفين ، وإن هذه الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير أيضاً

ستبلى وتندرس لا محالة مع مرور الزمن . وإن أنت أمعنت في جميع هذه العلوم والاكتشافات التي هي مفخرة الجيل المتجدد الحاضر ، وسألت عن أمرها الرجال الذين هم محققو تلك العلوم ومعالجو تلك الاكتشافات أنفسهم علمت أن هذه أيضاً ـ كالعلوم الماضية ـ تحوي عنصراً قليلاً جداً من الحقائق اليقينية التي يمكن أن يقال عنها بثقة أنه لا إمكان لبطلانها فيما بعد . وأما ما سواهم من مضامين تلك العلوم فكلها ظنون وأقيسة ونظريات وشكوك واحتمالات عقلية قد يقال عنها بجزم أنه كلما خطا الزمان خطوات نحو الرقي لبست هذه « العلوم الجديدة » و « الاكتشافات العصرية » كسوة الخلوقة والقدم وعادت « الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير » التي هي مدينة بوجودها لهذه العلوم والاكتشافات تترك المجال لأساليب مبتكرة أخرى .

فإذا كان الواقع هكذا فليس هناك ما يجعل عاقلاً ذا حلم وبصيرة يخاف أنه ـ وقد جاءت « العلوم الجديدة » و«الاكتشافات العصرية » بالأساليب المبتكرة للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة « حرية الفكر والرأي » ـ فماذا يكون مصير الدين ! وإنما شأنه أن يمتحن تلك العلوم والاكتشافات بنظرة فاحصة ليعلم أن جوانبها التي هي متعارضة مع الإسلام هل هي يقينية في نفسها أم لا . فإن كانت من اليقينيات حقاً وكانت بجانب آخر متعارضة مع المعتقدات الحقيقية التي يقوم عليها الدين ، كانت هناك أزمة

ولا شك وتساءلت نفسه هل يؤمن بالدين أو بتلك النتائج اليقينية للبحث والتحقيق . ولكنه إن كانت تلك الجوانب المتعارضة مع الدين مجرد أقيسة ونظريات ، أو كانت مما يدفع المرء إلى الريبة والشك فحسب ، لم يتهيب من تصادمها مع الدين ، لأنه إن كان الدين قائماً على دعائم اليقين والإذعان فلا عبرة بالظن والقياس والشك والتردد بإزائها . وإن كان الدين شيئاً مبنياً على الظن والقياس ، فهذا الظن والقياس هو الأساس للنظريات العلمية الجديدة أيضاً . فبم يرجح أحدهما على الآخر ؟

إن التهيب من العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية والنظر إلى الدين بقصد الإصلاح والترميم ، إنما هو مذهب من قد رسب في نفوسهم أن كل جديد هو العلم والاكتشاف ، ومن اللازم لمسايرة العصر أن يتقبله المرء أو يؤمن به وإن كان مجرد قياس أو نظرية وكان القوم لم يمتحنوه على محك النقد الصحيح ببصيرة علمية نافذة . وهؤلاء هم الذين قد أولعوا بابتداع الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير وإن كانوا لا يعرفون كيف تبتدع تلك الأساليب وأي الأساليب تكون رشيدة معقولة وأيها تكون سخيفة صبيانية . وكذلك أضحى الادعاء بسبوغ نعمة « حرية الفكر والخيال » من خصيصة أهل النظر السطحي ، ولكنهم لا يعلمون أن مجرد حرية الفكر والشعور فتنة وحالة خطرة إن لم يصحبها علم واسع محكم ونظرة بالغة عميقة وذهن متوازن صحيح الفكر وكل هذا مما لا تجود به

الفطرة للناس بالسخاء الذي يفرضونه في هذه الأيام .

والنظرية الثانية التي قد تولدت من هذه النظرية هي أنه لم يعد هذا العصر عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة » . وإنا لم نستطع حتى بعد كثير من التأمل أن ندرك المقصود الحقيقي الذي عناه القائل من وراء كلمته هذه . إن كان المقصود أن هذا العصر لا يؤمن فيه بشيء يدخل في نطاق الغيب ولا يعالج بالتجربة والمشاهدة ، فهو خطأ بالمرة . لأن معناه بعبارة أخرى أن الناس في هذا الزمان قد ارتضوا أن يعيشوا داخل الحدود التي يمكن أن تكون تجربتهم ومشاهدتهم فيها وسيلة لاكتساب العلم والتي يمكنهم أن يستخدموا فيها حواسهم ، وإن الإنسان قد ترك التفكير فيما يخرج من تلك الدائرة من الأمور ، وألغى أن يحكم في بابها بالقياس والاستقراء . ولكن كل من أتيحت له ولو نظرة عاجلة في « العلوم الحديثة والاكتشافات العصرية » لن يقبل هذا القول . دع الفلسفة وعلوم ما بعد الطبيعة التي تبحث تماماً في أمور الغيب . وخذ العلم التجريبي وأموره الطبيعية إنما يعتمد عليها صاحبنا حيثما ينادي بالإيمان بالتجربة والمشاهدة ، فأي ناحية من نواحي هذا الفن لا يتوقف تحقيقها على الإقرار بالقوة والطاقة الكامنة ، وقانون الطبيعة ، والمادة والنسبة والعلة والمعلول وما إليها من الأمور . وأي علم من علوم الطبيعة لا يؤمن بهذه الأمور ؟ ولكن اذهب إلى خبير من أكابر خبراء العلوم

التجريبية واسأله : أي هذه الأمور هو يعلم حقيقته وأيها قد أدرك كنهه بحواسه ؟ وأيها قد جرب أصل وجوده وشاهده بأم عينيه ؟ وأيها يمكنه أن يقدم الثبوت القطعي لوجوده ؟ إن لم يكن هذا كله من الإيمان بالغيب فأي شيء هو ؟ .

وقد يكون المغنى الآخر لكلمة صاحبنا أن هذا الزمان لا يؤمَن فيه إلا بالشيء الذي قد جربه وشاهده جميع البشر والذي هو عند جميع أفراد النوع الإنساني بمنزلة الحاضر والمشهود . ولكن هذه الكلمة لا تخرج من فم امريء عاقل ، لأنه من البديهي أن جميع المعلومات الإنسانية ليست حاصلة للأفراد الإنسانيين على حِدتهم وانفرادهم ، بل أن جانبها الأكبر يتخصص فيه الجماعات المعينة والأفراد المعلومون ، وتكون كل شعبة من هذه المعلومات المخصوصة في حكم « الحاضر » للعالمين الاخصائيين في موضوعها وفي حكم « الغائب » لسائر أفراد البشر . ويضطر الجمهور إلى أن يؤمن ـ على الغيب ـ لذلك الرجل أو لتلك الطائفة التي تكون خبيرة فيها .

وقد يكون المفهوم الثالث لهذا الحكم الكلي أن كل امريء في هذا الزمان لا يؤمن إلا بما يدخل تحت تجربته أو مشاهدته الشخصية ولا يؤمن بشيء يكون له في حكم الغيب . ولكنه قول لا يمكن أن يخرج من ذهن الإنسان شيء أسخف منه . وذلك أن امرءاً بهذه الصفة لم يوجد على الأرض في الماضي ولا هو يوجد اليوم ولن يوجد كذلك إلى

يوم القيامة . وإن كان مثل هذا الرجل موجوداً في الواقع فلا يحجمن صاحبنا من الإيماء إليه ، لأن هذا الاكتشاف سيكون أكبر وأهم من سائر الاكتشافات العصرية .

فمن أي وجه نظرت في هذه الجملة التي نقلناها لصاحبنا لم تجدها تقارب الصدق ، وإن التجربة والمشاهدة نفسها شاهدة بأن عصرنا هذا أيضاً عصر من يؤمنون بالغيب ، كما في العصر الماضي . والشيء الذي يقال له « الإيمان بالغيب » لم ينج منه الإنسان قط ، ولا هو يستطيع أن ينجو منه أبداً . وكل امريء يؤمن بالغيب ـ وهو مضطر لأن يفعل ذلك ـ في تسع وتسعين وتسعمائة ـ بل أكثر ، في كل ألف من أمور حياته . وهو إن أخذ على نفسه أن لا يؤمن إلا بما يأتي تحت تجربته ومشاهدته فإنه سيضطر إلى أن يقصي عن ذهنه كل تلك الذخيرة من المعلومات التي قد أنزلها في ذهنه منزلة العلم واليقين اعتماداً على الغير ، وأن يلغي كل تلك الرسائل لاكتساب العلم التي هي خارج تجربته أو مشاهدته نفسه . وستكون هذه حالة لن يمكنه أن يعيش فيها ، فضلا عن أن يقوم بعمل من أعمال هذه الحياة ، لذلك لا يمكن النفي الكلي للإيمان بالغيب ولا الإيمان الكلي بالتجربة والمشاهدة في هذا الزمان ، وأيضا لا يرجى إمكانه أبداً في زمان أنور و«أشرق من هذا الزمان . وإنما الإنسان مضطر لا محالة في كل زمان وفي كل حال . إلى أن يؤمن بكثير من الأشياء بدون تجربته ومشاهدته نفسه اعتماداً على الغير . فمن الأمور ما

يؤمن به المرء للخبر المتواتر الذي وصل إليه فيه كأن يهلك الإنسان إذا أكل السم ، فهذا لم يجربه كل امريء لنفسه بأكل السم ولا شهد آخر بأم عينه يموت بأكله . ومنها ما يضطر المرء إلى الإيمان به لرواية رجل أو بضعة رجال يوثق بهم ، كاعتماد القضاة والحكام على الشهادات ، فهم إن لم يفعلوا ذلك لا يمكن أن يتحرك دولاب القضاء ولو لساعة . كما أن هناك أموراً يضطر الإنسان إلى الإقرار بها لأنه يعرضها خبير اختصاصي في فنها ، وهذه الحالة يمر فيها كل طالب علم في كل مدرسة وكل كلية ، فإنه إن لم يؤمن الطالب ـ على الغيب ـ بالبحوث والاكتشافات والنظريات التي يقدمها أكابر الخبراء في ذلك الفن لم يخط خطوة إلى الأمام في طريق العلم ، ولا استطاع أن يتقدم في عمله إلى المنزلة التي تؤهله هو نفسه ـ كأولئك العلماء والخبراء ـ لأن يبحث في الحقائق العلمية .

فالثابت إذن أننا نؤمن للغير إيماناً بالغيب ـ ونحن مضطرون إلى أن نؤمن كذلك ـ في تلك الأمور التي لم نكتسب العلم فيها بتجربتنا ومشاهدتنا الذاتية ، وقد اكتسبه غيرنا . فيواجهنا بعد ذلك سؤال واحد ، يتوقف عليه الفصل في هذه القضية وهو أنه : لأي شخص يجب أن نؤمن ، وفي أية مسألة ؟ ومن المسلم به مبدئياً أنه في كل أمر من مثل هذه الامور يجب أن نؤمن للرجل أو للجماعة التي نطمئن إلى أنها تملك أصح الخبرة وأكملها فيه وتتهيأ لديها أحسن الوسائل

لمعرفته . فتبعاً لهذه القاعدة العامة لا يستشير المريض محامياً بدل الطبيب ، ولا يذهب المرافع إلى مهندس بدل المحامي . بيد أنه يقع الاختلاف في مسائل الإلهيات والروحانية وينشأ السؤال أن هذه المسائل هل يقبل المرء فيها آراء علماء الفلسفة وأساتذة العلوم العقلية أم آراء الهداة الدينيين والروحيين للعالم الإنساني ؟ أي هل يؤمن المرء في موضوع الوجود الإلهي والملائكة والوحي والإلهام والروح والحياة بعد الموت والعذاب والثواب في اليوم الآخر وما إلى ذلك من أمور الغيب ، هل يؤمن في كل ذلك بما يقول أمثال كانت واسبنسر وآين شتاين وبرجسون ، أو بما يدعو إليه الدعاة كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؟ فالذين ينادون « بحرية الفكر والرأي » يميلون إلى الطائفة الأولى ويمتحنون دعوة الانبياء عليهم السلام على المحك الذي أخذوه من تلك الطائفة طائفة الفلاسفة والمفكرين ـ فكل ما ثبت عليه آمنوا به ، لا لأن الانبياء ـ عليهم السلام ـ قد دعوا إليها ، بل لأنها قد حازت قبولاً لدى الحكماء والفلاسفة ومن سوء الحظ أن مثل هذه الأمور قليلة جداً بل هي تكاد تنعدم . وأما ما وجد زائفاً على المحك رفضوه كشيء لا اعتبار له . وبخلاف ذلك إن الذين يدعون « أنصار القديم وأتباع السلف » يذهبون إلى أنه ليس من الصحيح أن يستفسر أهل الإلهيات والروحانيات عن المسائل الطبيعية والعقلية . ولا من الصحيح أن يستفسر أصحاب العلوم العقلية

والطبيعية عن الإلهيات والروحانيات . وإنما يختلف اختصاصهما وتتباين دائرتا عملهما ، ومن الخطأ الأساسي الأول أن يستطلع المرء في علم من العلوم آراء خبير في غير ذلك العلم . إن الحكماء والفلاسفة مهما كان لهم من عمق البصر في العلوم العقلية فإنه لا تسمو منزلتهم في العلوم الإلهية على منزلة عامي ، وليس عندهم من وسائل المعلومات في بابها إلا ما يملكه كل امريء عادي . وإنما تختص هذه العلوم بالأنبياء عليهم السلام ، فهم الخبراء الأخصائيون فيها وبيدهم وحدهم الوسائل الحقيقية لمعرفتها . لذلك يجب أن يؤمن المرء في أمور الإلهيات والروحانيات بالانبياء عليهم السلام وحدهم . وإن كان لك مجال للمناقشة والبحث في هذا الخصوص فهو في أنه هل هم صادقون وذوو بصيرة تامة في العلوم الإلهية أم لا ؟ ولكنه إن ثبت أو أُثبت لك أنهم في الحقيقة كذلك ، يتحتم عليك عندئذ أن تؤمن بكل ما قاله أولئك عن علمهم وبصيرتهم . ويكون إنكارك لها وسوق الأدلة والحجج بخلافها كمثل إنكار أعمى لوجود الشمس وتقديمه الحجج لامتناع وجودها تكذيباً للبصراء . فمثل هذا الرجل مهما كان فيلسوفا عظيما عند نفسه فإن الرأي الذي سيراه ذلك البصير الذي يرى الشمس بعيني رأسه في هذا الأعمى الفلسفي الجاحد لا يحتاج إلى بيان .

وعسى أن تعترض أن الذي قد قاله الأنبياء عليهم السلام في أمور الغيب لا تصدقه « العلوم الحديثة » و« الاكتشافات

العصرية » ولذلك قد ابتلي الناس بحالة « الريبة والحيرة » و« بالإيمان التقليدي الاضطراري » ولكنا نسأل أي تلك الحقائق اليقينية من تلك العلوم والاكتشافات هي التي تتعارض مع الإسلام ؟ إن كانت هناك مثل هذه اليقينيات فهاتوها لنطلع عليها ونفكر في أننا هل نؤمن بالقرآن أو بالعلوم الحديثة والاكتشافات العصرية ، وان لم تكن ، ولن تكون ، كما يبدو من كلمات « الريبة والحيرة » و« الإيمان الاضطراري » التي جاءت في كلام ناقدنا الفاضل . فهل العلوم الحديثة والاكتشافات العصرية التي لا تملك لا أسلحة النظريات القياسية والظنية والتي اعتماداً عليها قد أعلنت الحرب على الدين ، والتي قد جاء بريقها ـ لا قوة فتكها ـ يجعل « أنصار حرية الفكر والرأي » يؤملون أن الدين إذا سمع بها هلع جزعاً واضطر إلى التخلي عن المضمار . إنك مهما أوليت هذه العلوم والاكتشافات من الأهمية فلا تنسَ أن هذه لم تكن لتفيد اليقين في أمور الغيب . أقصى ما يكون من تأثير هذه العلوم فيك أن تصاب « بالريبة والحيرة » فتقول إنه لا يمكن لنا أن نحكم في أمور الوحي والإلهام والبعث بعد الموت والجزاء والعقاب في اليوم الآخر ووجود الملائكة ووجود الذات الإلهية حكماً قاطعاً بالنفي أو بالإثبات . ولكنه ليس من الممكن أن تنفعك هذه العلوم في شيء في الخروج عن حالة « الإيمان التقليدي الاضطراري » والتمتع بنعمة الكفر المفيدة برد اليقين ، لأن هذه العلوم لا تزودك بحجة

للجحود القطعي بالأمور المذكورة آنفاً . وأن شيئاً ما لا يكفي للقطع بعدم وجوده أن يحتج بأنه لا برهان هناك لوجوده . « فالريبة والحيرة » إذن هو المنزل النهائي الأخير الذي تنتهي بك إليه علومك الحديثة واكتشافاتك العصرية . ولكنه أسوأ المنازل من الناحية العقلية والذهنية . وإن العلوم التي لا تستطيع أن ترفد الإنسان براحة اليقين ، بل تتركه حيران في موضع لا يجد فيه ملاذاً للطمأنينة والهدوء والتي تدفع به إلى ورطة « الإيمان التقليدي الاضطراري » لكونه لا يجد برد اليقين في مذهب الكفر ، لا ريب أن هذه العلوم أسوأ للإنسان من الجهل .

وإن كان ثمة ما يخرج الإنسان من هذه الأزمة فهو الإيمان بالغيب وحده . فإنك إذا آمنت بأن فلاناً من عباد الله نبي ، واعتقدت أنه يملك البصيرة الكاملة في العلوم الإلهية ووثقت بأنه لا يكذب أبداً فإنه لا يبقى لك مجال للحيرة والارتياب في أمور الغيب ، ويقوم اعتقادك على أساس محكم من اليقين والإذعان لا يصدمه علم من العلوم الحديثة ولا شيء من الاكتشافات العصرية ولا أسلوب مبتكر للعمل والتفكير ولا غلبة حرية الفكر والرأي في كل مكان . ولذلك قد صرح الله تعالى في القرآن بأن هذا الكتاب هدى للمتقين ، ومن أولى صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ « البقرة : ٣٠ » . فهذا الإيمان بالغيب هو الذي يقوم عليه بناء الدين بكامله . وإن هدمت الجذر

والأساس فإنك لا تستطيع أن تهتدي في أمر المعتقدات الدينية الأساسية التي لا وسيلة عندك لمعرفة حقيقتها إلى رأي تكون موقناً بصحته ويكون باستطاعتك أن تقنع الغير أيضاً بصدقه .

ويبقى السؤال الأخير في هذا المقام وهو أنه ما هي الوسيلة لتحقيق أن رجلاً بعينه نبي في الواقع وله البصيرة الكاملة في العولم الإلهية ، وهو من الأمانة والصدق بحيث إن اخبرنا من أمور الغيب بأشياء تخرج عن حدود عقلنا وتسمو على منتهى علمنا نؤمن له ونصدق ما يعرض ونستطيع أن نقول بجزم إنه لا يكذب ؟ هذا السؤال يتوقف حله على أمرين اثنين : أولهما أن نمتحن السيرة الشخصية لذلك الرجل بأشد وأقسى ما يكون من المقياس الذي تمتحن به سيرة إنسانية ، والآخر أن نأخذ من دعوته تلك الأمور التي لا تخرج عن دائرة علمنا والتي يمكننا أن نحكم فيها حكماً عقلياً بجزم ، فننظر فيها نظر الدارس المتأمل . فإن ثبت لنا بنتيجة الامتحان لسيرته وللجوانب المدركة من دعوته أنه لا نظير له في صدق المقال وأنه بجانب ذلك يعلم في جميع نواحي الحياة العملية والفكرية تعليماً مكتملاً من الحكمة والسعادة والخير لا يستطيع العقل الإنساني أن يجد فيه مغمزاً من أية ناحية ، فلا مبرر هناك لئلا نعتقده صادقاً ونظن به سوءاً أنه قد اختلق كل هذا الكذب والتزوير من وجود الإله والملائكة والعرش والكرسي والوحي والإلهام والبعث بعد الموت والجنة والنار

لمجرد أن يخدع به الدنيا بدون أن يكون عنده علم بذلك .

لذلك فالخطأ الثالث الذي وقع فيه الاستاذ (ن) لأنه لا يعتبر القسم الأول (أي القسم الثاني حسب تقسيمنا) من القرآن جديراً بالبحث ، ويظن بعد ذلك أن هذا الجانب تتساوى فيه جميع النحل والأديان أو تكاد ، ولا يختلف تعليم الدين الإسلامي في بابه عن تعليم الأديان الأخرى أو يقصر دونه . وبخلاف هذا كله نقول إنما يتوقف الفصل بصدق القسمين (الثاني والثالث) (أي القسم الأول حسب تقسيمنا) على أن نمتحن سيرة النبي محمد ﷺ ونستعرض القرآن الكريم فننتقد منه ذلك القسم الذي لا يتعلق بأمور الغيب وألا نكتفي بقول إن هذا القسم من التعليم الإسلامي لا يختلف عن تعليم الأديان الأخرى أو يقصر دونه ، بل نثبت بالأدلة والبراهين أن هذا أسمى وأرفع وأجل من كل ما يوجد منه عند الأديان الأخرى غير الإسلام . وما دمنا لا نقطع بشيء في هذه المرحلة من البحث ، فإن من الخطأ المبدئي أن ندخل في المرحلة الثانية (المتعلقة بأمور الغيب) منه . وبدون تسوية البحث في هذه المرحلة الأولى لا تمكن التسوية في مرحلة الأمور الغيبية أبداً .

ويريدنا الأستاذ (ن) أن نبحث في المعاد و« الكلام الإلهي » والآيات التي تتعلق بالعقائد والقصص . ولكن هذا البحث له عندنا وجهان اثنان وهما يتعلقان بفئتين مختلفتين : إحداهما الفئة التي لا تؤمن برسالة النبي ﷺ ، فهي تشك

لذلك في هذه الأمور والأخرى التي تؤمن برسالته ﷺ ولكن تخالجها شكوك وشبهات في أمور الغيب . فأساليب البحث والمناقشة مع هاتين الفئتين تختلف وتتباين . لذلك ما دمنا لا نعلم إلى أي الفئتين ينتمي المعترض لا يسعنا أن نتباحث معه في الموضوع .

وذلك ان الفئة الأولى لا يجدي معها البحث والمناقشة حول المعاد والكلام الإلهي وسائر أمور الغيب لأنه ليس من الممكن الوصول إلى النتيجة بالبحث في الفروع مع بقاء الاختلاف في الأصل والجوهر . فالأمور التي نحن نؤمن بها من المعاد والكلام الإلهي وما يتعلق بوجود الإله وصفاته ليس إيماننا بها وإذعاننا في بابها آتياً من أن تحقيقنا العقلي أو تجربتنا ومشاهدتنا الذاتية قد أعطتنا علماً قطعياً يقينياً في تلك الامور لا يمكن أن تقام في وجهنا حجة عقلية بخلافه . ولو كان الأمر كذلك لكان من الميسور أن نبحث في تلك المسائل بالإعراض عن البحث في الرسالة . ولكن الواقع أن أساس إيماننا وإذعاننا بتلك الأمور هو اعتقادنا بأن محمداً ﷺ صادق في قوله وأن لك ما عرضه علينا مما يتصل برسالته وبكون القرآن الكريم من عند الله هو حتى لا مرية فيه . ومن هذا الاصل يتفرع قولنا بأنه ما لم نجعل رجلاً منكراً لرسالة محمد ﷺ يقر ويذعن بهذه المسألة الأساسية لن نباشر البحث معه في مسألة فرعية .

وأما الفئة الثانية فإنا لا نعرف لها حقاً في أن تؤمن

بجانب برسالة محمد ﷺ وتتكلم بجانب آخر في أمور الغيب من جهة أن ما جاء في القرآن وما نبأ به محمد ﷺ هل هو صحيح أم خطأ ؟ وذلك أنها حالما تقف هذا الموقف من تعاليم القرآن والنبي تدخل في عداد الفئة الأولى . ولو أن المرء من الفئة الثانية حقاً فإنه يتحتم عليه أن يسلم بأن كل كلمة جاءت في القرآن صحيحة وأن كل ما عرضه محمد ﷺ سليم من الخطأ . وإنما يحق له أن يتكلم في هذا كله من جهتين : أولاهما أنه هل جاء هذا وهذا في القرآن في واقع الامر أم لم يجيء ، وهل قال النبي ﷺ هذا وهذا في الواقع أم لم يقل ! والأخرى أن الذي قد ثبت مجيئه في القرآن والسنة ما هو مفهومه الصحيح !

وأمر آخر نريد أن نتكلم عنه في الختام هو أن الأستاذ (ن) قد اقترح أن يفتح في مجلة « ترجمان القرآن » باب للمناظرة ، وأظهر من نيته أنه سيعرض فيه ما يعتريه من الشكوك والشبهات . فأما شغل المناظرة المصطلح عليه عامة فقد اجتنبناه دائماً ونريد أن نجتنبه في هذه المجلة أيضاً ، لأنا لا نود نقاشاً لا تكون غايته سوى الرياضة الذهنية والصراع العقلي . وأما المناظرة العلمية التي يكون المقصود من ورائها التحقيق والإثبات والتي يخوضها الفريقان بالرغبة الصادقة في أن يظهر ما هو الحق عندهما ويؤمنا بما يثبت أنه حق ، فنحن مستعدون لها في كل حين فالاعتراضات والشبهات التي ستعرض على صفحات مجلة الأستاذ (ن) ستنقل بلفظها

كاملة على صفحات « ترجمان القرآن » ويجاب عليها . وكذلك من المرجو أنه إن تناول الأستاذ (ن) جواب « ترجمان القرآن » بالنقد نقل الجواب المنتقد بلفظه على صفحات مجلته ، حتى يطلع قراء المجلتين على جانبي أبحاث كليهما ويتمكنوا من أن يكونوا في الأمر رأياً بأنفسهم أيضاً . وإن عرض جانب واحد من البحث واجتناب عرض الجانب الآخر هو عندنا اعتراف بالضعف الشخصي !

ملاحظة :

ومما عسى أن يروق القراء علمه أن هذا المقال أجاب عليه الاستاذ (ن) بأن ألغى مبادلة مجلته بمجلتنا « ترجمان القرآن » ، وهي لا تزال ملغاة حتى اليوم . إن من الناس من يحسنون خداع شبيبتنا بمزخرف من القول والرأي . ولكنهم إذا دعوا إلى البحث الأصولي الجدي على الطريقة العلمية المحضة فإنه قلما ترسخ قدمهم في هذا المضمار .

المؤلف

الفصل الحادي عشر

النقص الأساسي لخطتنا التعليمية

إن مجلس الجامعة المسلمة بعليكره قد وجه عنايته في جلسته السنوية الماضية (المنعقدة في أبريل سنة **١٩٣٦**) إلى أمر هام كان يستدعي العناية منذ بعيد ، وهو إصلاح الطريقة الناقصة لتعليم علوم الدين والالهيات وضرورة بعث الروح الاسلامية الحقيقية في طلبة الجامعة . أما تعليم العلوم الجديدة والآداب والفنون الغربية فقد تهيأت له في جامعات الحكومة أحسن الاسباب ، مما يساوي على الأقل ما يوجد منها في جامعة عليكره فلم يكن المسلمون في حاجة إذاً إلى تأسيس جامعة خاصة لهم لهذا الغرض وحده . وإنما الأمر الذي جعل المسلمين يفكرون في تأسيس جامعة مستقلة لأبناء أمتهم والذي نالت هذه الفكرة لأجله رضى الناس هو كون المسلمين يريدون أن يستفيدوا من التعليم الجديد ويبقوا مع ذلك « مسلمين أيضاً » ، وهذا ما لا تحققه الكليات ولا الجامعات الحكومية ، وهذا هو الذي احتاج المسلمون لأجله إلى جامعة إسلامية لهم . ولكنه إن لم يكن هذا المقصود

متحققاً حتى في جامعتهم أنفسهم ، ولم يتخرج منها من حاملي الشهادات العليا إلا مثل من يخرجون من الجامعات الحكومية حذو القذة بالقذة ، ولم ينبغ في هذه الا مثل من ينبغ في تلك الجامعات من « السادة الافرنج الملونين » أو « الوطنيين الهنديين » أو « الملاحدة ـ الشيوعيين » فأي ضرورة هنالك لانشاء جامعة مستقلة وإدارة شؤونها بصرف ملايين من الروبيات ؟!

هذا السؤال كان من اللازم أن يوضع موضع العناية والاعتبار منذ البداية . وأول ما كان يجب أن يفكـــر فيه حينما ابتدأ العمل بانشاء الجامعة هو أنه ما الحاجة بنا إلى جامعة مستقلة . وما المنهاج لقضاء هذه الحاجة في الوقت الحاضر .

ولكنه قد صدق من قال يصف المسلمين في هذا العصر : أنهم قوم يعملون أولاً ويفكرون ثانياً . فالذين كان بهم شغف بإنشاء الجامعة كانوا مشغوفين بإنشاء الجامعة فحسب ، ولم تكن في ذهنهم صورة واضحة لها . فلا يعنيهم كيف ينبغي أن تكون الجامعة المسلمة وما هي الميزات التي يصح أن تدعى معها جامعة باسم « الجامعة المسلمة » . فكان من نتيجة هذا العمل المنفصل عن التفكير أن أُسِّسَت في مدينة عليكره أيضاً جامعة من نفس الطراز الذي أنشئت الواحدة منه في أكره والثانية في لكنو والثالثة في داكا من قبل . ولمناسبة صفة « المسلمة » في عنوان الجامعة أدخل

جانب من علوم الدين في برامج تعليمها ، حتى إذا سأل سائل عن السبب في إلحاق صفة « المسلمة » هذه باسم الجامعة عرضت عليه مقررات هذه العلوم من القدوري ومنية المصلي والهداية برهاناً على « إسلامية » الجامعة . ولكن الواقع إنه لم يراع في تأسيس هذه الجامعة وتشكيلها ماتنفرد به عن غيرها من الجامعات الحكومية وتكون « جامعة إسلامية » بكل معنى الكلمة .

من الممكن أن يكون اللهج والشغف الشديد بعمل التعمير لم يدع القوم في بدء الأمر يفكرون في أمر التصميم الصحيح الملائم ولكن العجب أنه قد مضت على تأسيس الجامعة خمسة عشر عاماً ولم يشعر أرباب تعليمنا « ولو مرة واحدة » : وماذا كانت الغاية المقصودة من بناء الجامعة وإلى أين يسير هذا الموكب المولي عن وجهته . ومما تدل على الأحوال منذ البداية أن هذه الجامعة لا هي جارية على النهج الذي يجب أن تجري عليه جامعة إسلامية ، ولا هي آتية بتلك النتائج التي كانت مطلوبة منها حقاً . فلا فرق بين طلبتنا وطلبة جامعة حكومية ـ ولا يوجد في جوها شيء من السيرة الإسلامية والروح الإسلامية والسلوك الإسلامي ، كما ينعدم فيه التفكير الإسلامي والعقلية الإسلامية . ولعله ليس واحداً في المائة عدد الطلبة الذين قد تخرجوا من الجامعة بوجهة نظر إسلامية وبمطمح رجل مسلم والذين قد أهلهم التعليم والتربية في هذه الجامعة بأن يستعملوا علمهم وقواهم العقلية فيبثوا

في حياة الأمة المسلمة روحا حماسية جديدة ، أو يقوموا - على الأقل بخدمة علمية أو عملية نحو أمتهم . ولو أن نتائج تعليم هذه الجامعة كانت من النوع السلبي فحسب ، لهان الأمر . ولكن المؤسف أنه يوجد بين خريجي الجامعة والطلبة المتعلمين فيها عدد ضخم من الشبان الذين ليس وجودهم ذا منفعة للإسلام والحضارة الإسلامية بل هو ذو مضرة لهما . فهؤلاء ليسوا أجانب فحسب عن الروح الإسلامية بل هم قد انحرفوا عنها وهاجروها . ولا يوجد فيهم مجرد الجفاء للدين والإعراض عنه ، بل قد نشأ في نفوسهم نوع من الكراهية له . وقد ركبت أذهانهم تركيباً جاوز بهم موقف التشكك إلى موقف الجحود والإنكار التام . فعادوا يتمردون على الأصول الأولية التي يقوم على أساسها بنيان الإسلام .

ومنذ قريب قد ألم ببعض أحوال الجامعة في خطاب شخصي له شاب خريج من الجامعة المسلمة نجا من الوقوع في الارتداد لسلامة طبعه ، وقد كان أشرف عليه . وهذا الخطاب لم يكتب للنشر ولا هو كتب خاصة لبيان أحوال عليكره . لذلك نرى أن ما جاء في هذا الخطاب هو صورة صحيحة غير مموهة لبواطن أمور الجامعة . فيكتب صاحب الخطاب يسرد حالة ارتقائه الذهني .

إني واجهت في جامعة عليكره تلك الفئة النازلة بالعالم الإسلامي من الخارج ، وهي التفرنج . ووقفت أمام منزله الارتقائي النهائي ، وهو الشيوعية ، وكنت قبل هذا لا أعد

التقليد الغربي شيئاً ذا خطر . ولكن تجاربي في عليكرة عرفتني الحقيقة ، ففي هذا المركز الكبير في قلب الهند الاسلامية رأيت عدداً لا بأس به من الأفراد الذي ارتدوا عن الاسلام وأصبحوا دعاة متحمسين للشيوعية . ورأيت أن كثيراً من أفراد هذه الجامعة هم الأساتذة . وهؤلاء يغوون كل فطن زكي من الطلبة الواردين في الجامعة فيوقعونه في شركهم . والقوم لم يختاروا الشيوعية لأنهم يريدون حماية وإسعاف المعدمين والفلاحين والعمال ، فهذه حياتهم وطرق معاشهم الإسرافية تكذب ما يدعون ، بل هم قد اختاروها ليستطيعوا أن يبرروا انحلالهم الخلقي وميولهم الإلحادية وتفكيرهم المهلهل (Loose Thinking) تحت جناح حركة عالمية . وقد انخدعت أنا نفسي بالشيوعية أولاً إذ زعمت أنها طبعة غير رسمية (Un - authorized Edition) للإسلام . فلما درستها بشيء من الوعي والتفكير علمت أنه شتان ما بين مقاصدها الأساسية ومقاصد الإسلام . . » .

ويتضح جلياً من هذا البيان أن التعليم والتربية في جامعة عليكره ليس ناقصاً فحسب بل هو مثمر من النتائج ما يخالف ويضاد تلك المقاصد التي نادى لأجلها السير سيد أحمد خان ومحسن الملك ووقار الملك بضرورة جامعة مسلمة ، والتي احتفى لأجلها المسلمون ببناء هذا المعهد احتفاءاً حاراً وشاركوا في تأسيسها بما هو فوق استطاعتهم .

وماذا تقول في مهندس صنع سيارة ولكنها إذا حركت

جعلت تسعى إلى الخلف بدل أن تجري إلى الأمام ؟ وما رأيك في فنية المهندس الذي ظل يلاحظ أن السيارة التي صنعها تتحرك حركة مقلوبة بصفة دائمة مستمرة ، ثم لم يشعر بأن هناك فساداً في تركيب السيارة . وأغلب الظن أنك لن تصادف مثل هذا المهندس الميكانيكي في دنيا الواقع . ولكنك تستطيع أن تقدر تقنية المهندسين التعليميين لا شك من أنهم تصدوا لاختراع « ماكنة » تعليمية يراد بها أن تتحرك نحو الغاية الإسلامية ، ولكن « الماكنة » التي صنعوها أضحت تتحرك في الجهة المعاكسة لها على الخط المستقيم وظلت تتحرك في تلك الجهة الخاطئة مدة خمسة عشر عاماً على التوالي . ولكنهم لم يشعروا بذلك ولم يتساءلوا يوماً واحداً أنه أي نقص هناك في تصميمهم وتركيبهم بل لم يشعروا بأنه هل هناك من خطأ في تركيبه أم لا ؟ .

وبعد كل هذا الخطأ والفساد المستمر عبر السنوات الطوال قد تذكر مجلس الجامعة أن : « من مقاصد الجامعة الأولية أيضاً أن تبث في طلبتها الروح الإسلامية » وعينت لجنة من سبعة رجال لهذا الغرض قد عهد إليها أن « تدرس وضع الحالة الحاضرة في الجامعة فتقترح لتعليم العلوم الدينية والإلهية وسائل مستجدة وراقية تلائم حاجات العصر ، ويمكن أن تعرض بها التعاليم الإسلامية على طريقة أحسن وأرضى » .

أمر حسن ولا شك ، وخطة طيبة مباركة ! ولا يعد ضالاً

من يضل بياض النهار ويعود مع المساء كما يقول المثل . فإن كان مهندسونا التعليميون قد تنبهوا حتى في هذه المرحلة المتأخرة أن « ماكنتهم » التعليمية قد ركبت تركيباً خاطئاً وأنه ليس السبب في حركتها على عكس الجهة التي كانت مقصودة من صنعها هو مجرد المصادفة والاتفاق بل هو الفساد في تصميمها وتركيبها ، فإنا مستعدون لأن نقول لهم : « دعوا ما مضى وتعالوا الآن فنفطنوا للأخطاء التي كانت في تصميمكم السابق ، فركبوا « الماكنة » الآن على تصميم آخر صحيح . ولكنا نشك في أنه قد شعر القوم شعوراً صحيحاً بخطئهم . فتراهم لا يعترفون بأن هناك فساداً جذرياً في عمل بنائهم وإنما تأثروا بالصورة الرهيبة الظاهرة لنتائج عملهم ولا يزالون ينظرون إلى الأحوال بنظر سطحي غير متعمق .

وإنا ندعو الله أن تكون شبهتنا هذه في غير محلها .
ولكن تجاربنا الماضية تحملنا على مثل هذا الشك

إنه في منتصف القرن الماضي ، حينما كان الانحطاط الممتد على القرنين قد أدى إلى انقلاب سياسي رهيب ، ظهر من الغيب بضعة رجال لينقذوا من الغرق سفينة المسلمين المضطربة . وكان ذلك الوقت لا يسمح بكثير من التأمل . ولم تكن إذ ذاك فرصة للتفكير في أنه على أي تصميم تصنع السفينة الجديدة القوية بدل هذه السفينة القديمة المحطمة . وإنما كانت المسألة عندئذ أن هذه الأمة التي قد أشرفت على الغرق كيف تنقذ من الهلاك ؟ فقامت فئة من هؤلاء

المصلحين تصلح وترمم لك السفينة القديمة . فرتبت من جديد ألواحها السابقة وسدت ما تخللها من الفروج ورفت أشرعتها الرثة وجعلتها صالحة ليملأها الهواء فتجري السفينة . وقامت فئة أخرى فاشترت سفينة بخارية جديدة ، فحملت عليها عدداً كثيراً من المتعرضين للغرق وراحت لسبيلها . وبهذا التدبير نجحت الفئتان كلاهما في دفع النكبة المفاجئة . ولكن هذين التدبيرين نجحا من حيث أنهما عالجا المشكلة بحسب الضرورة العاجلة الشديدة فأنقذوا الغارقين من الهلاك ولم يكن كل ما فيها من الحكمة والكياسة إلا محدوداً عند هذا الحد . فالذين يريدون الآن أن يبقوا على هذين التدبيرين في شكليهما الحاليين مع أن ساعة الخطر قد مضت ، فإن منهج عملهم يخالف الحكمة والكياسة . وذلك أنه ليست السفينه الشراعية القديمة تصلح لأن يركبها المسلمون ويسابقوا الأمم التي تحملها السفن الميكانيكية ذات ألف الضعف من طاقة مركبهم ، ولا السفينة البخارية المكتراة تصلح لأن تحمل المسلمين إلى غايتهم المقصودة ، لأن هذه السفينة وإن كانت ذات جهاز مستحدث وسير سريع ومحرك ميكانيكي ، إلا أنها سفينة الأجانب في كل حال ، وتصميمها وتركيبها إنما يلائم مقاصدهم ويلبي حاجاتهم فحسب . ثم إن ربانها وملاحيها أيضاً من أولئك القوم . لذلك لا نتوقع أبداً من هذه السفينة أن تجري بنا إلى الغاية التي نطمح إليها ، بل نحن نخاف لسرعة سيرها أن تبعد بنا

هذه في الجهة المخالفة بأعجل من ذي قبل ، وتقصينا عن غايتنا المقصودة يوماً بعد يوم . أما وقت الضرورة العاجلة فقد أصاب من قام ليرمم السفينة القديمة ولم يخطيء من أنقذ الغارقين من الهلاك باكتراء سفينة أجنبية . ولكن الآن ، وقد ذهب الخطر العاجل ، يخطيء من يصر على ركوب تلك السفينة القديمة المرممة ويخطيء كذلك من يأبى مفارقة السفينة الأجنبية المستعارة .

إن الزعيم الحقيقي والمصلح الصحيح هو الذي يتولى الاجتهاد الفكري ويتخذ من التدابير ما هو أكثر ملاءمة للوقت والمناسبة . والذين يتبعونه بعد ذلك يكونون مقلدين بلا تفكر . فهم يظلون يسيرون على الطريق الذي كان اختارها مراعاة للظروف ، بدون اجتهاد أو فكر حتى بعد انقضاء تلك الظروف ولا يفطنون أن الذي كان الأمثل في الماضي هو في الحال الحاضرة غير الأمثل . فبعد أولئك الزعماء الذين كانوا في القرن الماضي لا يزال متبعوهم يصرون على انتهاج ذلك الطريق الذي تركهم عليه أولئك ، مع أنه قد زالت الملابسات التي اختار فيه أولئك هذا الطريق . والحاجة الآن هي أن يعمل الاجتهاد الفكري فتتخذ طريقة جديدة للعمل .

ومن سوء الحظ أننا لا نرى أية من الفئتين مجتهدة ، وإن اجتهد أحد من أهل السفينة القديمة بأقصى ما يمكنه من الجرأة فهو يعلق فيها عدداً من المصابيح الكهربائية ، ويفرش فيها أثاثاً من النمط الجديد ويركب فيها « ماكنة » بخارية

صغيرة لا تنفع إلا أن تصفر من بعيد كمثل الصفارة البخارية فيخدع الناس أن هذه السفينة القديمة قد أصبحت جديدة ميكانيكية . وبجانب آخر ، إن أهل السفينة الجديدة وإن كانوا راكبين في مركب الأجانب ، وتجري بهم السفينة بسرعة هائلة إلى الجهة المخالفة إلا أنهم قد رفعوا أشرعة قليلة من الطراز القديم على ظهر باخرتهم الجديدة صنع القرن العشرين ، حتى يخدعوا المسلمين - ويخدعوا أنفسهم كذلك - بأن هذه السفينة أيضاً سفينة إسلامية قد جرت نحو كعبة الله من طريق لندن .

إلامَ يا ترى هذا التقليد الأعمى وهذا التظاهر الزائف بالاجتهاد ! قد مر طوفان ، وقد اقترب جداً طوفان آخر . ونحن نشاهد إرهاصات لانقلاب سياسي آخر في الهند ، كما أنه تتخذ الآن في أقطار العالم الأخرى وسائل للانقلاب يخشى أن تؤدي إلى انقلاب مفاجيء أعظم وأهلك أضعافاً مضاعفة ، قبل هذا الانقلاب المتوقع في الهند . وستكون هذه الانقلابات المنتظرة مختلفة تماماً في نوعيتها وشدتها عن ثورة ١٨٥٧ الكبرى . والذي نراه الآن من حالة المسلمين الحاضرة من حيث العقيدة والإيمان والأخلاق والأعمال لا يجعلنا نظن ونتفاءل أنهم سيتحملون صدمة واحدة من صدمات الطوفانات الآتية بخير وسلام . ذلك لأن سفينتهم القديمة لا تصلح لأن تقاوم طوفاناً هائلاً ينبعث في هذا العصر الجديد ، وربما تفككت ألواحها وتمزقت أشرعتها بلطمة

واحدة من لطمات الأمواج الثائرة . أما سفينتهم المستعارة فهي أكثر خطراً من القديمة ، والذين قد ركبوا فيها نخشى عليهم أن يذهب بهم أول موج من الطوفان بعيداً عن الملة الإسلامية ويطرحهم لأبد الآباد ـ لا قدر الله ـ في أعماق الضلال . لذلك قد آن الأوان لأن يبرح المسلمون سفينتهم القديمة المتضعضعة وينزلوا أيضاً من السفينة الأجنبية المكتراة ، ويصنعوا لأنفسهم بدل ذلك سفينة تكون مركبة من أحدث الآلات والأدوات وتكون « ماكنتها » كالتي تنصب في أقوى وأسرع سفينة عصرية ولكن تصميمها يجب أن يكون تصميم « سفينة إسلامية » خالصة ، وتكون دفتها بيد الربابين والمهندسين الذين هم عارفون بمعالم الطريق الموصل إلى كعبة أهل الإسلام .

وندع الآن اسلوب الاستعارة والتعريض ونتكلم في الموضوع بلغة صريحة مباشرة .

إن الحركة التعليمية التي انبعثت من عليكره بقيادة السير سيد أحمد خان ـ عفا الله عنه ـ كان من غايتها المؤقتة أن يتأهل المسلمون لإصلاح أمرهم الدنيوي بحسب حاجات هذا الزمن الجديد . وذلك بأن يتحلوا بالتعليم الجديد . فيستنقذوا حياتهم الاقتصادية والسياسية من البوار ، ولا يتخلفوا عن الشعوب الأخرى في الاستفادة من الوضع الحديث لإدارة شؤون البلاد . ولعله لم تسمح الظروف عندئذ بأكثر من هذا . وهذه الحركة وإن كانت بجانب فوائدها

مضار وأخطار . ولكنه لم تكن لدى القائمين بهذه الحركة فرصة لأن يفكروا في هذا الجانب ويتخذوا خطة تعليمية صارمة تسلم من تلك المضار وتجمع المنافع كلها ، ولا كانت تتهيأ لهم آنئذ وسائل وأسباب يمكن بها تنفيذ خطة تعليمية من ذاك النوع . لذلك كله دفع المسلمون عندئذ إلى المنهج التعليمي الذي كان رائجاً في البلاد مراعاة لضرورة الساعة . ولتفادي الأخطار أدخل فيه عنصر من التعليم والتربية الإسلامية ، لم يكن يلائم في شيء التعليم الجديد والتربية الجديدة .

كان هذا تدبيراً مؤقتاً وكفى ، لجؤوا إليه لمكافحة النكبة المفاجئة من الفور ، ولكن الآن قد انقضت الظروف التي كانت تتطلب تدبيراً عاجلاً . وقد تحقق أيضاً النفع الذي كان يقصد بهذا التدبير ، وأيضاً ظهرت ظهور الواقع الملموس تلك الأخطار التي كانت عندئذ متوهمة فحسب . وهذه الحركة لا ريب أصلحت من أمر دنيانا بعض الشيء ، ولكنها أفسدت ديننا أكثر مما أصلحت من دنيانا . وذلك بأنها نشأت من بيننا « الافرنجيين الملونين » وولدت فينا طبقة من « الانجلو محمــديين » (Anglo- Mohammadans) و « الانجلو هنديين » (Anglo- Indians) ممن يتضاءل في نفسياتهم العنصر « المحمدي » و « الهندي » ويغلب العنصر « الانكليزي » . ثم إنها ضيعت الطبقتين العليا والمتوسطة من أمتنا ـ وهما في الحق الأعضاء والجوارح الرئيسية في كياننا

القومي ـ وباعتهما من الوجهين الظاهر والداخل لحضارة أوربا المادّية بثمن بخس هو أن يحرز بعض المناصب وبعض الألقاب وبعض الكراسي التشريفية لرجال يتسمون بأسماء المسلمين . فإنا نتسائل في هذا الوقت : هل يجب أن تبقى خطتنا التعليمية هكذا على الدوام ؟ وإن كانت هذه هي خطتنا الدائمة الباقية فلا نحتاج لأجلها إلى جامعة عليكره ، بل هناك في كل مدينة كبيرة من مدن الهند جامعة عليكره يتخرج منها « الانجلو محمديون » و « الانجلو هنديون » بسرعة . ولا ندري لماذا نطلب هذه المزرعة المستقلة لحصد هذا الزرع المسموم . وأما إن كان المقصود تبديل هذه الحالة فلننظر نظرة الطبيب الفاحص : ما هي أسباب الفساد في حقيقة الأمر وما هو التدبير الصحيح لمعالجته ؟

إن التأمل في مزاج التعليم والتهذيب الجديد وفي طبيعته يوضح أنه ينافي مزاج الإسلام وطبيعته كل المنافاة . فإن نحن قبلناه كما هو وروجناه في أجيالنا الناشئة ، أضعناهم للأبد . فانكم في هذا التعليم الجديد تعلمونهم الفلسفة التي تحاول أن تحل لغز هذا الكون بغير الإيمان بالله ، وتعلمونهم العلم التجريبي (Science) الذي هو منحرف عن المعقولات وتابع للمحسوسات ، وتعلمونهم في التاريخ والسياسة والاقتصاد والقانون وسائر العلوم العمرانية تعليماً يختلف من أصولها إلى فروعها اختلافاً كلياً عن نظريات الاسلام ومبادئه العمرانية . وإنكم تربونهم كذلك في الأغلب تحت تأثير حضارة هي

متعارضة مع حضارة الإسلام من حيث روحها ومقاصدها ومناهجها . فأي شيء بعد ذلك يجلعكم تؤملون في أجيالكم أنهم سوف ينشؤون على دينهم ، وسيكون نظرهم نظراً إسلامياً ، وستكون سيرتهم إسلامية وحياتهم حياة إسلامية ؟ إنه لا يتلاءم مع هذا التعليم الجديد تعليم القرآن والحديث والفقه على الطريقة العتيقة المتوارثة ولم يكن عمل التطعيم هذا ليأتي بثمرات طيبة . وإنما مثله كمثل أن تنصب الأشرعة البالية في باخرة انكليزية من الطراز الجديد لأجل الإظهار والإعلان وحده . فلم تكن الباخرة الأوربية لتعود بهذا التدبير باخرة إسلامية أبداً .

لذلك إن كنتم تريدون حقاً أن تتخذوا من جامعة عليكره جامعة مسلمة فعليكم أن تعيدوا النظر في تعليم العلوم والفنون الغربية . ولا يصح أبداً أن تتبنى هذه العلوم كما هي بدون إصلاح أو تعديل ، لأنه ينطبع أثرها على أذهان طلبتنا الصافية الساذجة انطباعاً يعودون به يؤمنون بكل شيء غربي ولا تنشأ فيهم ملكة النقد ، وإن نشأت ففي واحد من ألف متعلم ، وذلك أيضاً بعد أن يقضي جانباً كبيراً من عمره بعد فراغه من التعليم الجامعي ، في دراسة متعمقة ويبلغ مرحلة من العمر لا يكون فيها أهلاً للقيام بخدمة عملية جدية . فالمطلوب إذن أن يبدل هذا المنهج التعليمي ، وذلك بأن تعرض جميع العلوم الغربية على الطلبة بعد عملية من النقد تكون من زاوية النظر الإسلامي الخالص ، حتى يسهل

التمييز ، فيطرح عند كل خطوة ما هو ناقص من تلك العلوم ، ويقبل ما هو نافع فحسب .

وبجانب هذا يجب أن لا تأخذوا العلوم الإسلامية أيضاً من الكتب القديمة كما هي بدون تعديل . بل يجب أن تفرزوا منها ما هو دخيل فيها من آثار المتأخرين ، وتأخذوا ما يبقى بعد ذلك من مبادىء الاسلام الابدية ومعتقداته الحقيقية وقوانينه الثابتة غير المتبدلة ، فأنزلوا روحها الحقيقية في القلوب وابعثوا فكرها الصحيح في الأذهان . ولا نظن أنكم تجدون برامج تعليمية مهيأة لهذا الغرض ، بل لا بد أن تهيئوا كل هذا بأنفسكم من جديد ، إن تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية فوق كل شيء ، ولكنه يجب ألا يكون هذا التعليم من مجموعات التفسير والحديث القديمة ، ويجب كذلك أن يكون المعلمون لهذه العلوم رجالاً قد تعمقوا القرآن والسنة وأدركوا مغزاهما . ويلزم أيضاً التعليم القانوني الإسلامي ، ولكنه في هذا العلم أيضاً لن تجدي الكتب المتقادمة . وسيكون محتوماً بعد ذلك أن تدخلوا مباديء نظام الاقتصاد الإسلامي في تعليم الاقتصاد ، ومباديء القانون الإسلامي في تعليم القانون ونظريات الحكمة الإسلامية في كتب الفلسفة ، وحقائق فلسفة التاريخ الإسلامية في تعليم التاريخ ، وأن تدخلوا هكذا في تعليم كل علم وفن عنصراً إسلامياً من حيث العنصر الرئيسي الغالب المسيطر !

هذا وواجب بجانب ذلك كله أن تعفوا كل من انضم في

أسرتكم التعليمية من الملاحدة والمتفرنجين . ومن حسن الحظ أنه قد انبعث في الهند جماعة من الأفاضل ، هم بجانب بصيرتهم النافذة في العلوم الجديدة مسلمون صادقون بقلوبهم وأذهانهم ونظرهم وتفكيرهم . فالمطلوب أن يجمع شتات هؤلاء النوابغ ويعهد إليهم تصميم باخرة إسلامية بكل جديد من الآلات والأدوات .

ولعلك أن تقول : كل هذا صحيح ولكنه لن يسمح بذلك الحاكم الإنكليزي . وهذا صحيح إلى حد ما . ولكن ينبغي أن نطرح عليه هذا السؤال : أي الرجلين تؤثر ؟ المسلم الخالص أم الشيوعي الخالص ؟ لأنك لا بد أن تختار واحداً بعينه من الاثنين . أما المسلم من طراز « الانجلو محمدي » الذي ظهر حوالي سنة ١٩١٠ فلا يمكن أن يوجد إلى بعيد . فإن كنت تريد الآن أن تجد أجيال المسلمين الناشئة واقعة في حضن الشيوعية تماماً فاثبت على عدائك للإسلام وستجد النتيجة لهذه الخطة ماثلة أمام عينيك عما قريب . وإن لم تكن تريد ذلك فاعلم أنه لا يمكن أن يحارب تيار الشيوعية الجارف ، لا في صفوف المسلمين وحدهم بل في جميع الهند ، بالدعاية الفارغة وبرامج الإذاعة للريفيين ، وإنما هذا التيار لا تستطيع أن تدفعه إلا قوة واحدة ـ هي قوة الإسلام !

الفصل الثاني عشر

المنهج السديد لتعمير كيان الأمة

إن الإصلاح والثورة يقصد من ورائهما جميعاً إصلاح حالة فاسدة . ولكنه يكون هناك فرق جوهري بين محركاتهما ومناهج عملهما . فالإصلاح يكون ابتداؤه من التروي والتفكير . وذلك أن المرء يدرس الأوضاع القائمة بقلب هادىء وبروية وإمعان نظر ، ويفكر في أسباب الفساد ويقيس حدوده ويبحث عن تدابير إزالته . وإذا تصدى لمحوه فلا يستخدم قوة الهدم والتخريب إلا إلى الحد الأدنى الذي لا بد منه . وأما الثورة ، بخلاف ذلك ، فيكون ابتداؤها من السخط والغضب واضطرام الحقد والإلحاح على النقمة . فيؤتى بفساد آخر في رد فساد أول ، ويقاوم التطرف الذي أودى إلى ذلك الفساد بتطرف آخر يأتي فيقضي على الحسنات أيضاً مع السيئات . ولا شك في أنه يضطر المصلح في كثير من الأحيان أن يصنع مثل ما يصنعه الثوري . فكلاهما يأخذ مبضع الشرح ويعمد به إلى الموضع المريض من الجسم . ولكن الفرق بين الاثنين هو أن المصلح يقدر

من ذي قبل أين الفساد في الجسم وكم هو؟ فيستعمل مبضعه بقدر لا بد منه لإزالة الفساد، ويهيء بجانب عمل شرحه بلسماً شافياً لكي يضعه على الجرح من الفور. ولكن الثوري - بخلاف ذلك - يعمل مبضعه في الجسم في فورة الغضب بدون حيطة أو حذر، ويروح يقطع أجزاءه بدون تمييز بين الصالح منها والفاسد. ولا يخطر بباله أن يستعمل البلسم، وإن خطر فبعد أن يكون أثخن في القطع والبتر ويتنبه لخطئه في العمل عقب ما يضيع جزءاً كبيراً من الجسم.

وفي الأعم الأغلب أنه حيثما تكثر المفاسد وتتخطى حدود القصد، يخون الناسَ الصبر والاحتمال ولا يدعهم الأذى الذي يلحقهم من الأوضاع الفاسدة يفكرون في الأمر بقلب هادىء، ويجتهدون للإصلاح. فتقوم في هذه الظروف عامة حركات ثورية بدل الحركات الإصلاحية، ويقوم صراع حاد بين الرجعيين والثوريين، مما يهيء الحطب الجزل لنار الغضب والحقد والثأر، فيبلغ الفريقان منتهى الخصومة والعناد، وكلاهما يخنق صوت الحق والصدق. فيرى بجانب أنه تستنفد القوة في حماية الباطل على الحق، ويرى بجانب آخر أنه يتحامل القوم على المذنب والبريء، بدون تمييز بين الحق والباطل. فإذا تمت الغلبة للثوريين في عاقبة الأمر فهم يأتون فيبيدون كل شيء كان بيد الرجعيين، سواء أكان حقاً أم باطلاً وصحيحاً أم خاطئاً. وتتقدم الثورة كالسيل الجراف تكتسح أمامها اليابس والأخضر بدون تمييز. وبعد كثير من

الهدم والتخريب ومتى عاد العقل إلى نصابه فإنه ينبعث حينئذ الشعور بضرورة التعمير . ولكن العقلية الثورية تبتكر في هذا أيضاً بدعاً من الأساليب ، فتحاول أن تترك كل شيء راج بين المحافظين ، ولا تعتبر لشيء ما عيباً أكبر من أنه ينتسب إلى النظام القديم ، وإن كان بذاته صائباً . وهكذا يحاول القوم أن يبنوا بنيان الحياة على المبادىء الثورية الجديدة لمدة من الزمان . ولكنه عندما يتعب الذهن الثوري من تلك التجارب الجديدة وتعاقب الخيبة والفشل ، يعود في آخر المطاف إلى موقف الاعتدال الذي كان يقصده المصلح منذ ابتداء الأمر . ويصدق الشعر الفارسي :

كل ما يفعله العاقل يفعله الأحمق كذلك ؛ ولكن بعد كثير من الفوضى والاضطراب !

إن المثال الأبرز لما ذكرناه آنفاً هو الثورة البولشوفيكية . وذلك أن الحالة الفاسدة السيئة للنظام المدني القائم في روسيا الملكية لما تناهت في الفساد حتى أصبحت لا يطاق عليها الصبر ، ظهرت في وجهها كرد عمل حركة ثورية ، وبدأت النظريات الاشتراكية والديمقراطية الأوربية تفشو وتنتشر في روسيا . فقامت الحكومة وصنائعها من الطبقات تستعمل القوة والعنف الاستبدادي للاحتفاظ بما تتمتع به من المنافع غير الشرعية . فكان من النتيجة أن أخذ الثوريون يحتدمون غضباً وحقداً ، لا على الاستبداد الملكي والتقسيم غير العادل للثروة فحسب ، بل على كل نظام التمدن الذي كان توارثه

القوم منذ قرون . وتأدى الأمر إلى أن تقمص الهيولي الماركسي شخصية لينن ، فدُك عرشُ حكومة زار ، ونسفت نسفاً جميع المباديء السياسية والاقتصادية والمدنية والأخلاقية والدينية التي يقوم عليها المجتمع الروسي فيما قبل الثورة . وبعد كل هذا الهدم والتخريب ابتدأ تعمير مجتمع جديد على مباديء شيوعية مبتكرة . وبذل البناؤ ون الجدد كل ما يملكون من قوى التفكير في محاولتهم لئلا يدخل في بنائهم الجديد أي شيء من باقيات الطبقة البورجوازية . حتى أمروا « **الإله** » أيضاً بالخروج من حدود روسيا للحال . ولكنه ما مرور الزمن قد أخذ الجنون الثوري يهدأ أخيراً ويحل محله العقل البناء . وأخذت تلك البولشوية المتطرفة التي كانت عاملاً فعالاً في نشأة الثورة تعود إلى نقطة الاعتدال .

ومثل هذا التطرف ظهر في زمان الثورة الفرنسية أيضاً . إذ نهض رجال الثورة ليهدموا في سورة هياجهم كل ما هو صالح أو فاسد مما يتعلق بالنظام القائم ، ووضعوا مباديء انقلابية جديدة ، فروجوها في البلاد ، ولكنه كان من عاقبة هذا الطوفان الثوري المتشدد أنه لم يكن إلى الآن أن يعود المزاج الفرنسي السياسي والمدني والأخلاقي إلى نقطة الاعتدال ، ولا يجد المرء في أية ناحية من نواحي الحياة الفرنسية القومية ذلك الرسوخ والإحكام الذي يوجد عند الإنكليز .

ومثال آخر لهذا التطرف هو الانقلاب التركي . حيث

اجتهدت مثل هذه العقلية الانقلابية أن تجعل من أمةٍ أمة أخرى مختلفة تماماً عن الأولى ، بين عشية أو ضحاها ، بقوة سحرية . ولتحقيق هذا الغرض كما أخذ الانقلابيون المبضع بيدهم فإنهم في محاولتهم لشرح المواضع المألوفة قطعوا الأجزاء الصالحة الصحيحة أيضاً من جسم الأمة ، وركبوا في مكانها أعضاء جديدة مستوردة من أوربا ، حتى استبدلوا بالعقل القديم أيضاً عقلاً متنوراً جديداً تحت قبة أوربية . ولكنه مع مرور الزمن عاد الأتراك الانقلابيون يتفهمون أنه لا يصح ما اتخذوه إلى الآن من القاعدة الكلية التي تحكم بأن كل قديم سيء وكل جديد حسن مرضي . ولم يجدوا بداً بعد ما خسروا وأخفقوا في أكثر التجارب الجديدة من أن يدعوا الإفراط ويرجعوا إلى بعض الاعتدال .

كل هذا قد قلناه نظراً إلى أن المسلمين الهنديين أيضاً يقفون الآن أمام هيجان ثوري . وقبل أن تظهر النتائج الوخيمة لهذا الهيجان نريد أن ندعو كلتا الطائفتين من المحافظين والثوريين إلى الفكر والتأمل .

إن فساد الأحوال في هذا القطر الهندي يماثل ما كان منه في تركيا وسائر الممالك المسلمة وما يوجد هناك حتى الآن . فإن الطبقة التي تتولى قيادتنا الدينية منذ قرون قد جعلت الإسلام شيئاً جامداً غير متحرك . ولعلها لم تبدل « النتيجة » المعلقة أمامها منذ القرن السابع . إنهم لا شك يدرسون ويدرسون في مباحث فلسفتهم وكلامهم أن العالم متغير وكل

متغير حادث . ولكنهم قد اغمضوا عيونهم في الحقيقة عن تغير العالم وتقلب العصر وتطور الزمن وجريانه . أنه قد تبدلت الارض غير الارض ، وتغيرت حالات الدنيا وأفكارها وميولها ونظرياتها من صورة إلى أخرى وتقلبت شؤون التمدن ومسائله تقلبات متعددة ، ولكن هداتنا لا يزالون يتصورون أنفسهم بعد في تلك البيئة التي كانت تسود قبل خمسة أو ستة قرون . إنهم لم يتقدموا خطوة مع الزمن ، وبقوا غير متأثرين بالتطورات الحديثة ولم يعنوا بالمسائل المتجددة للحياة ، وظلوا يحاولون أن يمنعوا أمتهم أيضاً عن مسايرة الزمن ، بل يجذبوها من المستقبل إلى الماضي . وهذه المحاولة لم تكن لتنجح إلا إلى حين ، فنجحت بالفعل . ولكن مثل هذه المحاولات لا يمكن أن تنجح دائماً . وكيف يمكن لأمة تتصل بالدنيا وتعاملها أن لا تتأثر بأفكار العالم ومسائل الحياة المتجددة ، فإن لم يتقدمها هداتها في هذه الحياة المعاصرة ولم يرشدوها إلى السبل الجديدة العقلية والعلمية والعملية فمن الطبيعي أن تتجانف هذه للخروج من قيادتهم .

إن هذا الفساد أساسه في الحقيقة شيء آخر ، هو أن هداتنا الدينيين أمعنوا في الفروع إلى حد انهم تركوا الأصول وراء ظهورهم . ثم جاءت الفروع فحلت محل الأصول وتفرعت عنها مئات وآلاف من الفروع الجديدة واعتبرت أصل الإسلام . والحال أنه لا أهمية لها أصلاً في الدين . إن بنيان الملة الإسلامية أقيم في الحقيقة على هذا الترتيب ، وهو أن

القرآن الكريم هو الأساس والطابق الأول ، تتبعه وتبنى عليه السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، ويأتي بعد السنة اجتهاد اهل العلم والبصر في الدين . ولكنه لسوء الحظ قلب هذا الترتيب رأساً على عقب ، وأصبح الترتيب المبتدع أن الأول هو اجتهاد ذوي البصيرة والعلم من عصر معين معلوم ، والثاني سنة النبي ﷺ والثالث الأخير : كتاب الله ! وهذا الترتيب المقلوب البدع هو المسؤول عن كل هذا الجمود الذي قد جعل من المسلمين شيئاً ساكناً لا يتحرك .

مَن مِن المسلمين يستطيع أن يجحد بفضل الأئمة الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ومن ينكر رجاحة علمهم وعلو منزلتهم ؟ ولكنهم على كل حال كانوا بشراً . وكانوا يملكون من وسائل اكتساب العلم ما هو حاصل لعامة بني آدم . ولم يكن يأتيهم الوحي . وإنما كانوا يستعملون عقلهم وبصيرتهم ليسبروا غور كلام الله وسنة رسوله ، فكل ما تحقق عندهم من المبادىء كانوا يستنبطون منه الفروع للقوانين والمعتقدات . فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون عوناً لنا ونور هدى يسعى بين أيدينا ، ولكنه لم يكن ليتخذ بذاته أصلاً ومصدراً وإن الإنسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فإن اجتهاده لا يمكن أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للدنيا ، لإن التعقل والعلم الإنساني يتقيدان أبداً بقيود الزمان .

وإن كان هناك من يحل عن كل قيد من قيود الزمان

والمكان فهو إله العالم وحده . فهو الذي عنده العلم الحقيقي ولا يطرأ على علمه مثقال ذرة من التغيير بتقلبات الزمان . وهذا العلم الأبدي أودع منه ما أودع في آيات القرآن الكريم وقد صدر النبي الذي جاء به ، وإذن القرآن والسنة الثابتة هما اللذان يمكن أن يكونا المأخذ والمنبع الذي يستنبط منه البشر في كل زمان ومكان علوماً وأفكاراً وقوانين بحسب أحوالم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم وضروراتهم . وما دام العلماء المسلمون يكتسبون العلم من هذا المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند الى التفكير الصحيح ، بقي الإسلام يساير الزمن . ولكنهم لما تركوا التدبر في القرآن وألغوا التحقيق والتفحص في الأحاديث ، وراحوا يقلدون السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى ، واتخذوا اجتهاد الفقهاء والمتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يعدل ، وتركوا اكتساب العلم مباشرة من القرآن والسنة وجعلوا الفروع التي استنبطها السلف هي الأصل مكان أصول الكتاب والسنة لما حدث هذا كله ، وقف سير الإسلام بغتة وجعلت قدمه تتراجع إلى الوراء بدل أن تخطو إلى الأمام . وغدا حملته وورثته ينغمسون في شرح وتفسير العلوم والمسائل القديمة بدل أن يهدوا العالم في ميادين العلم والعمل الجديدة وأصبحوا يتجادلون في الفروع والجزئيات ويبتدعون مذاهب جديدة ويتشيعون فرقاً في المباحث العقيمة التي لا تجدي ، ووزعوا الكفر والفسق على المسلمين بسخاء جعل العالم يشهد منظر

الذين « يخرجون من دين الله افواجاً » بعد أن كان شهد في الماضي منظر الذين ﴿ يدخلون في دين الله افواجاً ﴾ وعاد المسلمون « رحماء على الكفار أشداء بينهم » ، وأضحت الحالة التي ذكرها القرآن بالنسبة للكفار والمنافقين بكلماته ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ حالة المسلمين أنفسهم .

فمن رد فعل هذه الحركة الرجعية ما نجده اليوم بصورة هيجان ثوري رهيب . إنه لما أحس المسلمون أن هداتهم الدينيين لا يقومون بواجب القيادة نحوهم يجرونهم إلى الوراء بدل أن يتقدموا بهم إلى الإمام ، صاروا يتحررون من سلطانهم ويعمهون في كل واد كأنهم جند بلا قائد . فجاءت طائفة منهم تتهم الدين نفسه لاخطاء حملة الدين وهفواتهم ، تعتبره أكبر عائق في سبيل رقيها وتنادي علانية بأن يترك الدين وتقلد الأمم الراقية ، وجاءت ثانية فجعلت شعارها شتم العلماء والهداة الدينيين ، كأن فلاح المسلمين ورقيهم موقوف الآن على هذا السب والشتم ، والوقيعة في الاعراض . وقامت طائفة ثالثة فأخذت في عملية القطع والبتر في الدين . وجاء آخرون فأطلقوا لسان القدح في الفقهاء والأئمة وجاء منهم من ضم الحديث أيضاً إلى الفقه فعيرهما جميعاً . كما جاء من أحس بضرورة التعديل والترميم في أحكام القرآن وتعاليمه أيضاً ومنهم من نادى بفصل الدين عن الدنيا ، فقال : إن الدين يجب ان ينحصر في العقائد والعبادات . وأما الأمور الدنيوية فلا يكون فيها دخل للدين وقوانينه .

وهكذا قد قامت جماعات مختلفة لإصلاح تلك الأحوال الفاسدة . ولكن اتجاهها ليس إلى الإصلاح ، بل إلى الثورة والانقلاب . إنها لم تفكر بقلب هادىء سليم في أنه ما هو الفساد الحقيقي ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أي حد يمتد ؟ وما هي الصورة الصحيحة لإصلاحه ! إنها أحست بالفساد بمجرد الظن والقياس ، فأخذت المبضع وجعلت تعمله لحسمه بدون حيطة أو تدبير ، وإن كانت نتيجته أن يذهب المريض أيضاً مع ذهاب المرض .

إن الممالك المستقلة قد يقال بالنسبة إليها - ويصح هذا القول إلى حد - أنه لا يكون فيها مناص من حركة ثورية ، لأنه تكون فيها إحدى الطوائف قابضة على السلطة الفعلية ، ولا يمكن للطائفة الأخرى أن تنزع هذه السلطة من أيديها إلا بحركة ثورية شديدة . ويلاحظ مع ذلك أنه متى وقعت على زعماء الثورة مسؤولية القيام بشؤون الحكم ، فإن تجارب الوقت والزمان تصحح أذهانهم وترجع عقولهم إلى الرشد في مدة قليلة جداً ، فيضطرون إلى أن يعودوا من الإفراط إلى القصد والاعتدال . ولكنه يجب أن لا ننسى أننا في هذا الوقت في حال العبودية فتختلف أحوالنا عن أحوال الممالك المستقلة اختلافاً كلياً ، فها هنا لا نحتاج - أولاً - إلى حركة ثورية ، لأننا لا نخاف معارضة قوية شديدة لا تنجح في وجهها حركة إصلاحية معتدلة . وثانياً أنه إن جرت في البلاد الآن حركة ثورية فنجحت في أهدافها ، فإنه لا يرجى منها أن

نعود الى القصد والاعتدال لزمن طويل ، لأن رجال ثورتنا لن يكون على كواهلهم مسؤولية تثقلها وترد تطرفهم إلى الاعتدال . وعلى هذا لن تكون عاقبة بقاء حركة ثورية ـ بل بعبارة أصح ـ بقاء حركات ثورية متعددة إلى زمن بعيد إلا أن تتزلزل الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يثبت مكانها أساس محكم رصين يمكن أن يبنى عليه نظام اجتماعي من جديد . ومما لا يصعب فهمه وتصوره انه حين يهدم ويشتت النظام الاجتماعي لهذه الأمة التي هي في حال الضعف والعبودية من قبل ، فأي هوة سحيقة من الانحطاط الخلقي ستهوي إليها وتنتهي إلى قراراها .

وهذا هو السبب في أننا كثيراً ما نضطر إلى ان نقاوم الثوريين بالقوة والشدة اكثر من الرجعيين . وإلا فإننا أيضاً نوافقهم في الشعور بضرورة إصلاح الأحوال الفاسدة . وإننا ايضا نود أن يحول هذا الجمود الذي قد لازم الإسلام الى الحركة والنشاط ولكنه ليس من الحيلة الصحيحة لبعث هـــذه الحركة ان تترك الشعائر الإسلامية ، وتتبنى الطريقة الافرنجية للحياة . ولا من حيلته أن يتناول الدين بالقطع والبتر بدون علم وتحقيق وبدون تأمل وتفكير . ولا من حيلته ان تهدم بلا ضرورة تلك المباني التي اقامها المجتهدون الماضون بجهدهم ومشقتهم . ولا من تدبيره ان يتلقى مجموعة الاحاديث النبوية كلها في النار ـ عياذاً بالله ـ ولا أن يعمد الإنسان إلى الكلام الإلهي لينتقص منه ويزيد عليه بحسب

عقله . كل هذه الحيل والتدابير لا تضمن الإصلاح ، بل هي تؤدي إلى فساد أكبر مما كان . وليس العلاج الناجح للحالة الفاسدة القائمة إلا ان يصحح من جديد ذلك الترتيب الذي قد قلب ، وهو أن يوضع القرآن الكريم موضع القيادة والإشاد الذي كان له في الواقع ، وتعرف للحديث تلك المكانة التي كان جعلها له النبي ﷺ هو نفسه وأصحابه وأهل بيته على عهد النبوة ،وتنزل مآثر الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين بتلك المنزلة التي قررها لها أولئك الافاضل بأنفسهم . وذلك ان تستفيدوا منها وتستبقوا منها ما لا حاجة هناك إلى تبديله ، ولكن لا تظنوا أبداً أن كل ما قد خرج من أقلامهم هو القانون الابدي الذي لا يمكن تبديله أو أن كتبهم وآثارهم قد أغنتنا عن التدبر في القرآن والتحقيق في الأحاديث النبوية ، أو أنه قد انغلق بعدهم باب اكتساب العلم من الكتاب والسنة مباشرة .

فلو أن هذا الترتيب الصحيح يقام من جديد ، فلا جرم أن سيتحرك القطار الإسلامي الواقف ، لإن السبب الحقيقي لهذا الوقوف والجمود انه قد نحيت القاطرة الهادية من أمام القطار وجعلت في المكان الخلفي . وكذلك أبعد السائق عن موضعه وأجلس في بعض العربات الخلفية ، ووضعت الثقة كلها في العربة الإمامية وأعتقد أنها ستسير بنفسها وتجر سائر القطار أيضاً معها . هذا محال !

على أن هذا العمل لا حاجة فيه إلى غضب أو اهتياج .

وإنما الغضب يجوز حيث يرتكب خطأ أو ظلم بالعمد . وأما ما وقع ها هنا فلم يتعمده أحد . ولا يستطيع أحد أن يقول أن العلماء كانوا قد اجتمعوا في مكان ليتآمروا على أن يدخلوا على الإسلام هذا الجمود ويوقفوا ركبه المتحرك . إنما هذا كله نتيجة ذلك الانحطاط الذي لا زال يطرأ على القوى العلمية والعقلية والفكرية لجميع الأمم المسلمة كطروئه على قواها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمدنية منذ القرن السادس أو السابع للهجرة . فهذا الانحطاط كما أخمد في المسلمين روح الجهاد قد أمات فيهم روح الاجتهاد أيضاً ، وكما أنه تبدلت نظرياتهم في جملة مسائل الحياة ، تبدلت نظرياتهم كذلك في الأمور الدينية والعلمية . وبقيت جميع قواهم الذهنية عليها الهمود والخمود مع الايام بغير شعور منهم . فهذا كله مما لا يصح ان يتهم به العلماء ولا متبعوهم . وإن شئت اتهمت به الفطرة . ولكنه لا هذا الاتهام يجديك شيئاً ولا الغضب ولا فورته الهدامة . إنما الصورة الصحيحة لمعالجة الاصلاح ان تبحثوا بنفس هادئة رزينة عن أسباب المفاسد وحدودها ، وتحولوها بالحكمة والتدبير الموفق إلى المحاسن ! .

الفصل الثالث عشر

طلائع الثورة على الدين

كل امة تشتمل على طبقتين : إحداهما العامة والأخرى الخاصة .

أما طبقة العامة فمع أنها كثيرة العدد ومنها تتألف القوة العددية للأمة ولكن العقول المفكرة الهادية لا تنبغ منها ، فهؤلاء لا يكون لهم حظ من العلم أو قوة اقتصادية تذكر . ولا هم في شيء من العز والجاه ولا بيدهم سلطة الحكم . لذلك لا يكون تسيير الأمة من شأنهم ، وإنما شأنهم أن يسيروا خلف من يسيرهم . وكذلك لا يكون هؤلاء ممن يضعون طرائق العمل ويمهدونها ، بل هم يسيرون على ما مهد لهم من الطرق . اما الواضعون للطرق والمسيرون لجميع الأمة عليها فهم في الحقيقة الخواص ، وهم الذين يحمل كل قولهم وكل فعلهم من ورائه قوة العقل والثروة والعز والحكم . وتضطر الامة إلى اتباعهم طوعاً وكرهاً . لذلك يصح القول : ان القوة الحقيقية لامة ما لا تكون في عامتها . بل في خاصتها . فهؤلاء هم الذين يتوقف عليهم صلاح الأمة

وفسادها ، يؤدي رشدهم إلى رشد الامة بكاملها ويؤدي ضلالهم إلى ضلال الأمة جمعاء ، فمتى كانت الامة في إقبال نبغ من بينها خواص يسيرون على الصراط السوي ويسيرون الامة معهم عليه . ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ ﴿ وأوحينا اليهم فعل الخيرات ﴾ . ومتى كانت الأمة في إدبار ابتدأ الفساد فيها من خاصتها الذين يتأثر بضلالهم وفساد أخلاقهم عامة افرادها فيقعون جميعاً في الضلال وسيئات الاعمال . ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً ﴾ .

وتدعى الخاصة في المصطلح القرآني « المترفين » وهم الذين يكونون في نعمة واسعة من عند الله . ويشهد الله عز وجل بأن هؤلاء المترفين هم الذين يرتكبون أولاً الفسق والفجور والظلم والعدوان في البلاد ، ثم تبتلى البلاد كلها بالسيئات .

وأي شك في هذه الشهادة الإلهية ، انظر إلى امتنا نحن ، فقد نتج الفساد فيها عن مترفيها لا غير . إنهم هجروا الطريقة التي كانت طريقة الأئمة الهادين بمقتضى الأحكام الإلهية وبدؤوا يتبعون السبل الشيطانية . فهم الذين جروا على إرخاء القيود الشرعية اتباعاً لأهوائهم ، وجعلوا عباد الله يعبدونهم شأن الفراعنة والقياصرة ، وهم الذين عودوا أمتهم الخضوع للملوك والأمراء بدل الخضوع أمام الله وعلموا الرقاب التي أمرت بأن تسجد لله وحده كيف تسجد للعباد .

وهم الذين زينوا المعاصي والذنوب لأمتهم بارتكابهم إياها في القصور الزاهية والأزياء الفاخرة . وبأكلهم الحرام عودوا أفراد أمتهم ان يأكلوا الحرام ويؤكلوه وهم الذين استخدموا العلم للضلال والعقل للافساد والفطنة للمكر والائتمار ، والثروة سلعة الإيمان والحكم للظلم والعدوان ، والقوة للاستكبار . ثم هم الذين سدوا معظم الطرق الشرعية إلى نيل المصالح والحقوق وإلى الترقي والصعود ، ودفعوا الناس على أن يحتالوا لنيل مقاصدهم بالرشوة والتملق والكذب والمكيدة وما إلى ذلك من الطرق المهينة وبالجملة ليس هنالك من فساد خلقي أو عملي لم تكن نشأته من هؤلاء المترفين انهم أساؤوا استعمال ما آتاهم الله من النعم ، فضلوا وأضلوا .

كان كل هذا واقعاً منذ القرون ، وكان كيان المسلمين القومي ينخر فيه الفساد الخلقي الداخل في أحشائه ، ولكن القلوب على الأقل كانت عامرة بنور الايمان . وأنه وإن تضاءل الاتباع لاحكام الله والرسول إلا أَن عظمة الله والرسول كانت باقية في الصدور . ومهما خالف القوم القانون الاسلامي فإن احترام القانون لم تخل منه نفوسهم . ومهما ازداد الانحراف عن الحكم الإسلامي فإنه لم يتجرأ أحد على البغي عليه . وكل ما عده الاسلام حقاً كان يعد من الحق لا شك وإن غلا الغالون في الإعراض عنه واتباع الباطل ، ولم يتجاسر أحد على أن يعد ما هو حق في الإسلام باطلاً وما هو باطل فيه حقاً ، ويجعل واجبه لغواً وعبثاً وجائزه مكروهاً

وحرامه حلالاً بل مستحسناً ويجعل اثمه عملاً صالحاً . ولا ريب أن كان الناس يركبون الاثم وتدنس أعراضهم بلوث الجرائم وكانوا يتعدون حدود الشرع ويمعنون في مخالفة القوانين الإسلامية ، ولكنهم على هذا كله كانوا يشعرون بالخجل في أنفسهم وتندى جباههم حياء ، وكانت نفوسهم تعترف على الاقل بانهم يعصون الله والرسول .

ومرد ذلك إلى أن حضارة المسلمين على كل ما يوجد فيهم من انحلال العقائد وفساد الأعمال كانت تقوم على تلك الدعائم والأركان التي رفعه الإسلام . ومع أن استيراد الأفكار اليونانية والفارسية في المجتمع المسلم نشرا كثيراً من الضلال إلا أن هذه الأفكار الطارئة لم تنجح إلى حد أن تقلب وجهة نظر المسلمين وتجعل تركيب عقليتهم شيئاً متنافياً مع الإسلام ولم يبلغ من تأثيرها فيما لديهم من قوى العقل والفكر والتمييز أن يتركوا النظر بنظرة المسلم والتفكير بذهن المسلم . وكذلك إن ارتقاء المدنية والحضارة وإن انحــرف كثيراً عن السبل التي خططها الإسلام، بتأثير المؤثرات الخارجية، إلا أن المباديء التي رفعت عليها قواعد هذه الحضارة والمدنية بقيت موجودة في أساسها، ولم تحل محلها مباديء الحضارة والمدنية الأخرى المعارضة . وفسد كذلك نظام التعليم الرائج بين المسلمين كثيراً ولكنه كان للعلوم الدينية فيه مكان ملحوظ أبداً . ولم يكن أي فرد متعلم من المسلمين يكون غير عارف بالعلم الأساسي الابتدائي - على الأقل - للعقائد الإسلامية

والأحكام الشرعية والتقاليد الملية .

وضعفت سيطرة القانون الإسلامي على حياة المسلمين العملية ولكن شؤونهم بالجملة بقيت تحت سلطان قانون واحد هو القانون الإسلامي . وملخص القول إنه على الرغم من كل المفاسد والمساويء الرائجة بين المسلمين كان للإسلام تأثير بالغ في أفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم . فكانوا يؤمنون بمبادئه حنفاء لا يميلون إلى شيء آخر . ولم تكن المباديء المخالفة للإسلام نجحت في الدخول في حظيرة إيمانهم على الأقل ، وكانت القيم الأخلاقية والعملية التي قررها الإسلام لـم تتغير إلى حد أن تنقلب رأساً على عقب وتقوم مقامها قيم أخرى .

ولكنه لما انتزع الحكم من أيدي المسلمين في القرن التاسع عشر ورأى مترفو هذه الأمة أنه يكاد يضيع عنهم الجاه والمنزلة والعز والاحترام والثروة والإموال ، مع ما ضاع من الحكم والأمر ، وأنه ما من وسيلة للاحتفاظ بكل ذلك واستدراك ما فات منه في حالة العبودية سوى تعلم علوم الغرب وتقليد حضارة الغرب ، أصاب سيرتهم وسلوكهم تغيير آخر لم يكن في حقيقة الأمر تغييراً فحسب بل كان انقلاباً . فإن التغيير معناه تبدل الشيء ولكن « الانقلاب » معناه التقلب والانكباب . فالمسلمون انقلبوا حقاً في تقلبهم هذه المرة إلى حد أن انقلبت عقليتهم وانقلبت نظرياتهم وتحول اتجاههم من الإسلام إلى الطريقة الافرنجية التي تقف في الجهة المعاكسة للاسلام .

فلما ابتدأ هذا الانقلاب جعل ذلك الخجل والندم الذي كان يشعر به المسلم عند عصيانه للقوانين الإسلامية يزول ويتلاشى ، وعاد المسلمون لا يحسون أبداً أنهم بتجاوز حدود الشرع يرتكبون إثماً أو خطيئة . وحل محل الندامة والخجل على مرور الايام التجرؤ والوقاحة . فغدوا يرتكبون كل نوع من عصيان القانون علناً ويفتخرون به بدل أن يندموا عليه . ولكن تيار الانقلاب هذا لم يقف عند هذا الحد ، وإنما الذي أصبح يسمع ويشاهد اليوم في مجالس المسلمين المتفرنجين المستغربين يتخطى حدود الوقاحة ويشير إلى علامات البغي الصريح على الاسلام . وقد آل الامر أخيراً إلى أن الرجل الذي يخالف القانون الاسلامي لا يخجل من فعلته بل يخجل من لا يزال إلى الآن يتبع ذلك القانون البالي القديم ؟ فكأن المذنب والمجرم الآن ليس من يخرج على القانون الاسلامي بل الذي يلتزمه . وأصبح المسلمون اليوم لا يكتفون بأن يجتنبوا الصوم والصلاة بل هم يتباهون في ذلك ويشجعون على تركها ، فيسخرون من الذين يصلون ويصومون في هذا العصر المتنور ، ويرجى من المصلين والصائمين ـ خصوصاً إذا كانوا من الطبقة المتعلمة المثقفة ـ أن يعودوا في يوم من الأيام نادمين على فعلتهم . وصار من الرأي الآن أنه ليس اجتناب الصوم والصلاة بل التزامه هو العار الذي يجب أن يستحيى منه . وقد بلغ الامر من ذلك أنه إن ظهر عيب أو معرة في رجل يلتزم الصلاة فإنه يتناوله القوم بالسخرية والطعن

ويقولون : لا غرو فإن حضرته من المصلين . كأن السبب في صدور ذلك العيب من الرجل ليس غير العمل الذي قد عده الله عز وجل ناهياً للفحشاء والمنكر وجعلة النبي ﷺ أفضل الأعمال كلها .

وليس هذا البغي والخروج عن الدين موقوفاً عند الصلاة والصوم بل قد تجاوزهما إلى جميع شؤون الحياة على التقريب . فالآن يعبر عن التزام الأحكام الإسلامية بـ « الرجعية الدينية » و « الرجعية الدينية » في مصطلح عصرنا الجديد عبارة عن مركب حاد من ضيق النظر وإظلام الفكر والجهالة والسفاهة والنزوع إلى القديم . وبكلمة أخرى إن المسلم الراسخ الاعتقاد المتبع للشريعة اسمه في المصطلح العصري « رجل الدين الرجعي » . و« رجل الدين الرجعي » هو الذين يكون بعيداً عن التهذب والاستنارة الفكرية ولا يكون أهلاً للاندماج في المجتمع المهذب . فهذا اللقب تهون في جنبه كل الشتائم وإذا أراد « أفرنجيونا الجدد » أن يبدوا كراهيتهم للذي يتبع الدين فانهم بدل أن يستعملوا لذلك كلمات متعددة يودعون بغضهم ونفرتهم كلها في كلمة واحدة هي « رجل الدين الرجعي » وهي جماع كل عيب .

وليس من الحجة الكافية اليوم لتبرير قول أو فعل أنه موافق للقرآن والسنة ، وإنما يقوم ويرفض سند القرآن والسنة المسلم نفسه ، لا غير المسلم ، نعم المسلم الذي قد أصبح لسوء الحظ « مثقفاً مستنيراً » ثم لا يخجل بعد ذلك بل يرى

أنه ينبغي للذي قدم تلك الحجة الدينية أن يخجل ويستحي . ودع القول في سند القرآن والحديث وحجتيهما ، إنما شاهدنا أن امرأً ما إذا عرض على تلك « الطبقة المثقفة المستنيرة » باسم الإسلام فانه تمجه نفوسهم وينشأ فيها تعصب شديد عليه ، لكنه إذا عارض نفس الأمر باستدلال عقلي أو باقتباس من كاتب غربي فإنهم يصيحون : آمنا وصدقنا . فاسم الإسلام يلقي في أذهان « المسلمين المتفرنجين » منا أنواعاً من الشكوك ويحملهم على الظن أنه إذا اقترن أمر بالإسلام فلا بد أن يكون فيه ضعف أو مغمز . وكأن سند القرآن والحديث الان لا يقوي لهم أمراً في أعينهم بل هو يجعله ضعيفاً مفتقراً إلى الحجة والبرهان .

وكانت هذه الآفة قبل سنوات منتشرة في رجالنا وحدهم ، وكانت نساؤنا بمأمن منها . وإنا نستطيع أن نقول بالنسبة للحضارة الإسلامية على الأقل إن الحريم[1] هو الملجأ الأخير الذي يدافع الإسلام فيه عن مدنيته وحضارته . ولا ريب أن من المصالح الكبرى التي جعل الإسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب أن يتطهر على الأقل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم ، فيبقى مشرقاً بنور الإسلام وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يتربى فيه الطفل المسلم من تأثير الكفر والضلال وفساد الأخلاق والأعمال . وأن يقام حول

(١) حريم الرجل : ما يدافع عنه ويحميه ، ومنه سميت نساء الرجل بالحريم .

ذلك المهد الذي يجتاز فيه الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص ، وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية تلك الحدود البيتية ـ على الأقل ـ التي ترتسم فيها على ذهن الطفل وقلبه الصافي أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة . « فالحريم البيتي » إذن هو احكم وأمنع قلعة للحضارة الإسلامية ، بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت ونكصت من الميدان الخارجي . ولكن الأسف أن هذه القلعة أيضاً قد بدت فيها أعراض الخراب . وأصبحت آفة « الطريقة الافرنجية » تدخل في البيوت أيضاً . وذلك أنه عاد معروفاً المتفرنجون يجرون النساء أيضاً معهم إلى مزدحم الحياة لكي يتسممن بذلك السم الذي قد سرى قبل ذلك في الرجال . وها هن بنات أمتنا ترسل الآن إلى معاهد التعليم الغربي لكي يتلقين فيها دروس الضلال وسوء الاعتقاد وفساد الأخلاق والحضارة الافرنجية ، كما أرسل إليها أبناؤنا من قبل ، فتلقوا منها كل ذلك وجاؤوا خارجين على الإسلام .

وهذه الخطوة الأخيرة سوف تكون ـ في رأينا ـ مكملة لذلك الانقلاب الذي قد أشرنا إليه آنفاً . وليس هذا من ظننا وقياسنا فحسب ، بل قد شاهدنا أمارات تكميل هذا الانقلاب بعينينا هاتين وسمعنا عنها بأذنينا هاتين . وقد آل الأمر إلى أن المرأة المسلمة تخرج من بيتها سافرة متبرجة جاعلة أحكام القرآن والسنة الصريحة وراء ظهرها ، فتتناول الغداء والعشاء

في الفنادق الاوربية وتجلس في صف الرجال في قاعة السينما وتمشي في الأسواق من محل إلى آخر وتبيع وتشتري . وآفة الآفات أنها تأتي كل هذه الأعمال خلافاً للشرع الإسلامي ولا تندم أو تستحي منها بل تذكر أعمالها هذه بكل فخر وسرور وتوجه الملام إلى تلك العفيفة التي أبت أول الأمر أن تترك الحجاب الشرعي اتباعاً للقانون الإسلامي ، ولما نزعها زوجها إلى الخارج بالعنف فإنها استحيت من التفرج بين ظهراني الرجال ولم ترض أن تطوف في الأسواق وتحضر حفلات العشاء والرقص في فنادق (تاج) و(جرين) وتتنزه في المصايف والشواطيء لم ترض ذلك ولم تؤثره على الأشغال البيتية الرتيبة التي كلفها بها الله ورسوله . ومعنى ذلك أن روح الخروج على الإسلام قد جاوزت الرجال إلى النساء أيضاً وهن أيضاً أصبحن يعتبرن اتباع القوانين الاسلامية ـ لا عصيانها ـ شيئاً تندم عليه المرأة المسلمة وتخجل . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وإنا نتساءل : إن كنتم أنتم الذين تربيتم في حجور الامهات العابدات الصالحات قد انحدرتم إلى هذا كله فماذا يكون إذا افتقدت نساؤكم أيضاً الغيرة الإيمانية وتخطين حدود الإطاعة لله والرسول ، وماذا تكون حال الأجيال التي ستنشأ في حجور أولئك الآنسات المتفرنجات الجديدات ؟ وقل لي بالله إن الأولاد الذين سيرون أول ما يفتحون أعينهم آثار الحياة الافرنجية فيما حولهم ولن تقع عيونهم البريئة على مظهر من مظاهر الحضارة

والتمدن الإسلامي . ولن تقرع مسامعهم كلمات الله والرسول ولن ترتسم على ألواح ذهنهم وقلبهم الصافية إلا نقوش الطريقة الافرنجية منذ أول يوم ، هل يمكن أن يرجى منهم أن يكونوا مسلمين في عواطفهم وأفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم أو في أي شيء آخر ! .

إن المرحلة الأولى لجريمة ما هي أن يرتكبها الإنسان ولكن يعتبرها جريمة ويندم عليها . مثل هذه الجريمة إنما تستحق العقاب بحسب نوعيتها ودرجتها فحسب ، بل هي قد تغفر لمرتكبها إذا تاب إلى الله وندم على ما فعل ، لأن مثل هذه الجريمة تعتبر من مظاهر ضعف الإنسان .

والمرحلة الثانية للجريمة هي أن يتولى كبرها الإنسان ثم يعد فعله هذا حسنة « لا سيئة » فيعلن به بكل فخر . ومعنى هذا أن الرجل ليس في قلبه احترام لذلك القانون الذي قد قرر ذلك الفعل جريمة .

والمرحلة الأخيرة النهائية للجريمة هي أن لا يكتفي الإنسان بأن يرتكب ما يخالف قانوناً من القوانين ، بل يعتقد جريمته تلك جائزة وعملاً مستحسناً باعتبار قانون آخر يخالف ذلك القانون ، ويستهزيء بالقانون الذي يقرر فعلته تلك جريمة ، ويخطيء متبعيه . مثل هذا الرجل لا يعصي القانون فحسب بل هو يهينه ويرتكب البغي عليه .

كل من أوتي حظاً من العقل السليم لا بد أن يسلم بأن

الإنسان إذا وصل إلى هذه المرحلة النهائية فإنه لا يمكن أن يبقى في حدود القانون الذي قد بغى عليه علناً . ولكن ما أخبث الشيطان الذي يقنعكم بأنه يمكن أن تظلوا مسلمين مع إهانتكم للإسلام وتهكمكم به وتعييركم لاتباعه وتصويبكم لعصيانه . فبجانب ها أنتم أولاء تستقبحون ما يستحسنه الله والرسول وتستحسنون ما يستقبحانه ، وتعدون صواباً ما يجعلانه إثماً وتعدون ذنباً ما يجعلانه ثواباً ، وتسخرون بما يأمران به وتعصون ما يضعان من قانون ، ثم لا تخجلون عليه بل تخجلون - على العكس - ممن يتبع ذلك القانون ، وبجانب هذا ادعاؤكم أنكم تؤمنون بالله والرسول وتعمر قلوبكم عظمتهما وتتبعون الدين الذي يرتضيانه - أي الإسلام - فهل يمكن لذي عقل أن يقبل أن هذا الادعاء الفارغ مع ذلك العمل أمر يصح ويجوز . ولئن كان من الممكن أن يجتمع الإنكار بالإيمان والإهانة بالتعظيم ، وإن كان من الممكن إن يحترم المرء أحداً ويستهزيء به في الوقت نفسه ، وإن كان يتصور أن المرء الذي يفتخر بالمخالفة ويعد الاتباع حقيقاً باللائمة يكون متبعاً ومطيعاً قانتاً ، فإنه لا بد أن يذعن بأن البغي هو الإطاعة عينها وأن الإهانة هي التعظيم نفسه وأن الإنكار هو الإيمان في الواقع ، وأن الذي يحقرك ويركلك برجله هو في الحق يعظمك ويكرمك وأن الذي يسخر منك هو الذي يحترمك وأن الذي يفندك ويدعوك كاذباً هو الذي يصدقك ! .

إلا أن الإسلام ليس بشيء غير الإطاعة . ولا تتحقق الإطاعة الحقيقية بغير الإيمان ، وأولى مقتضيات الإيمان أنه إذا بلغ المرء أمر من أوامر الله والرسول خضع له خضوعاً ولم يسعه أن يرفع رأسه بازائه . ﴿ إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكمَ بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾[١] . ثم أن هذا الخضوع يجب أن يكون عن طوع ورضى ، لا عن كراهية ، حتى ولا يجد المرء في قلبه من حرج أو سخط على ما يأمر به الله والرسول . ومن تظاهر بالخضوع والتسليم ووجد في نفسه حرجاً من كل هذا فإنه ليس بمؤمن ، بل في زمرة المنافقين . ﴿ وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزلَ الله وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقين يصدُّون عنك صدوداً ﴾[٢] . ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحكموك فيما شَجرَ بينهمْ ثم لا يجدوا في أنفسِهْم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما ﴾[٣] .

ولكنه من رفض اتباع الأمر علانية وهجر شريعة الله والرسول ليتبع القوانين الاخرى واعتقدها صحيحة وحقاً ، وبجانب اتباعه لتلك القوانين سخر من شريعة الله والرسول وقبح إطاعتها والتزامها فإنه لا يمكن أن يكون مؤمناً وإن كان يدعو نفسه مسلماً بلسانه ويتسمى باسم من أسماء

(١) النور : اية ـ ٥١ .
(٢) النساء اية ـ ٦٥ .
(٣) النساء اية ـ ٦١

المسلمين وكان اسمه مقيداً في ثبت المسلمين في سجل الإحصاء . وذلك أن المرء يمكن أن يبقى مؤمناً مع ارتكابه لمعصية ولكن بشرط أن يعتبر معصيته معصية ويندم عليها ويسلم بذلك القانون الذي قد ارتكب عصيانه لضعف كامن في فطرته . ولكنه إذا كانت مع المعصية الوقاحة واللجاج وكان المرء يتباهى بها ويستحسنها ويلوم من يحجم عنها ، فإن هذه المعصية لعمر الله لا يمكن إن يبقى بعدها الإيمان أبداً ، وعلى المرء قبل أن يدخل في هذه المرحلة أن يقضي ويقطع : هل أنه يريد أن يبقى في دائرة الإسلام أو يجب أن يغادرها ويدخل في إطاعة القانون الذي قد انشرح صدره لاطاعته !

ومن فضل الله على هذه الامة أن عامة المسلمين بمأمن بعدُ من هذا التيار العنيف للطريقة الافرنجية والثورة الالحادية . فلا تزال قلوبهم الاسلامية كثيراً أو قليلاً . ولكن سلوك الخاصة كما أثر من قبل في أخلاق هؤلاء وشؤونهم ، كذلك يخشى أن يصيب سلوكهم هذا الجديد إيمان هؤلاء الضعاف بتأثيره المهلك ، وإن السرعة التي يزداد بها ميل العامة المسلمين إلى ترك الصوم والصلاة واقتراف المنكر والمنهي عنه وتقليد الطرق الأفرنجية والتفرج بالألعاب والمعارض المسرحية والسينمائية التي تعرض الحضارة الأفرنجية بمظهر خلاب . هي في الحق منبهة على الخطر المخشي الآتي . ولئن لم يقوم عوج مترفينا في الفكر والرأي وبقي عدولهم عن

صراط الإسلام المستقيم على ما هو عليه الآن ، فإنه لا يبعد اليوم الذي تبتلي جميع الأمة فيه بهذا الضلال وتتحقق سنة الله التي أشار إليها القرآن بقوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً ﴾ .

الفصل الرابع عشر

الفساد الاجتماعي

من القواعد الكلية التي اثبتها القرآن أن الله تعالى ليس بظالم ، حتى يهلك أمة بلا سبب وهي تعمل صالحاً ﴿ وما كان ربُّك لِيُهلك القُرى بِظُلم وأهْلُها مُصلِحون ﴾[1] ، وليس المراد بهذا الإهلاك والتدمير أن تقلب طبقات البلاد ويورد العمران الإنساني حياض الموت فحسب ، بل من صور الإفناء والتدمير أيضاً أن يشتت أمر الأمم وتكسر قوتهم الاجتماعية وتضرب عليهم الذلة والعبودية والخزي . وبحسب هذه القاعدة القرآنية لا يصيب أمة ما أي نوع من أنواع الدمار والخراب إلا إذا تركت منهج الخير والصلاح وأخذت تسلك مناهج الشر والفساد والعتو والعصيان ، وبذلك ظلمت نفسها بنفسها . وإن الله تعالى حيث ما ذكر في كتابه أمة أصيبت بعذاب وهلاك قد ذكر بجانب ذلك جريمتها أيضاً إثباتاً لتلك القاعدة ، حتى يتبين للناس أن وبال أعمالهم السيئة هو

---

(١) هود ـ آية ١١٧ .

الذي بفسد دنياهم وآخرتهم ﴿ فَكُلًّا أخذْنا بِذَنْبه . . وما كان الله لِيَظلِمَهم . ولكن كانوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمون ﴾(١) .

والأمر الآخر الذي يستخرج من هذه القاعدة هو أنه لا يكون باعث الهلاك والدمار هو الفساد الفردي بل هو الشر والفساد الاجتماعي القومي . . ومعنى ذلك أنه إن كانت المفاسد الاعتقادية والعملية إنما توجد متفرقة في الأفراد وكان مستوى الأمة الديني والخلقي رفيعاً من حيث المجموع بحيث بحيث يحجب مساويء الأفراد ، فمهما يكن من فساد سيرة الافراد على حدة تظل الأمة من حيث المجموع محتفظة بكيانها ولا تحل بها فتنة عامة تجر عليها الهلاك بأكملها . ولكنه متى جاءت المفاسد الاعتقادية والعملية تجاوز الافراد إلى الأمة بأسرها وتخدر شعور الأمة الديني والأخلاقي إلى حد أنها أصبحت صالحة لأن يزكو فيها الشر والفساد بدل الخير والصلاح فإن العناية الإلهية عندئذ تنصرف عن هذه الأمة ، وتأخذ هذه بالهبوط من علياء العز إلى درك الهوان ، حتى تحين الساعة التي يهيج فيها غضب الله عليها فيدمرها تدميراً .

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من أمثلة هذه الأمم .

فتلك أمة نوح عليه السلام قد اهلكت حين تأصلت فيها مفاسد الاعتقاد والعمل وجعلت تنمو وتنتشر في المجتمع كله

(١) العنكبوت ـ آية ٤٠ .

ولم يبق من أمل في أن شجرتها الخبيثة ستنتج ثمراً صالحاً أبداً . فاضطر نوح ـ عليه السلام إلى أن ينادي ربه : ﴿ رَبِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً . إنك إن تَذَرْهم يضِلوا عِبَادَك ولا يَلِدوا إلا فاجراً كَفَّاراً ﴾[١] .

وتلك عاد أهلكوا حينما بلغ الشر والفساد من نفوسهم بحيث أصبح المفسدون الظالمون الأشرار زعماءهم وحكامهم . ولم يبق لأهل الخير والصلاحْ من متسع في نظامهم الاجتماعي ﴿ وتلك عادٌ جَحَدوا بآيات رَبِّهم وعصوا رُسلَه ، واتبَّعوا أمْر كلِّ جَبَّارٍ عَنيدٍ ﴾[٢] .

وأمة لوط ـ عليه السلام ـ قد أخذها الله بعذابه عندما بلغ من تبلد حسهم الخلقي ووقاحتهم ونذالتهم أن عادوا يرتكبون الفواحش علانية في المجالس والأسواق ، ولم يبق فيهم شعور بكون الفواحش فواحش ﴿ أإنَّكم لَتَأْتُون الرجالَ وتَقْطعون السَّبيلَ وتَأْتُون في ناديكُم الْمُنْكر ﴾[٣] .

وأهل مدين ذاقوا عذاب الله عندما أصبحت الأمة كلها خائنة غاشة سيئة المعاملة . ولم يبق التطفيف في الوزن والكيل وأخذ الزائد على الحق شيئاً معيباً عندهم . ومات الحس الخلقي فيهم إلى حد أنهم متى عذلوا على ذلك لم

---

(١) نوح ـ آية ٢٦ .

(٢) هود ـ آية ٥٩ .

(٣) العنكبوت ـ آية ٢٩ .

يطرقوا احياء وندامة بل أقبلوا على العاذل نفسه يلومونه . ولم يشعروا أن فيهم عيباً يستحق الملام . وكانوا لا يستقبحون الفواحش ، بل يخطئون من يندد بها ويعتبرونه حقيقاً بالطعن والملام ﴿ ويا قوْمِ أوْفوا الكَيْلَ والميزان بالقِسْطِ ولا تَبْخسوا النّاسَ أشياءهُم ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين . . قالوا يا شُعَيْب ما نَفْقَه كثيراً مِمّا تَقول وإنا لنَراك فينا ضَعيفاً ولولا رهْطُك لَرَجمْناك ﴾(١) .

وأما بنو إسرائيل فقد قضي بضرب الذلة والمسكنة عليهم وابتلائهم بغضب الله ولعنته حينما جعلوا يندفعون إلى العمل السيء والعدوان وأكل الحرام ، وأُصيب زعماؤ هم وهداتهم بمرض الأثرة والجري وراء المصالح الذاتية ، يسامحون الخطايا والذنوب وليس فيهم رجال يدعون العيب عيباً وينهون عنه ﴿ وترى كَثيراً منْهم يُسارعون في الإثْم والعُدوان وأكلِهم السُّحت ، لَبِئْس ما كانوا يَعْملون . لولا يَنْهاهم الرَّبانيُّون والأحْبار عن قَولهم الإثم وأكلِهم السُّحت ، لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ (٢) . ﴿ لُعِن الذين كَفَروا منْ بَني إسْرائيل على لِسانِ داوود وعيسى ٱبنِ مَرْيم . ذلِكَ بما عصَوا وكانوا يَعْتدون . كانوا لا يَتَناهوْن عنْ مُنْكرٍ فَعلوهُ ﴾(٣) .

والاحاديث التي أثرت عن النبي ﷺ في تفسير هذه الاية

---

(١) هود ـ آية ٨٥ .
(٢) المائدة ـ اية ٦٣ .
(٣) المائدة ـ آية ٧٩

الأخيرة توضح مطالب القرآن الكريم إيضاحا مزيدا . وخلاصة تلك الآثار جميعا أن النبي ﷺ أخبر أنه : لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي كان الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : ﴿ لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لِسان داود وعيسى ابن مريم . . الخ ﴾ . قالوا وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : « لا والذي نفسي بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرأ أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض وليلعننَّكم كما لعنهم » .

إن فساد الاعتقاد والعمل مثله كمثل الأوبئة . فإن مرضاً وبيئاً من هذه الأمراض يصيب أولاً بعض الأفراد الضعاف . فإن كان المناخ جيداً والتدابير المتخذة للرعاية الصحية محكمة وكان هناك نظام مضطرد معمول به لإزالة الأقذار والانجاس وعولج المصابون الأولون بدون تأخير ، فإن هذا المرض لا يتحول إلى وباء عام ، ويسلم منه عامة الناس . ولكنه إن كان الأطباء غافلين وكان قسم الرعاية الصحية غير مهتم بواجبه ، والمسؤولون عن التنظيف قد أصبحوا يحتملون وجود النجس والقذر ، فإن جراثيم المرض تنتشر في الجو رويداً رويداً ويبلغ من سوء تأثيرها في المناخ العام أنه يعود صالحاً لفشو المرض بدل الصحة . حتى إذا لم يجد عامة

أفراد البلد أي شيء من الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس سالماً من أثر النجس والسمية فإن قوة حياتهم تبدأ تخونهم ويصاب السكان جميعاً بالوباء العام ، فحينئذ لا يستطيع حتى أقوى الأفراد وأصحهم أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة المرض ، بل المرض يعم حتى الأطباء المعالجين أنفسهم ومن معهم من القائمين على التنظيف والرعاية الصحية ، ولا ينجو من الهلاك حتى أولئك الذين يتخذون بالنسبة لأنفسهم جميع التدابير الصحية ويستعملون الأدوية والعقاقير ، لأن تسمم الهواء وتغير الماء واتساخ الأرض وفساد وسائل الغذاء ليس مما ينفع في وجهه أي علاج أو تدبير وقائي .

وقس على هذا كله فساد الأخلاق والأعمال وضلالات الاعتقاد . فالعلماء هم أطباء الأمة . والحكام ورجال الدولة هم القائمون على التنظيف والرعاية الصحية . والغيرة الإيمانية للأمة والحاسة الخلقية للمجتمع هي بمثابة قوة الحياة (Vitality) . والبيئة الاجتماعية تقوم مقام الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس . ومنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة القومية باعتبار الدين والخلق كمنزلة عمل التنظيف والتدابير الصحية باعتبار الصحة الجسدية . فمتى ترك العلماء وأولـو الأمر واجبهم الحقيقي وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعادوا يحتملون وجود الشر والفساد ، فإن الضلال والانحلال الخلقي يأخذان في الانتشار بين أفراد الأمة ،

وتجعل الغيرة الإيمانية فيهم تضمحل وتتلاشى حتى تفسد البيئة الاجتماعية كلها ويصبح جو الحياة صالحاً للفساد وغير صالح للخير والصلاح ، فيفر الناس من الحسنات ، وينجذبون الى السيئات بدل أن ينفروا منها ، وتنقلب القيم الأخلاقية رأسا على عقب . فتعود المعايب محاسن والمحاسن معايب . وعندئذ تنمو الضلالة والمفاسد الخلقية ، ولا يبقى هناك من بذرة للخير تصلح للنمو والنبات ، إذ يأبى كل من الأرض والماء والهواء أن يغذيها وينشئها لكون هذه كلها منصرفة بجميع قواها إلى تغذية الشجرة الخبيثة وتنميتها . فإذا وصلت أمة من الأمم إلى هذا الحال فإنها تستحق العذاب الإلهي ويحل بها من النكبة الشاملة ما لم يسلم منه أحد وإن كان يعبد ليل نهار في الزوايا والخلوات .

وفي هذا قال الله عز وجل في القرآن : ﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الذَّين ظَلَمُوا مِنْكم خاصَّة ﴾[١] . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرة هذه الآية أن المراد بقوله تعالى أن لا تقروا المنكر بين ظهرانيكم فيعمكم الله بالعذاب . وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه . فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

إن انجع الأسباب للمحافظة على صحة الأمة الخلقية والدينية هو أن توجد في كل فرد من أفرادها الغيرة الإيمانية والحاسة الخلقية التي قد عبر عنها النبي ﷺ بكلمة « الحياء » الجامعة . إن الحياء في الحقيقة جزء من الإيمان كما قال النبي ﷺ : « إن الحياء من الإيمان » . بل سأله سائل في مناسبة أخرى : هل الحياء جزء من أجزاء الإتمان ؟ فقال النبي ﷺ : « بل هو الدين كله » .

والمراد بالحياء أن تشعر نفس المرء بانقباض فطري من السيئة والمعصية فيكرهها قلبه . فالذي كان على هذه الصفة فإنه لا يجتنب القبائح بنفسه فحسب ، بل لا يصبر على رؤ يتها في غيره أيضاً ، فهو لا يستطيع أن يرى السيئات ترتكب أمامه ولا يمكنه أن يهادن المعصية والظلم . وإذا ارتكبت السيئة أمامه هاجت فيه الغيرة الدينية وهب ليمنعها ويمحوها بيده أو بلسانه ، أو تململ على الأقل في نفسه حرصاً على محوها . وفي ذلك جاء قول النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فالإمة التي تتصف بهذه الصفة على العموم ، يسلم دينها من الآفات ولا يهبط مستواها الخلقي لأن كل فرد من أفرادها يكون محاسباً ورقيباً للآخر ، ولا يجد فساد العقيدة والعمل منفذاً للدخول في كيان الأمة .

إن غاية القرآن الكريم في الحقيقة هي إيجاد مجتمع

مثالي كهذا يقوم كل واحد من أفراده بواجب الرقابة والاحتساب بميلانه الطبيعي وغيرته الفطرية وحافزه القلبي ، ويكون في مجتمعه محتسباً ربانياً بدون ان يأخذ على عمله ذلك أجرة ﴿ وكذلِكَ جعلنْاكم امَّةً وَسطاً لِتكونوا شُهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾[١] .

لأجل ذلك يبين للمسلمين مرة بعد أخرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خصيصتهم القومية التي يجب أن تتحقق في كل رجل منهم وامرأة .

﴿ كُنْتم خَيْرَ أمَّةٍ أخْرجت للناس تأمُرون بالمعْروف وتَنْهون عن المُنكَر وتُومنون بالله ﴾[٢] .

﴿ والمُؤمِنون والمؤمِناتُ بَعضُهم أولْياءُ بَعض يأمرون بالمعروف ويَنهَون عن المُنكَر ﴾[٣] .

﴿ الآمِرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكَر والحافظون لِحُدود الله ﴾[٤] .

﴿ الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة وأمَروا بالمعروف ونَهوا عن المنكَر ﴾[٥] .

فان كان المسلمون على ما تدعو إليه هذه الآيات كان

---

(١) البقرة - آية ١٤٣ .
(٢) آل عمران - آية ١١٠ .
(٣) التوبة - آية ٧١ .
(٤) التوبة - آية ١١٢ .
(٥) الحج - آية ٤١ .

مثلهم كمثل البلدة التي يكون كل واحد من سكانها ذا إحساس وشعور بالنظافة والرعاية الصحية ، فهو لا يطهر جسمه وبيته فحسب ، بل يزيح النجس والقذر أينما وجده فيما حوله ، ولا يصبر على رؤ ية أثر من آثار النجس في أي مكان . فمن الظاهر أن مثل هذه البلدة يبقى هواؤ ها صافياً نظيفاً ولا تنمو فيها جراثيم الأمراض . ولئن كان بين سكانها رجل مريض أو ضعيف على الوجه النادر الشاذ عولج للحال أو كان مرضه على الأقل مرضاً شخصياً لا يتعداه إلى الآخرين ويتخذ صورة الوباء العام .

ولكنه إن لم تتمكن الأمة المسلمة كلها من البقاء بهذه الدرجة السامية فلا أقل من أن تكون منها طائفة تكون في كل حين مستعدة لتعهد صحة المجتمع الدينية والخلقية ، وتظل تعمل دائماً لإزالة درن الاعتقاد ونجس الأخلاق والأعمال . ﴿ ولْتكُن مِنكم أمَّةٌ يدعُون إلى الخير ويأمُرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[١] .

والمراد بهذه الأمة هو جماعة العلماء وأولي الأمر التي يجب أن تكون منهمكة أبداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب أن يكون قسم التنظيف والرعاية الصحية في البلدة مستعداً أبداً للقيام بواجباته . فإن أغفل العلماء وأولو الأمر واجبهم هذا ولم يبق في الأمة جماعة واحدة تدعو إلى

---

(١) آل عمران ـ آية ١٠٤ .

الخير والصلاح وتصد عن المنكرات ، فإن هلاك تلك الأمة من ناحية الدين والأخلاق أمر محتوم ، كهلاك البلدة التي لا تتخذ فيها تدابير التنظيف والرعاية الصحية . وإن الآفات والنكبات التي نزلت بالأمم السالفة إنما نزلت لأنها لم تبق من بينهم طائفة واحدة تنهاهم عن المفاسد وتسعى لإصلاحهم وإبقائهم على الخير والصلاح . ﴿ فلولا كان مِن القُرون مِن قَبْلكم أولُو بَقيَّةٍ يَنهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجَيْنا منهم ﴾(١) . ﴿ لولا ينهاهم الرَّبانِيُّون والأخبار عن قولِهم الإثم وأكِلهم السُّحت ﴾(٢) .

لأجل ذلك إن واجب العلماء والمشايخ وأولي الأمر من كل أمة هو أكبر الواجبات والتبعات . وذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن أعمالهم أنفسهم فحسب بل تقع عليهم أيضاً إلى حد كبير تبعة أعمال الأمة بكاملها . ولا نقول شيئاً في أمر الظالمين الماجنين ومن يتملقهم من العلماء والمشايخ لأن الله سيصنع بهم يوم الحساب ما يصنع ، وإنما الحق أنه لن ينجو من هذه المسؤولية عند الله أولئك الأمراء والعلماء والمشايخ لأن الله سيصنع بهم يوم الحساب ما يصنع ، وإنما الحق أنه لن ينجو من هذه المسؤولية عند الله أولئك الأمراء والعلماء والمشايخ الذين هم قابعون في قصورهم وبيوتهم وزواياهم يزاولون التقوى والزهد ويشتغلون في العبادة والرياضة . وذلك

(١) هود ـ آية ١١٦ .
(٢) المائدة ـ آية ٦٣ .

أنه إذا كانت أمتهم قد أحاط بها من كل جانب طوفان من الضلال والانحلال الخلقي فإنه ليس من شأنهم أن يجلسوا في زواياهم خاشعين منهمكين في العبادة بل من واجبهم أن ينبروا كالمناضلين ويستخدموا كل ما آتاهم الله من القوة والنفوذ في مقاومة هذا الطوفان . وإنه لا شك أن المسؤولية في دفع هذا الطوفان وصد تياره ليست عليهم ، ولكنهم مسؤولون ولا شك عن أن يبذلوا أقصى وسعهم وإمكانياتهم في مقاومته وإذا هم قصروا في القيام بهذه المسؤولية فلن تبرئهم عبادتهم ورياضتهم وتقواهم الشخصية من مسؤوليتهم يوم الفصل . وأنت لن تعفي من المسؤولية موظف التنظيف والرعاية الصحية الذي إذا انتشر الوباء في البلدة وراح ضحيته آلاف من الناس ، انقبع في بيته ولم يفكر إلا في إنقاذ نفسه وأهله وعياله من أثر الوباء . فهذا إن فعله عامة سكان البلدة لم يلاموا عليه كثيراً . ولكنه إن فعل مثل هذا الفعال الموظف المسؤول عن التنظيف والرعاية الصحية فإنه لا يبقى هناك من شك في كونه مجرماً عظيما .

* * *

الفصل الخامس عشر

الإيمان والطاعة

إن التنظيم الاجتماعي مهما كان نوعه ومهما كانت أغراضه وأهدافه يفتقر أبداً لقيامه وثباته ولنجاحه وتوفيقه إلى أمرين اثنين : أولهما أن تكون المباديء التي شكلت عليها الجماعة راسخة في نفوس الجماعة كلها وفي ذهن كل فرد من أفرادها ، ويكون كل فرد من الجماعة حريصاً عليها ومؤثراً لها على كل شيء آخر . والآخر أن تتأصل في الجماعة ملكة الطاعة والسمع فتطيع الجماعة من انتخبه أميراً عليها وتتبع أحكامه وتلتزم ما يقرره لها من قانون أو ضابطة ولا تتعداه أبداً . فهذان شرطان لا بد منهما لنجاح كل نظام . وكل نظام سواء أكان عسكرياً أم سياسياً أو عمرانياً أم دينياً لا يمكن أن يقوم بدون هذين الشرطين ولا أن يبقى ويستمر ، ولا أن يبلغ غايته بدونهما .

خذ تاريخ العالم كله وسرح النظر فيه من أوله الى الآخر لن تجد مثالاً واحداً لحركة نجحت ـ أو تمكنت على الأقل

من أن تبقى سائرة في طريقها - مع أتباع من ذوي الجبن والنفاق يعصون أمر القائد ، ولا حاجة لذلك إلى الخوض في صفحات التاريخ بل انظر إلى ما حولك من الدنيا ، فماذا يكون من رأيك في جيش لا يكون موالياً لدولته ولا مطيعاً لقائده ، ويأبى رجاله اتباع الضوابط العسكرية . فإذا ضرب الناقوس للخروج إلى العرض العسكري لم يتحرك جندي واحد من مكانه . وإذا أصدر القائد أمراً لقي من الجنود آذاناً صماء . فهل لك أن تدعو هذا الجمع المختلط من الجنود « جيشاً » ؟ وهل لك أن ترجو من هذا الحشد الذي لا قائد له ولا طاعة فيه أنه سيظفر في معركة ؟ وماذا تقول في دولة لا يبقى عند رعاياها احترام القانون ، فتعصى قوانينها علانية ولا يبقى في أقسامها وشعبها من ضبط أو نظام ، ويترك عمالها العمل بما يأمر به ذو السلطة العليا فوقهم ؟ هل لك أن تقول أنه يمكن أن تقوم دولة في هذه الدنيا بمثل أولئك الرعايا وهؤلاء العمال ؟ وأمامك اليوم مثال من دولتي ألمانيا وإيطاليا وأن القوة الجبارة التي اكتسبها هتلر ومسوليني قد اعترف بها اليوم العالم كله . ولكن هل تعلم ما هي أسباب هذه القوة ؟ إن أسبابها هي الأمران اللذان قد سبق ذكرهما : أي الإيمان وإطاعة الأمر . ولم تكن الجماعة النازية والفاشية لتكسب مثل هذه القوة والنجاح ، لولا أنها تؤمن بمبادئها هذا الإيمان الراسخ وتطيع قادتها تلك الإطاعة المحكمة الشديدة .

هذه الفائدة الكلية لا استثناء فيها . وذلك أن الإيمان

والإطاعة في الحقيقة روح التنظيم . فبقدر ما كان الإيمان راسخاً وكانت الإطاعة كاملة كان التنظيم أقوى وأمتن وأنجح في بلوغ مراميه . وبخلاف ذلك كلما ضعف الإيمان ونقصت الإطاعة كان التنظيم أضعف بحسب ذلك وأفشل في بلوغ مراميه . وإنه لمن غير الممكن أبداً أن تنتشر في جماعة ما أمراض النفاق وسوء الاعتقاد والشرود الفكري والعتو والعصيان وعدم الالتزام ، ثم يبقى فيها النظام وتوجد سائرة نحو الرقي في أية شعبة من شعب الحياة . فهاتان الحالتان متناقضتان ، ولم تجتمعا قط مذ كانت الدنيا . ولئن كان قانون الفطرة أمراً محتوماً لا يرد ، فإن هذه الجزئية منه ـ وهي أن هاتين الحالتين لا توجدان معاً ـ أيضاً أمر محتوم لا يرد .

ثم أنظر في حالة الأمة التي تدعى مسلمة . فأي لون من ألوان النفاق وسوء الاعتقاد هو الذي يمكن أن يتصور وهو ليس بموجود في المسلمين ؟ إن نظام الجماعة الإسلامية قد انخرط فيه حتى أولئك الذين هم يجهلون ابسط تعاليم الإسلام ويستمسكون إلى الآن بعقائد الجاهلية . وقد انخرط فيه أيضاً أولئك الذين يشكون في مبادىء الإسلام الأساسية وينشرون شباتهم هذه بين الناس ويدعون إليها علناً . كما انخرط فيه قوم يعلنون بكفرهم وإنكارهم بلا تحرج ، وقوم آخرون يتهكمون بالعقائد والشعائر الإسلامية على رؤوس الأشهاد . وفي سلك الجماعة المسلمة أيضاً أولئك الذين يظهرون علانية نفرتهم من الدين والطريقة الدينية ، أولئك

الذين يؤثرون الأفكار والآراء المستقاة من الأجانب على تعاليم القرآن والسنة وأولئك الذين يقدمون على شريعة الله والرسول قوانين أهل الكفر وتقاليد الحياة الجاهلية ، وأولئك الذين يستخفون بشعائر الإسلام ترضياً لأعداء الله والرسول ، وأولئك الذين يقدمون على أن يضروا الإسلام أكبر ما يكون من الضرر لأجل مصلحة من مصالحهم الشخصية الصغرى . كما في سلكها أولئك الذين يمالئون الكفار على الإسلام ويخدمونهم بخلاف المقاصد الإسلامية ، ويثبتون بعملهم أنهم لا يحبون الإسلام حتى بقدر أن يتحملوا لأجله خسارة مهما تفهت . وما عدا الفئة القليلة من المسلمين الراسخين في الإيمان الأصحاء العقيدة تشتمل الأكثرية الساحقة من هذه الأمة على أمثال هؤلاء المنافقين ذوي العقيدة الفاسدة .

هذا من جهة الإيمان . ولنستعرض الآن حالة السمع والطاعة . إنك إن ذهبت إلى بلدة عامرة بالمسلمين رأيت العجب العاجب منه . ينادي المؤذن للصلاة ولكن كثيراً من المسلمين لا يحسون من هو الذي ناداه المؤذن ، ولأي عمل ناداه . ويحين وقت الصلاة وينقضي . ولكنه ليس من بين المسلمين من يذر عمله أو لهوه ولعبه لذكر الله إلا الفئة القليلة جداً . ويأتي شهر رمضان فلا تكاد تحس من بعض بيوت المسلمين أنه شهر الصوم . وكثير من المسلمين يأكلون ويشربون علانية ولا يخجلون من عدم صيامهم ولو قليلاً ، بل

هم يخجلون - على العكس - ممن يصوم من المسلمين إن عرضت المناسبة لذلك . ثم إن الذين يصومون قل منهم من يفعل ذلك مع الشعور التام بالواجب . وإنما منهم من يصوم عملاً بالتقليد الجاري في مجتمع المسلمين . ومنهم من يصوم للفائدة الصحية . ومنهم من يصوم ومع ذلك يقترف كل ما نهى الله ورسوله عنه . أما الزكاة والحج فالعمل بهما والتزامهما أقل وأنزر . وكذلك لا يزال ينعدم في المسلمين التمييز بين الحلال والحرام والطيب والخبيث . فأي شيء قد منعه الله والرسول لا يستبيحه المسلمون لأنفسهم وأي حد مما قرره الله والرسول من الحدود لا يتعداه المسلمون ؟ وأي ضابطة قد وضعها الله والرسول لا يلغيها المسلمون . ولئن راجعت إحصاء المسلمين في العالم لوجدتهم مئات الملايين . ولكن انظر كم في المئة منهم ، بل كم في الألف ، بل كم في المئة ألف ، هم الذين يتبعون أحكام الله والرسول ويلتزمون الضوابط الاسلامية .

إن الأمة التي يعم فيها مرض النفاق وضعف الاعتقاد ، والتي يموت فيها الاحساس بالواجب ويذهب عنها السمع والطاعة والتزام القانون تستحق من المآل السيء ما قد وصل إليه المسلمون ولا يزالون . إن المسلمين اليوم محكومون ومغلوبون في العالم كله . وان الاقطار التي هم فيها مستقلون ليسوا متحررين فيها من السيطرة المادية والعقلية والخلقية للأجانب . أما الجهل والفقر والشقاء فهي مضرب المثل في

كل ذلك . وإن الانحطاط الخلقي قد أبلغهم قرار الذلة والهوان . وإن صفات الأمانة والصدق وإيفاء العهد التي كانوا يمتازون بها في العالم سابقاً قد انتقلت منهم إلى غيرهم ، وقد استعاضوا منها رذائل الخيانة والكذب والغش وسوء المعاملة ، ولا يزالون يتجردون مع الأيام عن التقوى والعفاف وطهارة الأخلاق ، ويفقدون الغيرة والحمية شيئاً فشيئاً . ولم يبق فيهم أي وحدة أو تنظيم ، فقلوبهم شتى ولم يعودوا يصلحون للتعامل لأجل مقصود مشترك . وإنهم قد ضيعوا قدرهم بعد ذلك في نظر غيرهم وافتقدوا ثقتهم لدى الأمم ولا يزالون يفتقدونها إلى هذا اليوم . ولا تزال قوتهم القومية والاجتماعية تضمحل على مرور الأيام ولا يزال تهذيبهم وثقافتهم القومية تنحو نحو الزوال . وإنهم ليزدادون عجزاً عن الدفاع عن حقوقهم ، والاحتفاظ بعزهم القومي . ومع أن التعليم لا يزال ينتشر فيهم وعدد الحائزين لشهادات البكالوريا والماجستير ، والمتعلمين في بلاد الغرب إلى الزيادة يوماً فيوماً ، وينمو فيهم عدد الساكنين في الفيلات (Villas) والراكبين للسيارات واللابسين للبدلة الأوربية والمدعوين بالأسماء والألقاب الضخمة ، والمقربين إلى جناب الحاكم الاعلى ، ولكن الصفات الخلقية العليا التي كانوا متحلين بها فيما مضى قد تعطلوا منها الآن . ولم يبق لهم شيء مما كانوا عليه فيما مضى من المهابة والقدر الرفيع لدى الأمم لمجاورة . وقد ضل عنهم أيضاً ما كانوا يملكون من القوة

والنجدة الاجتماعية وأما ما ينبيء به المستقبل من حالهم فهو أسوأ من هذا كله وأردأ .

كل دين أو حضارة أو نظام اجتماعي يمكن أن يُقبل من الإنسان تجاهه مذهبان اثنان لا غير : أولهما أنه إذا كان داخلاً فيه فعليه أن يؤمن بمبادئه الأساسية إيماناً كاملاً ويتبع قانونه وضابطه كل الاتباع . والآخر أنه إن لم يستطع أن يعمل بذلك فلا يدخل فيه . وإن كان قد دخل بعد فليخرج منه علانية . وليس بين هذين المذهبين صورة معقولة أخرى للعمل . وليس أسخف وأبعد عن المنطقية أن تكون داخلاً في نظام وتعيش بينه كجزء من أجزائه وتدعي كونك متبعاً له ، ثم تنحرف عن مبادئه الأساسية انحرافاً كلياً أو جزئياً فتعصي قانونه وتعفي نفسك من التقيد بضوابطه . إن من النتائج المحتومة لهذه الخطة العملية أن تنشأ فيكم صفات الكذب والنفاق وتخلو قلوبكم من صدق النية ولا ينبعث في أنفسكم حماس أو صرامة عزم لمقصود من المقاصد ، وتتجردوا من صفات الشعور بالواجب واتباع القانون والتزام الضابطة ولا تبقوا أهلاً لأن تكونوا أعضاء نافعين في نظام اجتماعي . إنكم بهذه الرذائل والنقائص الخلقية أينما ذهبتم وأي جماعة دخلتم فيها كنتم لها عاراً وسبة ، وأي نظام انضممتم إليه خربتم بنيانه ، وأي حضارة سريتم في جسمها كنتم لها كجراثيم الجذام وأي دين اعتنقتموه مسختموه مسخاً . وإنه لخير من أن تكونوا مسلمين بهذه الأوصاف أن تهجروا الإسلام

وتنضموا إلى الطائفة التي تقتنع نفوسكم بمبادئها وتستطيعون أن تتبعوا طرائقها . وإنه لخير من المسلم المنافق ذلك الكافر الذي يؤمن بدينه وحضارته صادق الإيمان ويلتزم ضوابطه .

وقد أخطأ من كان يظن في الماضي أن العلاج الناجع لمرض المسلمين هذا هو التعليم الغربي بالحضارة الجديدة وإصلاح الأحوال الاقتصادية ونيل الحقوق السياسية ، ومخطيء كذلك من يظن مثل ذلك في الوقت الحاضر . ولعمر الحق لئن أصبح كل فرد من أفراد المسلمين حائزاً لشهادة الدكتوراه والماجستير والمحاماة ، واغتنى وجمع من الثروة والأموال شيئاً كثيراً ، وزين نفسه بالطراز الأوربي الجديد من الملابس من قمة رأسه إلى أخمص القدم . ولئن حاز المسلمون إلى ذلك جميع مناصب الحكومة وجميع أماكن المجالس التشريعية ولكنه كان في قلوبهم بجانب هذا كله مرض النفاق ، ولم يظنوا واجبهم واجباً ، ومردوا على العتو والعصيان وعدم الالتزام ، فإنهم لا بد أن يبقوا على ما هم عليه اليوم من الضعف والضعة والخمول . ولم يكن لشيء من التعليم الجديد وتقليد الطراز الأوربي والثروة والحكومة أن ينتشلهم من الوهدة التي انحدروا إليها لضعف سيرتهم وأخلاقهم . فإن كنتم تريدون الرقي وتطمحون أن تكونوا جماعة قوية عزيزة فإنه يجب عليكم قبل كل شيء أن تثبتوا في المسلمين روح الإيمان وإطاعة الأمر ، إذ لا يمكن بدون ذلك أن تتقوى سيرة أفرادكم ولا أن ينتظم أمر

جماعتكم ، ولا يمكن بدون ذلك أن تجمعوا من القوة الاجتماعية ما تحتلون به مكان العز والرفعة في العالم . وذلك أن جماعة منتشرة متشتتة تسوء حالة أفرادها الخلقية والمعنوية لا يمكن أن تكون أهلاً لأن ترفع رأسها أمام أمم الأرض القوية المنظمة . وإن كومة من الزبل المجفف مهما علا وضخم لا يمكن أن تكون قلعة !

إن أسوأ أعداء الإسلام والمسلمين هم الذين يعممون في المسلمين داء العصيان وسوء الاعتقاد . وهؤلاء هم النوع الأضر الأسوأ من المنافقين الذين وجودهم أفتك بالمسلمين من وجود الكفار المحاربين ، لأنهم لا يهجمون على هذه الأمة من الخارج بل هم ينصبون لها المكايد ويوارون لهم الديناميت داخل مجتمعهم ، ويريدون أن يخزوا المسلمين في الدين والدنيا معاً ، وهؤلاء هم الذين جاء عنهم في القرآن الكريم : ﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ . فأقل التدابير لاتقاء شرهم هو أن يقطع صلته عنهم كل من هو مسلم من صميم قلبه ويريد أن يبقى مسلماً . فلا تتخذوا منهم أولياء . وإلا قد قرر القرآن الكريم من جزائهم النهائي أن يحاربوا كأعداء الاسلام . ﴿ فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ .

الفصل السادس عشر

المفهوم الحقيقي لكلمة "المسلم"

وقد راج في حوارنا اليومي كلمات وتراكيب ينطق بها الصغير والكبير ولكن قل منهم من يفهمها ويدرك غور معانيها . وبكثرة دوران تلك الكلمات على الألسن قد قر لها في أذهان الناس مفهوم إجمالي . فإذا تكلم بها ناطق أراد ذلك المفهوم ، وإذا سمعها سامع فهم منها نفس المفهوم المختزل . ولكن المعاني العميقة الدقيقة التي كانت وضعت لأجلها تلك الكلمات لا يهتدي إليها المثقفون فكيف بالجاهلين العاميين .

خذ مثلاً كلمتي « الإسلام » و« المسلم » . فما أكثر جريان هاتين الكلمتين على أفواه الناس وما أعم سيطرتهما على ألسنتنا . ولكن كم من الناطقين من ينطبق بهما وهو يشعر بما تتضمنان من المعاني ، وكم من السامعين من يسمعهما ويفهم منهما تمام المفهوم الذي كانتا وضعتا لأجله . إن في المسلمين أنفسهم ـ دع عنك ذكر غير المسلمين ـ تسعاً وتسعين في المئة بل أكثر من ذلك يدعون

أنفسهم « مسلمين » ويعبرون عن دينهم بكلمة « الإسلام » ولكنهم لا يعلمون ما هو « المسلم » وما هو المفهوم الحقيقي لكلمة « الإسلام » . فهيا بنا نصرف بعض أوقاتنا اليوم في تشريح هاتين الكلمتين .

إنك إن نظرت في أحوال الناس من ناحية الاعتقاد والعمل وجدتهم على أقسام ثلاثة في أغلب الأحوال .

أولها الذين يقولون علناً بحرية الرأي وحرية العمل . فهم في كل أمر من أمور حياتهم يعتمدون على رأيهم أنفسهم ويؤمنون بما تحكم به عقولهم وكفى ، ويختارون من طرق العمل ما يكون في رأيهم انفسهم صواباً . فهم لا علاقة لهم بدين من الأديان ولا هم يتبعونه .

والقسم الثاني يتألف من الذين هم يدينون بدين ما في ظاهر أمرهم . ولكنهم يتبعون في الحقيقة آراءهم وأفكارهم أنفسهم . فهم لا يرجعون إلى دينهم ليأخذوا منه العقائد وقوانين الحياة ، بل هم يتخذون بأنفسهم بعض العقائد حسبما تشاء أهواؤهم وميولهم وحاجاتهم ، ويختارون لأنفسهم طرقاً للعمل ثم يحاولون أن يصوغوا دينهم على صيغتها ويصبغوه بصبغتها ، فهم لا يكونون في الحقيقة أتباعاً للدين . بل الدين يكون تابعاً لهم ولأهوائهم .

والثالث يشتمل على الذين لا يستعملون عقولهم بل يعطلونها تعطيلاً ، ويجرون وراء غيرهم من الناس يقلدونهم

تقليداً أعمى ، سواء كان أولئك أجدادهم أم معاصريهم .

فالطائفة الأولى تتهالك على الحرية ولكنها لا تعلم حدودها الصحيحة . إن حرية الفكر والعمل لا شك صحيحة إلى حد ما ، ولكنها إذا جاوزت حدودها عادت ضلالا . فالرجل الذي لا يعتمد إلا على رأيه في كل أمر ولا يحتكم إلا إلى عقله في جميع الشؤون ، فهو واقع في سوء الفهم ويظن خطأ أن علمه وعقله قد أحاط بجميع أمور هذه الدنيا ، فلا تعزب عنه حقيقة أو مصلحة وأنه خبير بمعالم كل طريق في الحياة ، عارف بدقائق كل مذهب عالم بنهاية كل سبيل كعلمه ببدايتها . هذا الزعم للعلم والتعقل في الحق زعم خاطيء . وإن احتكم المرء إلى عقله بصدق ، لدله عقله بنفسه على أنه ـ أي العقل ـ لا يتصف بالصفات التي يظنها فيه مقلده الأعمى ، وأن الرجل الذي يتخذه قائداً ولا يسلك طريق حياته إلا على هديه لا يمكن أن ينجو من زلة أو صدمة أو مهلكة أو ضلال .

وهذا النوع من حرية الفكر والعمل ضار بالتمدن والحضارة أيضاً . فمما تقتضيه الحرية ألا يعتقد المرء إلا ما صح في رأيه نفسه وألا يسلك من الطرق إلا ما صوبه عقله هو . ومما يقتضيه التمدن والحضارة ـ بخلاف ذلك ـ هو أن جميع من يضمهم نظام التمدن يجب أن يكونوا متفقين في بعض العقائد والأفكار الجوهرية ويتبعوا في حياتهم تلك الآداب والعادات وتلك القوانين التي قد قررت لنظم الحياة

الاجتماعية . فأنت ترى أن حرية الفكر والعمل تتناقض مع التمدن والحضارة . إن الحرية تبعث في الأفراد الأنانية والإباحية والفوضى ، والتمدن يطالبهم بالاتباع والإطاعة والرضا . لذلك حيثما كانت الحرية انعدم التمدن . وحيثما كان التمدن كان حتمياً على الأقل أن ينزلوا من حرية فكرهم وعملهم عن شيء كثير .

والطائفة الثانية أسوأ حالاً من الأولى . فالطائفة الأولى ضالة فحسب ولكن الثانية كذابة أيضاً ومنافقة غاشة مدخولة الباطن . وإن كان رجل يستطيع أن يوافق بين دينه وأفكاره وميوله ضمن الحدود الصحيحة للتأويل فإنه يمكن اتباع الدين مع حرية الفكر والعمل . كذلك إن كانت ميول الرجل مخالفة لتعاليم الدين ولكنه صوب تعاليم الدين وخطأ ميوله هو صحت دعواه إلى حد ، إنه يدين بذلك الدين الذي يدعي اتباعه . ولكنه إذا كانت عقائده وأعماله صريحة الاختلاف عن تعاليم الدين الواضحة وكان يظن أفكاره هي صحيحة وتعاليم الدين خاطئة ، ثم حاول أن يسبب كون التعاليم الدينية مطابقة لافكاره وعاداته كيما يستطيع أن يعد من المؤمنين فإن مثل هذا الرجل لن ندعوه أحمق لأن الأحمق لا يتأتى له مثل هذا المكر والخديعة ، بل سندعوه كذاباً مارقاً ، وسنضطر إلى الظن أنه لا يملك من الجرأة ما يبغي به على الدين علنا ، فيدعي إيمانه من طريق النفاق . وإلا أي شيء - يا ترى - يمنعه من هجر الدين الذي تتعارض تعاليمه مع عقله وتتناقض

مع أفكاره وعقائده وتصده عن اتباع الطرق التي يحب من صميم قلبه أن يسير عليها ، بل هو سائر عليها في الواقع .

والطائفة الثالثة أسفل هذه الطوائف جميعاً باعتبار درجتها العقلية . فإنما خطأ الطائفتين الأوليين أنهما تحملان العقل ما لا طاقة له به . ولكن خطأ هذه الطائفة أنها لا تستعمل العقل أصلاً أو تستعمله استعمالاً نزراً هو والعدم سواء ، وأي خزي أكبر لعاقل أن يعتقد عقيدة ما ثم لا يكون بيده دليل بحق تلك العقيدة سوى أنه ألعى عليها آباءه ، أو أن تؤمن بها الأمة الفلانية التي هي على درجة عالية من الرقي ، وأن الرجل الذي يتبع بعض الطرق في شؤونه الدينية أو الدنيوية لكونه قد توارثها عن آبائه وأسلافه ، أو يختار الطرق الأخرى بناء على كونها رائجة بين الأمم الغالبة في زمانه فكأنه يبرهن عن نفسه أنه ليس في جمجمته دماغ ولا في دماغه قوة للفكر ، فهو لم يؤت الملكة التي يميز بها بين الخاطيء والصحيح . لو أنه ولد في بيت مسلم لآمن بصدق الإسلام ، أو ولد في عائلة نصرانية لتحمس للنصرانية . كذلك من المصادفة أيضاً أن الغلبة في زمانه للأمم الفرنجية فهو يعد عادات الافرنج هي معيار التهذب ورمز التقدم والرقي . ولو كانت الغلبة في زمانه للصينيين لكانت عادات الصينيين هي عنوان التهذب عنده . وأن تكن الغلبة اليوم في العالم للحبش الأفريقيين فلا جرم أن تصبح الحبشة هي عصارة الإنسانية والتحضر عند هذا الرجل الخفيف العقل .

الحق أنه ليس من الدليل المعقول على كون شيء صحيحاً أو محقاً أنه قد عمل به الآباء والأسلاف ، أو أنه يعمل به في الدنيا اليوم . لقد ارتكبت الحماقات قديماً وحديثاً ، وليس من شأننا أن نقلد تلك الحماقات تقليداً أعمى ولا أن نروح نتبع كل طريق من الطرق القديمة أو الجديدة بدون بصيرة أو تفكير ، فنربط أنفسنا بذيل كل سائر على الدرب سواء أكان يقصد في سيره إلى الأشواك أو إلى هوة من الضلال . وإنا إنما اوتينا العقل لأجل أن نميز بين الخير والشر في هذه الدنيا ونفرق بين الصحيح والزائف باختبارهما على المحك ، وقبل أن نقتدي بأحد يجب أن نرى : إلى أين يسير الرجل ؟ .

والإسلام يعد كل هذه الطوائف الثلاث واقعة في الباطل والضلال .

أما الطائفة الأولى فهو يقول فيهم إن القوم لا هم يتخذون هادياً وزعيماً لهم مَن يحمل النور، ولا هم بأيديهم أنفسهم نور الحق والصدق حتى يستضيؤوا به في طريق حياتهم . فمثلهم كمثل من رجم بالغيب ومشى على الدرب في الظلام . فقد يبقى إلى المحجة وقد يعدل عنها ليقع في الحضيض . وذلك بأن الظن والتخمين ليس من اليقين في شيء بل هو عرضة للصحة والخطأ ، ووقوع الخطأ فيه أكثر احتمالاً .

﴿ وما يتبعُ الذين يدعونَ من دونِ اللهِ شركاءَ ، إن يتَّبعونَ

إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصُون ﴾(١) .

﴿ إن يتبعونَ إلا الظنَّ . وإن الظَنَّ لا يُغني منَ الحق شيئاً ﴾(٢) .

﴿ إن يتبعونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ . ولقدْ جاءهم من ربِّهم الهُدى . أم للإنسان ما تمنَّى ﴾(٣) .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواهُ وأضلَّه الله على علم وختم على سمعه وقلبِه وجعل على بصرِه غشاوةً . فمن يهديهِ من بعدِ الله ﴾(٤) .

﴿ ومن أضلُّ ممن اتبع هواهُ بغير هُدىً من الله . إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾(٥) .

وكان الممثلون للطائفة الثانية في زمان نزول القرآن هم بنو اسرائيل الذين كانوا ينتمون إلى النبي موسى ـ عليه السلام ـ ويدعون أنفسهم متبعي التوراة . ولكنهم كانوا في عقائدهم ومعاملاتهم يخالفون في الأغلب طريقة النبي موسى عليه السلام وتعاليم التوراة . ثم كانوا لا يخجلون من انحرافهم ذاك ، وبدل أن يصححوا أفكارهم وأعمالهم حسب

(١) يونس : ٦٦ .
(٢) النجم : ٢٨ .
(٣) النجم : ٢٣ ـ ٢٤ .
(٤) الجاثية : ٢٣ .
(٥) القصص : ٥٠ .

تعاليم التوراة كانوا يحرفون الكلم ويؤولون المعاني في كتاب الله ليطابقوا بينه وبين أفكارهم وأعمالهم . وكانوا يخفون تعاليم التوراة الأصلية ويعرضون مكانها أفكارهم أنفسهم كأنها هي التعاليم المنزلة في الكتاب . والذين ينبهون على ذلك الضلال والعصيان ويدعونهم إلى اتباع كلام الله بخلاف ما تشتهي أنفسهم كانوا يجازون بالشتم والسباب والتكذيب وحتى بالقتل في بعض الأحيان . فقال الله تعالى في هذه الطائفة : ﴿ يُحرِّفونَ الكلِمَ عن مواضعِه ونسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به ولا تزالُ تطّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم ﴾(١) . ﴿ يا أهلَ الكتابِ لم تلبِسونَ الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾(٢) .

﴿ كلما جاءهُمْ رسولٌ بما لا تهوى أنفسُهم فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتُلون ﴾(٣) .

ثم قال لهم بالصراحة : ﴿ لستمُ على شيء حتى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِل إليكم من ربِّكم ﴾(٤) .

وفي الطائفة الثالثة الأخيرة قال الله تعالى :

﴿ وإذا قيلَ لهم اتبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نتبعُ ما ألفيْنا

---

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) آل عمران : ٧١ .

(٣) المائدة : ٧٠ .

(٤) المائدة : ٦٨ .

عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾(١) .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزلَ الله وإلى الرّسول ، قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾(٢) . ﴿ وإن تُطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضلُّوك عن سبيلِ اللهِ . إن يتبعون إلا الظنَّ ، وإن هم إلا يخرصُون ﴾(٣) .

إن الذين لا يستعملون عقولهم وأفهامهم ولا يميزون بأنفسهم بين الصحيح والزائف ، بل يقلدون غيرهم تقليداً أعمى ، يحكم عليهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾(٤) . ويشبههم بالأنعام بل يجعلهم أحط منها لأن الأنعام غير ذوات العقل ، وهؤلاء ذوو العقل ولكنهم لا يستعملونه . ﴿ أولئكَ كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾(٥) .

هذه الطبقات الثلاث التي تقوم طرائق عملها على الإفراط والتفريط ينبذها القرآن الكريم ويريد أن يستبدل بها أمة تلتزم القصد والاعتدال ، أمة وسطاً قوامين بالقسط .

---

(١) البقرة : ١٧٠ .
(٢) المائدة : ١٠٤ .
(٣) الأنعام : ١١٦ .
(٤) البقرة : ١٨ .
(٥) الأعراف : ١٧٩ .

وما هو طريق القصد والاعتدال هذا ؟ هذا الطريق هو أن تشقوا أولاً جميع الحجب التي قد أسدلتها أمام أعينكم التقاليد القديمة والتعاليم الجديدة . فافتحوا أعينكم على ضوء العقل السليم وانظروا بأنفسكم ما الحق وما الباطل . أالإلحاد صحيح ام التوحيد ؟ التوحيد حق أم الشرك ؟ وهل الإنسان لأجل أن يسلك سواء السبيل مفتقر إلى هداية الله تعالى أم لا ؟ وهل كانت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومحمد ﷺ صادقين كلهم أم كاذبين (عياذاً بالله) والطريقة التي يدعو إليها القرآن هل هي مستقيمة أو ملتوية معوجة ؟ فإن شهد قلبكم بأن الإيمان بالله تعالى هو ماتقتضيه الفطرة الإنسانية وإن الإله هو الله الذي لا شريك له وأذعن ضميركم بأن الإنسان لا شك مفتقر إلى نور من عند الله لأجل أن يسلك في حياته سواء السبيل . وهذا النور هو ما جاء به الأنبياء والمرسلون الذين كانوا هداة صدق للنوع البشري في كل زمان . وإن دلكم النظر في الحياة الطيبة التي عاشها النبي محمد ﷺ في هذه الدنيا على أن إنساناً بتلك السيرة المطهرة العالية لم يكن ليخدع العالمين ، وإذا كان قد ادعى أنه رسول من عند الله فلا بد أن يكون صادقاً في دعواه . ثم إن قرأتم القرآن وحكم عقلكم بأن الطريق المستقيم لاعتقاد المرء وعمله هو الذي قد عرضه هذا الكتاب ، وهذا الكتاب هو لا شك من عند الله فعليكم أن لا تخافوا عندئذ لومة لائم أو مخالفة عنيد ، بل نقوا قلوبكم من كل خوف للنقصان وكل طمع في

الربح وآمنوا بالـذي قد شهد بصدقه شاهد نفسكم وضميركم .

وإذا ميزتم بين الحق والباطل بما آتاكم الله من العقل السليم واخترتم الحق على الباطل فقد انتهت عندئذ وظيفة عقلكم في النقد والاختبار وانتقلت سلطة الحكم والأمر من العقل الإنساني إلى الله والرسول . ولم يكن لكم بعد ذلك أن تحكموا بأنفسكم في شؤونكم بل كان عليكم أن تذعنوا لكل ما يأمركم به الله والرسول . ويجوز لكم ولا شك أن تستعملوا عقلكم لفهم تلك الأحكام وإدراك حكمتها ودقائقها ولتطبيقها على جزئيات حياتكم ، ولكنه ليس لكم أن تشكوا وتتساءلوا في أمر يأمركم به الله تعالى . وسواء أأدركتم الحكمة من وراء أمر إلهي أم لم تدركوا ، وطابق أمر من عند الله معيار عقلكم أم لم يطابق ، وكان ما قضى الله ورسوله موافقا للعادات والتقاليد الرائجة في هذه الدنيا أو منافياً لها فليس لكم في كل حال إلا أن تذعنوا له وتتبعوه . لأنكم إذا آمنتم بالله وصدقتم رسوله وأيقنتم بأن كل ما يدعو إليه رسول الله هو من عند الله لا من عند نفسه . ﴿ وما ينطقُ عن الهوى ، إن هوَ إلا وحيٌ يوحى ﴾[1]، فمن النتيجة المنطقية لهذا الإذعان واليقين أن تؤثروا ما يقضي به الله والرسول على ما تقضي به عقولكم وألا تنتقدوا الأوامر والنواهي التي جاء بها النبي من عند الله على محك عقلكم وعلمكم وتجاربكم أو على محك أفكار وأعمال غيركم من اهل الدنيا . فالذي قال إني مؤمن ثم غدا

(١) النجم : ٢ و ٣ .

يشك ويتساءل فيما يأتيه من عند الله فهو يرد بنفسه قوله وينقض بنفسه ما أبرم ، ولا يعلم أن الإيمان والشك ضدان لا يجتمعان وأن نظام الأمور يقوم على الإطاعة والتسليم وأن الشك والتساؤل لا يؤديان إلا إلى الفوضى والبغي .

فطريقة القصد والاعتدال هذه هي « الإسلام » والطائفة التي تتبع هذه الطريقة هم المسلمون .

إن « الإسلام » معناه الانقياد والإطاعة والرضا . والمسلم هو الذي يذعن لأمر الآمر ونهي الناهي إذعان رضيّ . فهذه التسمية بنفسها دالة على أنه لم تبعث في الدنيا هذه الطائفة الرابعة على انفراد من تلك الطوائف الثلاث بطرقهم الضالة إلا لأن تتبع أمر الله والرسول وتخضع له . إنه ليس لهذه الطائفة أن تتبع عقلها في كل أمر . ولا لها أن تعبث بأحكام الله فتأخذ منها ما وافق هواها وتدع ما خالفه ، ولا لها أن تجعل كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهرها وتروح تقلد الإنسانيين تقليداً أعمى ، سواءٌ أكان أولئك أحياء أم أمواتاً .

وهذه الحقيقة قد جاء القرآن الكريم صريحاً في بابها . فهو يقول إنه إذا أتى الإنسان المؤمن أمر من عند الله تعالى فلا يكون له أن يؤمن به أو لا يؤمن كما يشاء . ﴿ وما كانَ لِمُؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ إذا قضَى اللهُ ورَسولهُ أمراً أنْ يكونَ لَهُم الخْيرَةُ مِنْ أمْرِهْم وَمَنْ يعْصِ اللهَ ورسُولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً ﴾[1] .

(١) الاحزاب : ٣٦ ض.

ويقول : إنَّ أخذ المرء جانباً من كتاب الله وتركه الجانب الآخر يفضي إلى الخزي في الدنيا والآخرة ﴿ أفتُؤمنون ببَعْض الكِتابِ وتكفُرون ببَعْضٍ فما جزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلك مِنْكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ يُردُّون إلى أشدِّ العذابِ . وما اللهُ بغافِلٍ عمَّا تعْملون ﴾[١] .

ويقول : إن حكم المؤمن في قضية ما يجب أن يكون حسب كتاب الله ، وإن كان موافقاً لهوى النفس أو مخالفاً له . ﴿ فاحْكم بيْنهُم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبعْ أهْواءهُم عمَّا جاءَك مِنَ الحقِّ ﴾[٢] .

ويقول : كل من لا يحكم بحسب كتاب الله فهو فاسق . ﴿ ومَنْ لم يحْكم بما أنْزل اللهُ فأولئكَ هُمْ الفاسِقونَ ﴾[٣] .

وكل حكم يخالف كتاب الله فهو حكمُ الجاهلية . ﴿ أفحُكمَ الجاهِلِيَّةِ يبْغُونَ وَمَن أحْسنُ مِنَ اللهِ حكماً لِقَومٍ يُوقِنونَ ﴾[٤] .

ثم يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ مِنكُم . فإن تنازعتُم في شَيءٍ فرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إن كنُتم تؤمنون بالله واليَومِ الآخِر . ذلكَ خيْرٌ

(١) البقرة : ٨٥ .
(٢) المائدة : ٤٨ .
(٣) المائدة : ٤٧ .
(٤) المائدة : ٥٠ .

وأحْسنُ تأويلاً . ألم ترَ إلى الذينَ يزعمُونَ أنَّهم آمنوا بما أنزِلَ إليكَ وما أنزِلَ مِنْ قبْلِكَ يُريدُونَ أن يتحاكمُوا إلى الطَّاغوتِ وقد أمروا أن يكفرُوا به . ويُريدُ الشَّيطانُ أن يُضلِهم ضلالاً بعيداً . وإذا قِيلَ لهم تعالوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رأيتَ المنُافِقينَ يصدّونَ عنكَ صُدوداً . . وما أرسلنا مِن رسولٍ إلا ليُطاعَ بإذن اللهِ . . فلا وربِّك لا يُؤمنُونَ حتَّى يُحكموكَ فيما شجَر بينهُم ثمَّ لا يجِدوا في أنفُسِهم حرجاً ممَّا قضيتَ ويُسلموا تسليماً ﴾ (١) .

إنه يتضح من هذه الآيات الصريحة وجه التسمية بكلمتي « الإسلام » و « المسلم » فالآن يجب علينا نحن الذين كتبت أسماؤنا في سجل المسلمين أن نتفكر ونرى : إلى أي حد تصدق علينا كلمةِ « المسلم » وإلى أي حد يصح أن تدعى الطريقة التي نحن نتبعها باسم « الإسلام » ؟ !

---

(١) النساء : ٥٩ ـ ٦٥ .

الفصل السابع عشر

المصدر الحقيقي لقوة المسلم

من حوادث مطلع القرن الثاني للهجرة أن ملك سجستان والرخج الذي كان لقبه العائلي : (رتبيل) رفض أداء الخراج لعمال بني أمية . فأغاروا عليه الغارات ، ولكنه لم يخضع ، وفي أيام الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بُعث إليه وفد من المسلمين يطالبه بالخراج . فلما حضره الوفد سأله رتبيل : أين القوم الذين كانوا يأتوننا قبلكم ، كانوا ضامري البطون من الجوع ، يلبسون نعال الخوص وفي وجوههم سيماء من أثر السجود ؟ فقيل له : قد مضوا . فقال رتبيل : إنكم لا شك أنضر منهم وجوهاً ولكنهم كانوا أصدق منكم وعداً وأشد بأساً . ويذكر التاريخ أن رتبيل قال هذا والتوى بما عليه من الخراج . وما زال خارجاً عن طاعة الحكومة الإسلامية مدة نصف قرن أو نهازه .

ذلك في عهد كان فيه كثير من التابعين ومن تبعهم على قيد الحياة . وكان زمان الأئمة المجتهدين لم يمض على وفاة

النبي ﷺ إلا قرن واحد . والمسلمون أمة موفورة القوى والحياة ، لا يزالون يبسطون نفوذهم على الدنيا ، وقد ملكوا فارس والروم ومصر وأفريقيا وإسبانيا ، ولا تساميهم أمة من أمم الأرض في العدة والعتاد والبذخ والثروة والأموال . هذا والإيمان يعمر القلوب وأحكام الشرع تتبع أكثر ممـا تتبع الآن ، ونظام السمع والطاعة قائم ، والأمة ينظمها تنظيم محكم . إلا أن خصمهم الذي كان قد عجم عود البدو الجائعين العراة من رجال عهد الصحابة أحس بفرق عظيم بين هؤلاء الشاكين السلاح وأولئك المعدمين العزل .

من أي شيء كان هذا الفرق يا ترى ؟

لعل رجال الفلسفة أن يجعلوه فرقاً بين البداوة والحضارة فيقولوا : إن البدو القدامى كانوا يعيشون عيشة المشقة والجهد والذين جاؤوا من بعدهم جعلتهم الثروة والتمدن يألفون العيش الناعم الرغيد ، ولكن الحقيقة أنه لم يكن ذلك علة هذا الفرق ، بل كانت علته حقاً هي الإيمان والإخلاص وحسن النية والاخلاق وطاعة الله ورسوله . فهذه كلها كانت مأتى القوة الحقيقية للمسلمين . لم تكن قوتهم من كثرة العديد ولا من وفرة العتاد ولا من قناطير الذهب والفضة ولا من حذق العلوم والصناعات ولا من توافر لوازم الحياة والتمدن . وإنما كانوا نهضوا بقوة الإيمان والعمل الصالح ، وهذه هي التي جعلتهم أعزة في العالم وألقت في قلوب الأمم هيبتهم والإيمان بخلقهم وأمانتهم . وما دام عندهم هذا الذخر

من القوة والعز فإنهم كانوا مع قلة العدة والعتاد أقوياء ذوي سؤدد وشرف ، ولكنه لما قل عندهم هذا الذخر أخذهم الضعف وجعلت ريحهم تفشل مع الأيام ، ولم تغن عنهم شيئاً كثرة العدد واستفاضة الأسباب المادية .

فقد رأيت أن الذي قاله « رتبيل » وهو عدو للإسلام والمسلمين هو اكثر عبرة من آلاف المواعظ للناصحين الأولياء . إنه بين في الحقيقة أن القوة الحقيقة لأمة ما ليست في جيوشها الزاحفة ولا في اسلحتها اللامعة ولا في جنودها المتأنقين في المآكل والملابس ولا في وسائلها وأسبابها الكثيرة . بل قوتها هي الخلق الفاضل والسيرة الطيبة والمعاملة الصحيحة والأمل البعيد . وهذه القوة هي تلك القوة الروحانية التي تفتح العالم بدون الوسائل المادية وتغلّب المعدمين على الموسرين ولا تورثهم الأرضين فحسب بل تجعل في قبضتهم القلوب والنفوس أيضاً . بهذه القوة يتقدم اللابسون نعال الخوص المهزولون المعروقون المغمدون سيوفهم في الأسمال فيشعرون أهل الارض من هيبتهم ورعبهم ومن سيطرتهم وجبروتهم وقدرهم وعزهم وثقتهم وسلطانهم ما لا يتهيأ أبداً بدون هذه القوة ـ للابس الوشى والديباج وأهل البذخ والترف أولي الوجوه الناضرة والقصور الشامخة والمسلحين بالمناجيق الضخمة والدبابات الفخمة . ذلك أن وفرة القوة المعنوية تتلافى قلة الأسباب المادية ، ولكن وفرة الاسباب المادية لا تعوض مما يفوت من القوة

المعنوية . ولو أنه تحصل غلبة بدون هذه القوة فإنها أحرى أن تكون عارضة مؤقتة . لأنه لا تفتح القلوب ابداً بدون هذه القوة وإنما تتطأطأ الرقاب ، وتبقى بعد ذلك بالمرصاد أبداً لتنتهز أول فرصة للتعالي والتشامخ .

إن بناءً ما لا يتحقق إحكامه بنقوشه وزخافه وألوانه ولا فنائه الرحب وروضته الغناء ، ولا بأي جمال خارجي . كما لا يزيد في قوته كثرة ساكنيه ، ولا وفرة أثاثه ولا تعدد أجهزته وآلاته . وهو ما دام واهي الأسس أجوف الجدر متآكل العمد متفتت الألواح والخشب فإنه لا يمنعه شيء من السقوط وإن كان عامراً بالأهل زاخراً بالمتاع يسر الناظرين بزينته وتحاسينه . إنكم إنما تنظرون إلى الظاهر وتتوقف أنظاركم عندما يتمثل أمام أعينكم ولكن حوادث الدهر لا يقف فعلها عند الظاهر بل هو ينفذ إلى الصميم . فهذه تمارس الأسس وتخبر متانة الجدران وتمتحن سلامة العمد ، فإن وجدت هذه كلها محكمة متراصة ارتدت كالموج ترده الصخرة الصماء ، وغالبها البناء برصانته وإحكامه ، مع أنه عاطل من كل زينة . وإن كانت الأخرى حطمته لطمات الحدثان فانهدم وسقط مع كثرة سكانه وجودة نقوشه وألوانه .

هذا بعينه هو شأن الحياة القومية . فالذي يجعل أمة ما قوية غالبة بين الأمم ليس منازلها ولا ملابسها ولا مراكبها ولا مرافق حياتها الناعمة ولا فنونها اللطيفة ولا مصانعها ولا كلياتها ، بل هو المباديء التي تقوم عليها حضارتها ورسوخ

هذه المباديء في القلوب وهيمنتها على الاعمال . وهذه الاشياء الثلاثة أي استقامة المباديء والإيمان القوي بها وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية هي في حياة الامم بمكان الأس المتين والجدار القوي والعمار المحكم في البناء . فالأمة التي توفرت فيها هذه الأمور الثلاثة كاملة فإنها لا جرم أن تكون غالبة بين الأمم . تعلو كلمتها في الأرض وينبسط نفوذها على الشرق والغرب وتتأصل ثقتها في القلوب وتعنو لأمرها الرقاب . وتكون معززة محترمة وإن كانت تسكن الأكواخ وتلبس الأسمال وكان أفرادها ضامري البطون من إلحاح الفاقه ولم تكن في مدائنها كلية ولا ارتفعت في معمورتها مدخنة ولا كانت لها في العلوم والصناعات يد . ذلك بأن كل هذه الأشياء التي تعدونها من أسباب الرقي والتقدم إن هي إلا نقوش وألوان البناء وليست أسسه وقواعده وأركانه . وأنت إن كسوت الجدران النخرة ورق الذهب فلن يمنعها ذلك من السقوط وهذه هي الحقيقة التي يكررها القرآن الكريم :

إنه يصف مباديء الإسلام بأنها تطابق تلك الفطرة الثابتة غير المتبدلة التي قد فطر الله تعالى عليها الإنسان . لذلك فإن الدين المشيد على تلك المباديء هو الدين القيم ، أي الدين الذي يقيم جميع شؤون المعاش والمعاد على الأساليب الصحيحة المستقيمة . ﴿ فأقِمْ وجْهَك للدِينِ حَنيفاً فِطْرَةَ الله التي فَطَر الناسَ عَليها . لا تَبْديلَ لِخلق الله . ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ

ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَعلمون ﴾[١] . ويقول بعد ذلك ﴿ أن استمسكوا بهذا الدين القيم وآمنوا به واعملوا بمقتضياته تغلبوا في الدنيا وورثوا الأرض واستخلفوا فيها ﴿ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحونَ ﴾[٢] ﴿ وأنتم الأعْلَوْن إنْ كنتم مُؤمِنينَ ﴾[٣] . ﴿ وعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكم وعَمِلوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾[٤] . ﴿ ومَنْ يَتَولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُم الغالبون ﴾[٥] .

وبخلاف ذلك إن الذين قد دخلوا في حظيرة الدين في ظاهر الأمر ولكنه لم تخالط بشاشته قلوبهم ولا هو أصبح قانون حياتهم فلا ريب أن ظاهرهم رائق معجب (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) . وأقوالهم تلذ الأسماع (وإن يقولوا تسمع لقولهم) . ولكنهم في الحقيقة جثث لا روح فيها (كأنهم خشب مسندة) . يخافون الناس أكثر مما يخافون الله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) . أعمالهم كسراب يتراءى كالماء ولكنه ليس بشيء في الحقيقة (أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) . وأمثال هؤلاء لا يمكن أن تتأتى لهم قوة

---

(١) الروم : آية ٣٠ .
(٢) الانبياء : آية ١٠٥ .
(٣) آل عمران : آية ١٣٩ .
(٤) النور : آية : ٥٥ .
(٥) المائدة : آية ٥٦ .

جماعية لأن قلوبهم متنافرة وهم لا يستطيعون أن يتشاركوا في عمل من الأعمال الخالصة : (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) . فلا يمكن أن يكون لهم من القوة ما يختص بالمؤمنين الصالحين (لايقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) . وهم لن ينالوا إمامة العالم ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . وليس من عاقبتهم إلا أن يذلوا ويهنوا في هذه الدنيا ويذوقوا في الآخرة أيضاً عذاباً شديداً ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

ومما عسى أن تعجب منه أن القرآن الكريم قد جعل وسيلة رقي المسلمين وتألفهم كجماعة حاكمة غالبة في الأرض شيئاً واحداً هو الإيمان والعمل الصالح ولم يفرض عليهم لأجل ذلك أن يؤسسوا الجامعات وينشئوا الكليات ويقيموا المصانع ويصنعوا السفن ويؤلفوا الشركات ويفتحوا المصارف ويخترعوا الآلات وأن يحاكوا الأمم الراقية في اللباس وأساليب الاجتماع والعادات . ثم إنه جعل السبب الوحيد للتخلف والانحطاط وخزي الدنيا والآخرة هو النفاق ، لا انعدام الأسباب التي تحسبها الدنيا أسباب التقدم والرقي .

ولكنك إن تفهمت روح القرآن وتعمقت معانيه السامية زال عجبك للأمر . فأول ما يجب أن يفهم من هذا الصدد هو أن الوجود الذي يقال له « المسلم » لا قوام له إلا بالاسلام ولا تثبت حقيقته من حيث هو مسلم إلا بالاسلام . فهو إن آمن برسالة النبي محمد ﷺ واتبع القوانين التي أنزلت عليه تحقق

إسلامه ، وإن لم يكن يملك شيئاً ما عدا الإسلام . وبالعكس من ذلك إن هو تحلى بكل ما يعد من زينة الحياة الدنيا ولكنه لم يعمر قلبه الإيمان ولم تتميز حياته باتباع قوانين الإسلام ، فإنه قد يكون بكالوريوسا أو طبيبا أو مالك مصنع أو رئيس مصرف أو قائد جند أو أميراً للبحر ولكنه لا يمكن أن يكون مسلماً . ومن ثم لا يكون الرقي في هذا المضمار أو ذاك حقيقياً بأن يعد رقي فرد مسلم أو أمة مسلمة ما لم تتحقق الحقيقة الإسلامية في ذلك الفرد أو الأمة . وبدون هذا لن يكون ذاك الرقي ـ مهما عظم أمره ـ رقي الوجود المسلم . وظاهر أن مثل هذا الرقي لا يمكن أن يكون مطمح أبصار الإسلام .

هذا وقد يكون من صورة الواقع أن لا تكون أمة ما مسلمة أصلاً وتكون أفكارها وأخلاقها ونظامها الاجتماعي مبنية كلها على غير أساس الإسلام . فمثل هذه الأمة يمكنها ولا ريب أن تنهض وتتقدم بفضل المباديء الخلقية والسياسية والإقتصادية والمدنية التي تختلف عن الإسلام ، ثم تبلغ الأوج والكمال من ذلك الرقي الذي تعتبره الرقي الحقيقي من زاوية نظرها . ولكنه من الصورة الأخرى المخالفة للواقع أن تكون أفكار أمة ما وأخلاقها ومدنيتها واجتماعها وسياستها واقتصادها مؤسسة كلها على الإسلام ، ثم تكون تلك الأمة ضعيفة في هذا الأساس ـ الإسلام ـ نفسه من ناحيتي العقيدة والعمل كليهما . فمثل هذه الأمة مهما هيأت لنفسها من

أسباب الرقي المادي لا يمكنها أبداً أن تنهض في الدنيا كأمة قوية شديدة البأس ، غالبة على غيرها من الأمم . لأن الأساس الذي قد رفع عليه بناء قوميتها وأخلاقها وحضارتها هو نفسه ضعيف واه . وضعف القاعدة والأساس شيء لا تتلافاه أسباب الزينة والجمال الخارجي .

على أنه لا يراد بهذا كله أنا ننكر الأهمية الصحيحة للعلوم والفنون وأسباب الرقي المادي . بل المقصود أن هذه كلها في الدرجة الثانية للأمة المسلمة ، ويتقدمها جميعاً إحكام الأساس . فإذا استحكم الأساس . فلا حرج أن يتخذ من وسائل الرقي كل ما يلائم هذا الأساس . بل من الواجب أن تتخذ جميع تلك الوسائل . ولكنه إذا كان الأساس بنفسه واهياً وكانت جذوره في سويـــداء النفوس ضعيفة وسيطرته على شؤون الحياة فاترة فلا بد أن تختل الأخلاق وتسوء السيرة وتفسد المعاملات من الناحية الفردية والاجتماعية . وتسترخي ضوابط النظام الاجتماعي وتتشتت القوى . وليست النتيجة المحتومة لذلك أن تتضاءل قوة الأمة وتشول كفتها في ميزان الأمم الدولية يوماً بعد يوم ، حتى تهاجمها الأمم الأخرى وتتغلب عليها . وإذا حدث ذلك فليس يغني عنها شيء من كثرة الوسائل ووفرة الجامعيين ذوي الشهادات العليا والزينة والزخرفة الخارجية .

ثم هناك فوق هذا كله أن كتاب الله يقول بكل ثقة وإحكام : ﴿ أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ . و﴿ ألا إن

حزب الله هم الغالبون ﴾ . و﴿ ليستخلفن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . فهل ترى من أي شيء تأتي هذه الثقة ؟ وبناء على أي شيء قد ادعي في القرآن مهما ملكت أمم الأرض من الوسائل المادية فلا جرم أن ينتصر عليها المسلمون بمجرد صلاح الإيمان والعمل الصالح ؟

هذه العقدة يحلها القرآن الكريم بنفسه . فهو يقول : ﴿ يا أيها الناسُ ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له . إن الذين تدعونَ من دونِ الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبْهُم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه . ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب . ما قدروا الله حقَّ قدرِه . إن الله لقوي عزيز ﴾[١] . ﴿ مثَلُ الذينَ اتَّخذوا مِن دونِ الله أولياء كمثَل العَنْكبوتِ اتَّخذت بيتاً . وإنَّ أوهنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ ﴾[٢] .

المقصود أن الذين يعتمدون على القوى المادية إنما يعتمدون على أشياء لا قوة لها بنفسها . ويفضي هذا الاعتماد على شيء لا قوة له إلى أنهم يعودون بأنفسهم ضعفاء فاتري القوة ، وكل ما يبنون عند أنفسهم من حصون محكمة رصينة يأتي واهناً كبيت العنكبوت ، وهم لا يستطيعون أبداً أن يقاوموا الذين ينزلون في المضمار باعتمادهم على الله ذي

---

(١) الحج : آية ٧٣ ـ ٧٤ .
(٢) العنكبوت : آية ٤١ .

القدر والعز الحقيقي ﴿ ومن يَكفرْ بالطاغوت ويُؤ مِنْ بالله فقد اسْتَمْسك بالعُروة الوثْقى لا انْفِصامَ لها ﴾[١] .

ويقول القرآن بادعاء إنه كلما التقى في المضمار أهل الايمان ،وأهل الكفر ، كان الانتصار لا محالة لأهل الإيمان ، ﴿ ولَو قاتَلكم الذينَ كَفروا لوَلُّوا الأدْبارَ ثُم لا يجِدون وليّاً ولا نَصيراً . سُنَّةُ اللّهِ التي قد خَلَت مِن قَبْلُ ولَن تَجِدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً ﴾[٢] . ﴿ سنُلْقي في قُلوبِ الذينَ كَفَروا الرُّعبَ بما أشْرَكوا باللّهِ مَا لَم يُنَزِّلْ به سُلطاناً ﴾[٣] . وذلك بأن الذي يقاتل عن الله تعالى يكون في عونه التأييد الإلهي .ومن كان معه التأييد الإلهي فلا يد لأحد بكفاحه ﴿ ذلكَ بأنَّ اللَّهَ مَولى الذينَ آمنوا وأنَّ الكافرينَ لا مولى لهم ﴾[٤] .﴿ وما رَمَيْتَ إذْ رَميت ولكنَّ اللَّهَ رَمى ﴾[٥] .

هذا من قوة المؤمن الصالح وسطوته . ومن القانون الإلهي ـ بجانب آخر ـ إنه من يكون أمينا طيب السيرة ، ويتبع شريعة الله بدل أهواء النفس وتتنزه أعماله من دنس الأثرة والأنانية . فإنه يتحبب إلى الخلق . فالقلوب تنجذب إليه مودة ، والأنظار ترتفع إليه بالاحترام ، ويؤمن بصدقه أعداؤه فضلاً عن أوليائه ، فيثقون بعدله وعفته ووفائه ﴿ إنَّ الذينَ

(١) البقرة : آية ٢٥٦ .
(٢) الفتح : آية ٢٢ و٢٣ .
(٣) آل عمران : آية ١٥١ .
(٤) محمد : اية ١١ .
(٥) الأنفال : آية ١٧ .

آمنوا وعَملوا الصَّالحات سَيَجْعَل لَهُم الرَّحمنُ وُداً ﴾[١] .
﴿ يُثَبِّت اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ﴾[٢] ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا من ذَكَرٍ أو أنثى وهُو مُؤمِن فلنُحْيِينَّه حياةً طَيِّبةً ولنَجْزينَّهُم أجرهَم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

ولكن نتيجة أي شيء كل هذا ؟ ليس هذا نتيجة أن يقول المرء كلمة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ويتسمى باسم من أسماء المسلمين ويتبع بعض التقاليد المعلومة في المجتمع الإسلامي أو يؤدي بعض الشعائر . بل يشترط القرآن لتحقق هذه النتائج الإيمان والعمل الصالح . إنه يريد أن ترسخ حقيقة ﴿ لا إله لا الله ﴾ هذه في قلوبكم ونفوسكم رسوخاً يجعلها غالبة على أفكاركم وتصوراتكم وأخلاقكم ومعاملاتكم . . تنطبع حياتكم بطابعها ولا يتسربْ إلى أذهانكم معنى يختلف عن معاني هذه الكلمة ولا يصدر عنكم من عمل يخالف مقتضى هذه الكلمة .

فلتكن نتيجة التفوه بكلمة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ أن يحصل معه انقلاب تام في حياتكم فتسري في كل عرق من عروقكم روح التقوى والصلاح ولا تخضع رؤوسكم لقوة غير الله ، ولا تمتد أيديكم لأحد غير الله ، ولا تخشى نفوسكم ما سوى

(١) مريم : آية ٩٦ .
(٢) إبراهيم : آية ٢٧ .
(٣) النحل : آية ٩٧ .

الله ، فلا يكون حبكم ولا بغضكم إلا لله وحده ، لا ينفذ في حياتكم قانون غير قانون الله . فتكونوا مستعدين أبداً لبذل كل ما تحبون في سبيل مرضاة الرب . وإذا بلغكم حكم من أحكام الله ورسوله ، لم يكن عندكم بإزائه إلا (سمعنا وأطعنا) قولاً وفعلاً . فمتى حصل كل ذلك فيكم لم تكن قوتكم عندئذ قوة أنفسكم وأجسادكم فحسب ، بل كانت من ورائها قوة أحكم الحاكمين الذي يسجد له كل ما في السموات والأرض الذي هو المحبوب الحقيقي للخلق أجمعين .

كان هذا كله حاصلاً لدى المسلمين على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين . فكان من نتائجه ما قد شهدت به صفحات التاريخ . كان ذاك العهد من قال فيه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ تبدلت حياته غير الحياة . يكون خاماً من قبل فيصبح كالذهب المسبوك . فكل من رآه بعد ذلك فكأنه رآى التقوى مجسدة والصدق ممثلاً ، ومع أنه أمي معسر يتعود الفاقة ويلبس الخشن ويجلس على الحصير ولكنه يكون من هيبته في القلوب ما لا يكون لذوي الأبهة والخيلاء من الملوك . وكأنه مصباح أينما ذهب ، اقتبس من نوره كثير من المصابيح . ومن لم يقبل هذا النور ويتجرأ على أن يهاجمه ليطفئه وجد في شعلته ما يحرقه ويفنيه .

مثل هذه القوة الإيمانية والسيرة الطيبة الصالحة كان يملكه المسلمون حينما كانوا لا يزيدون على ثلاثمائة

وخمسين ولكنهم قد تحدوا العرب كلها للنضال . ولما بلغ عددهم بضعة ملايين خرجوا في الأرض يغزون الممالك ويفتتحون الأمم ، ولم تعارضهم في هذا الطريق قوة إلا انصدعت وتفرقت شذر مذر .

فقوة المسلم الحقيقية ـ كما أسلفنا ـ هي هذا الإيمان والسيرة الطيبة الناتجان عن رسوخ معاني كلمة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ في القلب . فإن لم ترسخ هذه المعاني في القلب ، بل نطق بها اللسان فحسب ، ولم ينشأ عنها انقلاب في الذهن وفي الحركات والأعمال ، ولم يتغير المرء بعد نطقه بهذه الكلمة بل بقي كما كان من قبل ، بلا فرق بينه وبين المنكرين لها من حيث الأعمال والأخلاق يطاطيء رأسه لغير الله كما يطأطئون ويستجدي غير الله كما يستجدون ، ويخاف ما سوى الله كما يفعلون ، ويبغي رضاه ويشغف به حباً . ثم كان كمثلهم عبداً للهوى ، يجعل القانون الأهلي وراء ظهره ويتبع القوانين الوضعية أو يتبع أهواءه . ويكون في أفكاره وآماله ، ونياته من السوء والنجس ما يوجد في أفكار غير المؤمن بالله وآماله وتكون أقواله وأفعاله ومعاملاته مثل ما يكون لغير المؤمن . نقول إن كان هذا كله واقعاً فلا ندري لعمر الله لماذا يفضل المسلم غير المسلم ؟ وهل المسلم إذا انعدمت فيه روح الإيمان ، وروح التقوى إلا بشر كغير المسلم ؟ فإذا بارى المسلم بعد ذلك غير المسلم كانت المباراة بينهما باعتبار القوة الجسدية والأسباب المادية .

وتغلب الذي هو أقوى بهذا الاعتبار على الذي هو أضعف .

والفرق بين الحالتين واضح على صفحات التاريخ بحيث يدركه الناظر لأول وهلة . ففي الحالة الأولى : قامت قلة من المسلمين فدكوا عروش الحكومات العظام ، ونشروا راية الإسلام على ما يمتد من شاطيء نهر (أنك) إلى سواحل الأطلانتيك ، وفي الأخرى : ها هم أولاء قد بلغوا آلاف الملايين على صفحة الأرض ، ولكنهم خاضعون لدول الكفر ومن البلاد ما يعمره مئات الملايين منهم ، وقد مضت على وجودهم فيه قرون ، ولكن الكفر والشرك باق فيه إلى هذا اليوم .

الفصل الثامن عشر

شرعة الأبطال، لا شرعة الضعاف

دين البطولة ، لا دين الفسولة [1]

إن مقالاتي حول مسألة « الربا » قد جعلت بعض الناس يعيدون ويبدئون في إظهار فكرة بعينها هي في كلمات موجزة كما يلي :

« إن زماننا هذا قد سيطر فيه النظام الرأسمالي بالقوة السياسية على الدنيا الاقتصادية كلها التي تحيط بنا اليوم . فعربة الاقتصاد متحركة على عجلات الرأسمالية . والرأسماليون هم الذين يسيرونها ، ولا تظل تتقدم نحو الرقي من طريق هذه الرأسمالية إلا تلك الأمم التي لا تتقيد بقيد ديني أو أخلاقي في كسب الثروة وإنفاقها . وبجانب آخر إن قوتنا الاجتماعية متشتتة ، وليس بمقدورنا أن نقيم نظام الاقتصاد الإسلامي من جديد حتى في أمتنا أنفسنا فكيف أن نبدل نظام الاقتصاد العالمي . ففي هذه الظروف إن جاءت قيودنا

(١) الفسولة : من فسل وهو الضعف بلا مرؤة

الدينية مانعة لنا عن المساهمة التامة في النظام الاقتصادي الرائج في الدنيا اليوم ، فإنه لن يكون من نتيجته إلا أن ستتخلف أمتنا عن الأمم الأخرى في الأخذ بأسباب الرقي الاقتصادي والرفاهية ، وسنزداد فقراً وحرماناً على الأيام ، بينما ستزداد الأمم المجاورة غنى وإثراء . وإن تخلفنا الاقتصادي هذا لا بد أن يجر علينا الذل والهوان في ميادين السياسة المدنية والأخلاق أيضاً . وليس هذا كله من باب المخاوف والأوهام فحسب . بل قد تمثلت هذه النتيجة ـ ولم تزل تتمثل منذ سنوات ـ أمام أعيننا في دنيا الواقع والعمل . وإن المصير الذي نحن منتهون إليه في المستقبل ليست أعراضه من الخفاء والانبهار بحيث لا يبصرها ذو عينين . فلا ندري لذلك ما الفائدة في أن يبين لنا حكم الشريعة في هذه الظروف . وتحدد لنا المعارف الإسلامية للاقتصاد ؟ إنما الحاجة الآن إلى أن يبين لنا : هل من سبيل هناك إلى تعهد حالتنا الاقتصادية واجتياز منازل الرقي مع التزام القانون الإسلامي ؟ وإن لم يكن للأمر من سبيل ، فلا بد أن يكون واحد من اثنين . إما أن يتلف المسلمون تلفاً ، وإما أن يضطروا كشأن الأمم الأخرى إلى أن يتحرروا من قيود جميع القوانين التي لا تجاري العصر »! .

إن هذه الأزمة ليست مقتصرة على مسألة الربا وحدها ، بل يتسع نطاقها جداً . ولو كانت شعبة الاقتصاد ـ من بين شعب الحياة كلها ـ هي وحدها التي قد سيطر عليها نظام غير إسلامي لكان الأمر أهون بكثير . ولكن الواقع يشهد بغير

ذلك . فانظر إلى ما حولك من الدنيا . واستعرض ما أنت نفسك فيه من الظروف ، فأية شعبة من شعب الحياة هي التي لم يسيطر عليها نظام غير إسلامي ؟ العقيدة والفكر والرأي ألم يتغلب عليها الإلحاد والدهرية ، أو التشكك والارتياب على الأقل ؟ والتعليم ألم يسيطر عليه نظام لا يعرف الوجود الإلهي ؟ والمدنية والحضارة ألم تستول عليها الطريقة الافرنجية ؟ والحياة الاجتماعية ألم تنفذ فيها الطريقة الغربية إلى أعماقها ؟ وهل الأخلاق بمنجاة من غلبتها ؟ وهل المعاملات سالمة من نفوذها ؟ وهل يخلو من تأثيرها القانون والسياسة والحكومة بما فيها من الأصول والفروع والنظريات والصور العملية ؟ .

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا تقتصر سؤالك على الاقتصاد وحده ، بل على جزء واحد فحسب من أجزائه ؟ وإنما لك أن توسعه وتمده على الحياة كلها فتقول : إن نهر الحياة قد غير مجراه . إنه كان يجري فيما غبر في الجهة التي توصل إلى الإسلام ، ولكنه الآن قد عاد يجري في الجهة التي تؤدي إلى غير الإسلام . ولسنا نطيق أن نحول وجهته ، ولا نستطيع أن نعوم ونسعى ضد تياره ، ونجد كذلك الهلكة في الوقوف والجمود في مكان بعينه منه ، فدلنا إذن على خطة للعمل نستطيع بها أن نبقى مسلمين بجانب ، ونرسل سفينتنا مع التيار الجاري بجانب آخر ، وأن نبقى من قاصدي كعبة الله ، ثم لا نهجر القافلة التي هي سائرة إلى تركستان ، وأن

نكون غير مسلمين ، في أفكارنا ونظرياتنا وأهدافنا ومبادىء حياتنا ومناهج عملنا ، ثم نكون مسلمين مع ذلك ، وإن لم تقترح علينا صورة للجمع بين هذه النقائض والأضداد ، فإنه سيكون من نتيجة ذلك أحد أمرين : إما أننا سنهلك على شاطىء هذا النهر ، وإما أننا سنمحو اسم الإسلام من واجهة سفينتنا ، وستكون هذه جارية في التيار مع السفن الأخرى .

إن أصحابنا المستنيرين المتجددين إذا تكلموا في مسألة فإنه تكون حجتهم النهائية التي يزعمونها عند أنفسهم ، أدحض الحجج ، إن إتجاه العصر هو هكذا ، وإن التيار يجري في هذه الجهة ، وإن المعمول به في الدنيا اليوم هو هذا ، فكيف لنا أن نخالفه ؟ وإن خالفناه فكيف نستطيع أن نحيا ؟ فإن كان الكلام في الأخلاق ، قالوا : إن مقياس هذا العصر للأخلاق قد تغير وتبدل ، يريدون بذلك أنه كيف يستمسك المسلمون بالمقياس الإسلامي القديم ؟ وإن كان البحث حول الحجاب ، قالوا : إن الحجاب قد ألغي في جميع أنحاء العالم ، ومرادهم بذلك أن الطريقة التي قد ألغاها العالم كيف لا يلغيها المسلمون ؟ وإن كان الموضوع التعليم ، كانت حجتهم الأخيرة في بابه أن التعليم الإسلامي لم يعد نافقاً في سوق العالم اليوم ، يقصدون بذلك أنه لماذا يتخرج أبناء المسلمين من المعاهد التعليمية كسلعة متقادمة لا تطلب اليوم في سوق العالم ، ولم لا تكونون سلعة هي مطلوبة في كل مكان . وإن كان الخطاب في موضوع الربا ،

كان فصل الخطاب أنه لا يمكن أن تجري شؤون الدنيا بدونه في هذه الأونة ، يعنون بذلك أنه كيف يكون للمسلمين أن يتجنبوا الأمر الذي قد أصبح لازماً لتدبير شؤون الدنيا . محصل القول أنه أيما شعبة من شعب الحياة ، من التمدن والاجتماع والأخلاق والتعليم والاقتصاد والقانون والسياسة وغيرها يريد هؤلاء أن يتبعوا فيها الطريقة الافرنجية بعدول عن طريقة الإسلام ، فإنه يكون من حجتهم النهائية لتبرير فعلتهم هو اتجاه العصر ، ووجهة التيار ، وسير الزمان ، وتقدم هذه الحجة كالبرهان القاطع على جواز ذلك التقليد الغربي ، أو ذلك الارتداد الجزئي في حقيقة الأمر . ويظن من الواجب أن يسقط من أجزاء البنيان الإسلامي كل جزء يطعن عليه من جهة هذه الحجة .

وإنا نقول : إن مقترحات الهدم والتخريب هذه التي تعرضها متفرقة وعلى حدة ، لم لا تجمعها وتجعل منها جميعاً اقتراحاً واحداً شاملاً ؟ إنه لمن إضاعة الوقت أن تقترح هدم كل جدار وكل غرفة وكل بهو من المنزل على حدة وأن تبحث في أمر كل واحد من ذلك على انفراد ، فمالك لا تقترح أن هذا البيت كله يستحق أن يهدم ، لأن لونه مختلف عن لون العصر ، ووجهته مغايرة لوجهة الريح العصرية ، وشكله يختلف عن الشكل الذي تبني عليه البيوت في العالم اليوم .

أما الذين يفكرون حقاً هذا التفكير ، فإنه من العبث أن يناقشهم المرء . وإنما الجواب القطعي الصريح لهم أنه لماذا

تتكلفون أيها السادة : أن تهدموا هذا البيت وتبنوا مكانه آخر . وإنما لكم أن تنتقلوا من هذا البيت إلى آخر يروقكم ويرضيكم من حيث الشكل واللون والوضع . وإن كنتم تحبون أن تجروا مع التيار فلماذا تكلفون أنفسكم بمحو اسم الإسلام من واجهة السفينة ، وإنما لكم أن تغادروا هذه السفينة وتركبوا واحدة من السفن التي هي جارية مع التيار . إن الذين ليسوا مسلمين في أفكارهم وأخلاقهم واجتماعهم واقتصادهم وتعليمهم وبالجملة في أي ناحية من نواحي حياتهم ، ولا يحبون أن يبقوا مسلمين ، لا نفع للإسلام في بقائهم مسلمين من حيث الاسم ، بل له فيه ضرر أي ضرر . إن القوم لا يعبدون الله ، بل هم عبدة أهوائهم ومتبعو تيار العصر . فلو أنه راجت في الدنيا اليوم عبادة الأصنام ، لعاد هؤلاء يسجدون للأصنام . ولئن عم العري في هذا العالم لنزع هؤلاء ثيابهم وعاشوا عراة كالأنعام . وإن جاءت الدنيا تأكل النجس والقذر ، قالوا : إن النجس والقذر هو الطهارة ، وإن الطهارة في الحقيقة نجس ، إن قلوب القوم وأذهانهم مستعبدة ، وكأنها قد خلقت للعبودية . وبما أن الغلبة اليوم للافرنج يريد هؤلاء أن يتفرنجوا في كل ناحية من نواحي شخصيتهم ، من الباطن إلى الظاهر . وإن تكن الغلبة غداً للأحباش تراهم يعودون فيسودون وجوههم ويورمون شفاههم ويجعّدون شعرهم تشبهاً بالأحباش ، ويقدسون كل شيء يأتيهم من أرض الحبشة . إن أمثال هؤلاء العبيد لا حاجة

للإسلام إليهم أبداً . ولعمر الله لئن محيت أسماء هؤلاء المنافقين والمستعبدين من سجل مئات الملايين من أفراد الأمة ولم يبق في العالم سوى عدة آلاف من أولئك المسلمين الذين ﴿ يحبُّهم ويحبونهُ أذلةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرين ، يجاهدون في سبيلِ اللَّهِ ولا يخافونَ لومة لائم ﴾ ، كان الإسلام أعز وأقوى بأضعاف مضاعفة مما هو الآن ، وكان خروج مئات الملايين هؤلاء منه كخروج القيح والدم الفاسد من جسد عليل .

يقولون : (نخشى أن تصيبَنا دائرة) ، وليس هذا النداء بجديد ، بل هو قديم ما زالت تهتف به ألسنة المنافقين . وهذا هو النداء الذي ينم على مرض النفاق الكامن في النفوس . وهذا هو الذي لم يزل المنادون به يجنحون أبداً إلى معسكر أعداء الإسلام ، وما زالوا أبداً يعتبرون حدود الله غلا في العنق وقيداً في الأرجل ، وما زالوا منذ الأبد يستثقلون اتباع أحكام الله والرسول ، ويرون في الإطاعة خسارة الأنفس والأموال وفي العصيان النجاح كله في الحياة الدنيا . فلم تبدل شريعة الله لأجلهم فيما سبق ولا من الممكن تبديلها الآن ولا في المستقبل . فإن هذه الشريعة الإلهية لم تنزل للأقزام الخانعين ، ولا لعبدة الأهواء وموالي الدنيا ، ولا لأمثال الريشة الطائرة في مهب الريح ، أو أمثال الغثاء الجاري مع تيار الماء ولا للحربائيين الذي يتلونون بكل لون من ألوان البيئة . وإنما نزلت لأولئك الليوث الأبطال الذين يجدون

أنفسهم أقوياء على تغيير مهب الريح ، ومقاومة التيار وتحويل مجراه إلى الجهة الصحيحة والذين يحبون صبغة الله فوق ما سواها وقد عزموا على أن يصبغوا جميع العالم بهذه الصبغة . إن الكائن الذي يقال له « المسلم » لم يخلق للانسياق مع التيار ، وإنما الغاية من وراء خلقه في هذه الدنيا أن يوجه تيار الحياة في الوجهة التي هي وجهة الحق والصواب بحسب إيمانه وعقيدته ، ولئن كان هذا التيار قد غير مجراه من هذه الجهة الصحيحة ، فكاذب في دعوى الإسلام من يرضى بهذا المجرى المتحول عن وجهة الصواب . وإن الذي هو مسلم حقاً وبكل معنى الكلمة لا جرم أن يزاحم سد هذا التيار المنحرف ، ويبذل غاية وسعه في صرف مجراه . ولن يهمه في هذا الجهد نيل الفوز أو حصول الخيبة ، بل أنه سيحتمل ما يناله فيه من الخسارة والضرر ، ولن تنهزم روحه المكافحة حتى وإن انكسرت أعضاؤه من جهد الصراع مع التيار ، وتفككت أوصاله وألقته الأمواج على الشاطيء مهزولاً مغشياً عليه . إنه لن يتسرب إلى نفسه الأسى والأسف على هذه الخيبة الظاهرة ، أو الحسد والتلف على فوز الكفار والمنافقين المنساقين مع التيار .

إن القرآن يا قوم بين أيديكم ، وسير الأنبياء عليهم السلام أمام أنظاركم ، وأحوال الناهضين بدعوة الإسلام منذ البدء إلى الآن منشورة أمامكم ، فهل تتعلمون من كل ذلك أن تطيروا مع الريح ، وتسيلوا في جهة التيار ، وتتلونوا بكل

ما يتخذه زمانكم من اللون . ولو كان المقصود هو هذا فلماذا أنزل الكتاب وبعث الأنبياء . وإنما كانت أمواج الريح كافية لتوجيهكم . وتيار الحياة الدنيا كافيا لإرشادكم ، وتقلبات الزمان كافية لتعليم صنعة الحرباء ، إنه لم ينزل الله تعالى كتاباً من عنده يعلم هذا التعليم المهين ولا بعث لأجله نبياً وإنما كل ما جاء من عنده سبحانه من رسالة جاء لأجل أن يلغي جميع الطرق الخاطئة التي تسير عليها الدنيا ويقرر مكانها طريقاً قاصداً مستقيماً ، ويمحو كل ما يخالفه من الطرق ويصد الدنيا عنها صدوداً ، ويؤلف جماعة من المؤمنين لا تكتفي بأن تسلك ذلك الصراط المستقيم بل تعمل على جذب الدنيا إليها ، وإن الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم جاهدوا أبداً لتحقيق هذا المقصود وقد أوذوا في هذا السبيل أصناف الأذى ، واحتملوا أبهظ الخسائر وضحوا بأنفسهم ولم يتخذ أحدهم سير الزمان قدوة له . إما خوفاً من النكبة أو طمعاً في المنفعة . فإن كان هناك من يخشى الخسارة والمشكلة والخطر في اتباع الطريق الذي تهدي إليه الهداية السماوية ، ولخشيته تلك يريد أن ينتهج طريقاً يبدو له السائرون فيه ناجحين ، مترفهين ، أعزة ، فله أن يتخذ ذلك الطريق المرضي عنده ولكن ما بال ذلك الجبان الطماع يخدع نفسه ويخدع الدنيا أيضاً بأنه متبع لكتاب الله وسنة النبي ، مع كونه قد هجرهما ونبذهما وراء ظهره . إن العصيان بذاته جريمة عظيمة . فلا ندري أي نفع يقصد باتباعه جرائم الكذب والغش والنفاق .

أما الظن بأن تيار الحياة لا يمكن أن يحول من المجرى الذي قد سال فيه ، فخطأ من جهة العقل وتشهد بخلافه التجربة والمشاهدة أيضاً . إنه قد حدثت في هذه الدنيا مئات من الثورات . وكل ثورة منها جاءت فحولت مجرى هذا التيار . وأبرز الأمثلة لهذه الظاهرة التاريخية نجده في الإسلام نفسه . فإنه لما بعث النبي ﷺ في هذه الدنيا فماذا ـ ترى ـ كانت وجهة التيار الحياتي عندئذ ؟ ألم يكن الكفر والشرك قد استولى على العالم كله ؟ وهل لم تكن الفواحش مسيطرة على الأخلاق ، واتباع الهوى مسيطراً على الاجتماع ، والرأسمالية والإقطاعية المستبدة مسيطرة على الاقتصاد ، والإفراط والعدوان مسيطراً على القانون ؟ ولكنه قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها ، ورفض كل تلك الأفكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا . وعرض بإزائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة ، وفي مدة قليلة من السنين حول مجرى التيار وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده .

وأحدث الأمثلة لذلك الحركة الشيوعية . وذلك أنه في القرن التاسع عشر كانت سيطرة الرأسمالية بلغت منتهاها . ولم يكن يخطر ببال جبان متقلب مع الريح أن النظام الذي قد تسلط على الدنيا بكل تلك القوة السياسية والعسكرية الرهيبة يمكن أن يطاح به أبداً . ولكنه في تلك الظروف نهض رجل هو كارل ماركس . وراح يبلغ التعليم الشيوعي فعارضته في

ذلك الحكومات ، ونفي عن الوطن وظل شريداً ينتقل من بلد إلى آخر ، يعاني من النكبة والعسر ما يعاني . ولكنه قبل أن يموت نجح في إنشاء جماعة دكت عرش القوة الكبرى المهيبة في روسيا في مدة أربعين سنة . ولم تقف عند ذلك ، بل زعزعت قواعد الرأسمالية في جميع العالم ، وعرضت نظرية لها خاصة في الاقتصاد والعمران بقوة جعلتها تنمو وتنتشر ، حتى أن عدد أتباعها لا يزال يزداد إلى هذا اليوم ،وعادت تتأثر بها القوانين حتى في تلك الأقطار التي قد تأصل فيها الحكم الرأسمالي بكل قوته .

على أن الثورة أو الارتقاء لا تحدث إلا بالقوة والبأس . وليست القوة عبارة عن الانصهار ، بل هي صهر الغير في القالب المراد ، وليست القوة هي الانفعال بل هي الفعل في الآخر على الوجه المطلوب . ولم يقم الجبناء الهالعون بثورة في الدنيا قط وإن الذين لا يكون لهم مبدأ خاص ولا غاية حياة ولا مطمح أبصار ، والذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى ، ولا يتشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات ، والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد ، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل ضغط ، لا تجد لهم فعالاً يذكر في التاريخ الإنساني . وإنما تشكيل التاريخ يكون من شأن الأبطال وحدهم . وهم الذين قد غيروا أبداً مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم ، وبدّلوا أفكار العالم ، وأحدثوا الثورة في

أساليب العمل ، وبدل أن يصطبغوا بصبغة العصر قد سبغوا العصر بصبغتهم أنفسهم .

لذلك لا تقولوا إنه لا يمكن أن تحول الدنيا عن الدرب الذي هي سائرة فيه وأنه لا بد من اتباع سيرة الزمن . بل يجب عليكم بدل أن تدعوا دعوى الاضطرار الكاذبة أن تعترفوا بضعفكم اعترافاً أميناً . وإذا اعترفتم بذلك كان عليكم أن تقروا أيضاً بأن الضعيف لا يمكن أن يكون له دين في هذه الدنيا أو مبدأ أو ضابطة . وإنما هو مضطر أن يخضع لكل قوي ويستكين لكل قاهر . وليس من شأنه لذلك أن يتقيد بمبدأ من مبادئه أو بضابطة من ضوابط القانون . ولئن راح دين من الأديان يبدل مبادئه لأجل هذا المتذبذب المترنح فإنه لن يبقى ديناً أبداً .

وأيضاً من الخداع الذي تخدعون به أن قيود الدين الإسلامي عائقة لكم دون الرفاهية والتقدم فقولوا بالله أي قيد من قيوده تلتزمونه في هذه الآونة ؟ وأي قيد من قيوده لم تكسروه ولم تفلتوا منه ؟ وأي حد من حدوده لم تتجاوزوه ؟ وأي شيء من الأشياء التي قد جرت عليكم الهلاك فعلاً أباحه لكم الإسلام ؟ إن الذي يهلككم هو إسرافكم وتبذيركم الذي ينزع الملايين من الجنيهات سنوياً من جيوبكم بصورة الربا وينقلها إلى كنوز الصيرفيين المحتكرين ، ومن جراء هذا الإسراف لا تزال تخرج من أيديكم أملاك ذات مئات الملايين من الجنيهات . فهل كان الإسلام أباح لكم هذا الإسراف ؟

وإن الذي يهلككم هو عاداتكم السيئة فلا تزال دور السينما والمسرح واللهو واللعب توجد غاصة كل مساء بأفراد أمتكم على رغم هذا الفقر والعسر . وكل واحد من أفرادكم ينفق فوق وسعه على اللباس وأدوات الزخرفة والتزين . وتذهب ملايين الجنيهات من جيوبكم سدى كل شهر في القيام بالتقاليد الزائفة وأعمال التظاهر والرياء وأشغال الجاهلية . فأي شيء من هذا كان أحله لكم الإسلام ؟ والداهية الكبرى التي قد أوقعتكم في المهلكة هي إلغاؤكم نظام الزكاة وإهمالكم التعاون فيما بينكم . وهل لم يكن الإسلام قد فرض عليكم ذلك ؟ . . . فالحقيقة الواقعة أن انحلال حياتكم الاقتصادية ليس نتيجة التزامكم لقيود الإسلام ، بل هو نتيجة انقلابكم منها . وأما التقيد في أمر الربا خاصة فأين يوجد اليوم في مجتمعكم ؟ إن ٩٥ في المائة على الأقل من أفراد أمتكم المسلمة يقترضون الأموال على الربا بدون اضطرار حقيقي . هذا هو التقيد بأحكام الإسلام ! ومن المسلمين المثرين أيضاً فئة كبيرة تأكل الربا في صورة من صوره . وإن كانوا لم يتخذوا الصيرفة والاحتكار مهنة لهم على الوجه المعتاد فأي فرق يقع بذلك . إن أكثرهم لا شك يأكلون الربا المشمول بمعاملات البنوك والتأمين والعقود المالية الرسمية والاعتماد التوفيري (Provident Fund) فأين هناك التقيد بحرمة الربا ، الذي يتهمونه بكونه سبباً في انحطاطكم الاقتصادي ؟

ومن طريف الاستدلال أن شرف المسلمين وكرامتهم وشوكتهم القومية متوقفة تماماً على الغنى المالي ، والغنى المالي يتوقف على الأخذ بأسباب الرفاهية والرقي الاقتصادي ، ومدار كل هذا على جواز الربا . ويبدو أن القوم لم يعلموا إلى الآن أنه أي شيء يتوقف عليه في الحقيقة الشرف القومي والقوة والعزة . إن الثروة وحدها ليست الأمر الذي يضمن لأمة من الأمم القوة والعزة والشرف . ولئن أصبح كل فرد من أفرادكم يملك الملايين من الجنيهات ولم تكن فيكم قوة السيرة والخلق ، فثقوا بأنكم لن تكونوا على شيء من الكرامة والشرف في العالم . وإن كانت فيكم ـ بخلاف ذلك ـ السيرة الإسلامية ، وكنتم أهل صدق وأمانة ، نزهاء في الطمع والخوف ، راسخين في مبادئكم وأمناء في معاملاتكم ، تظنون الحق حقاً والواجب واجباً وتراعون الفرق بين الحلال والحرام في كل حال ، وكانت فيكم من القوة الأخلاقية أن لا تعدلوا عن سبيل الحق طمعاً في ربح أو خوفاً من نقصان ، ولا يكون من الممكن اشتراء إيمانكم بأية قيمة مهما غلت ، إن كان فيكم كل هذا وقعت مهابتكم في قلوب الأمم ورسخ عزكم في نفوس العالم وكان كلامكم أرجح وأوزن من كل ما يملك أصحاب الملايين من الثروة وكنتم مع كونكم ساكني الأكواخ ولابسي الخرق والرقاع أكرم عند الشعوب من أهل الدور والقصور ، وتهيأت لأمتكم من القوة والصولة ما لا يمكن أن يغلب أبداً . أرأيتم ما كان أفقر المسلمين في عهد

أصحاب النبي ! كانوا يعيشون في الأكواخ وفي خيام من الوبر ، لا يعرفون زخرفة المدنية وزهوها ، لا يتأنقون في الملبس ولا في المأكل ولا في الأسلحة ولا في المراكب ولكنه كان لهم ـ رغم هذا كله ـ من المهابة والرعب في قلوب العالم ما لم يتهيأ لهذه الأمة لا في العهد الأموي ولا في العهد العباسي ولا في أي عهد بعد ذلك . إنهم لم يكونوا يملكون المال . ولكنهم يملكون قوة السيرة والخلق ، التي أذعن لعظمتها وكرامتها العالم كله . وأما الذين خلفوهم بعد فلا شك اجتمعت وكرامتها العالم كله . وأما الذين خلفوهم بعد فلا شك اجتمعت في أيديهم الأموال ، وامتدت حكومتهم في الأرض وتهيأت عندهم زخرفة المدينة ولألاؤ ها ، ولكنه لم يعوضهم شيء من هذا كله من وهن السيرة والخلق الذي أصيبوا به .

إنكم قد نسيتم عبرة التاريخ الإسلامي . فخذوا الآن تاريخ أية أمة من أمم العالم وانظروا فيه ، لن تجدوا مثالاً واحداً لأمة نالت القوة والعزة من طريق التساهل والاستراحة وإيثار المنفعة . ولن تجدوا بمكان الرفعة والعز أمة لا تتقيد بمبدأ أو ضابطة ، ولا تتحمل ضيقاً أو عسراً أو مشقة لأجل غاية سامية ، ولا تكون مستعدة لبذل أهوائها ، بل لبذل أنفسها ذاتها في سبيل مقاصدها وأهدافها . فهذا التقيد بالقيود والتزام الضوابط وبذل الراحة والرفاهية والمنفعة في سبيل المقاصد العليا ستجدونه عند جميع الأمم في لون من

الألوان . فلونه في الإسلام معلوم ، ولونه عند الأمم الراقية الأخرى مختلف عنه ، وعلى ذلك فإن هجرتم الإسلام ودخلتم في نظام مدني آخر ، فلا بد أن تضطروا هنالك أيضاً أن تتقيدوا بضابطة من الضوابط ، وتتحملوا وطأة تأديب وتنظيم ، إن لم يكن بهذا اللون الإسلامي فبلون آخر . ولا بد أن تشدوا في ملزمة المبادىء المخصوصة ، وتطالبوا بالتضحية لأجل مقصود ما أو مبدأ من المبادىء . ولئن لم تكونوا متجلدين لهذا كله ، وكنتم راغبين في مجرد السهولة والسعة والحلاوة لا تطيقون شيئاً من الشدة أو المرارة . فاذهبوا حيثما شئتم منفلتين من قيود الإسلام ، لن تنالوا مكان العز والرفعة في العالم ، ولن تجدوا كنوز القوة والشوكة في الأرض ! وقد بين القرآن الكريم هذه القاعدة الكلية في كلمات أربع . وتلك الكلمات الأربع قد شهد بصدقها تاريخ العالم كله . قال الله عز وجل : ﴿ إن مع العُسر يُسراً ﴾ . فالذي لا يطيق العسر ولا يصبر على المشقة ليس له أن يتمتع بيسر !

* * *

الفصل التاسع عشر

الخطة التعليمية الجديدة لمسلمي الهند ومنهاج العمل بها

[هذا محضر قدم جواباً للأسئلة التي وجهتها لجنة إصلاح برنامج تدريس الإلهيات ، التابعة لجامعة عليكر في الهند . ومع أن المخاطب فيه على الظاهر هو جامعة عليكر . ولكن المخاطب به في الحقيقة جميع المؤسسات التعليمية للمسلمين . إن الخطة التعليمية التي قد بينت في هذا المحضر نظن اختيارها للمسلمين أمراً لا بد منه . إن جميع معاهدهم التعليمية ، سواء أكانت جامعة عليكر ، أم مدرسة ديوبند ، أم دار العلوم التابعة لندوة العلماء أم الجامعة الملية ، قد أمست مناهجها التعليمية عتيقة بالية لا تجيب مطالب العصر . فإن لم تراجعها وتعدلها كل هذه المؤسسات . فقدت منفعتها تماماً] .

* * *

إن مجلس جامعة عليكر لجدير بموفور الشكر من قبل جميع مسلمي الهند على أنه صرف عنايته أخيراً إلى المقصد الأساسي لمؤسسته ، وهو بعث الروح الإسلامية الحقيقية في

نفوس الطلبة ، ولأجل تحقيقه عين لجنتكم هذه . وقد نظرت بإمعان فيما تسلمت من الأوراق من مكتب الجامعة ، وأعتقد أنه إذا كان الكلام في المنهج المتبع الآن لتعليم العلوم الدينية والإلهيات . فلا شك أبداً في كونه غير مطمأن إليه . فالبرنامج الذي لا يزال يدرس في الجامعة لهذه العلوم ناقص من غير شك ، ولكن الأسئلة التي وجهها أعضاء اللجنة الأفاضل ، يدل النظر فيها على أن اللجنة تعالج في الوقت الحاضر مسألة تعديل البرنامج وحدها . ولعله يظن أنه بإخراج كتب معدودة من البرنامج وإدخال كتب أخرى مكانها فيه يمكن أن تبعث في الطلبة الروح الإسلامية المنشودة . وإن صح قياس في الأمر فإني أقول : إنه تقدير ناقص جداً لصورة الواقع الحقيقي . ومن الواجب علينا في الحقيقة أن نتعمق المسألة وننظر ما هو السبب في عدم نشأة الروح « الإسلامية الحقيقية » في الطلبة على رغم ما هم يعلمون الآن من تعليم القرآن والحديث والفقه والعقائد . إن كان ذلك السبب هو مجرد نقص البرنامج الحالي لهذه العلوم ، فإن تدارك هذا النقص لا شك سيكفي لإزالة ذاك الفساد . ولكنه إن كانت أسباب ذلك أوسع وأعمق ، وإن كان هناك في خطتكم التعليمية بكاملها فساد جذري ، فلن يكفي تعديل برنامج العلوم الإلهية الإصلاح الحالة الحاضرة . بل ستضطرون لذلك إلى أن توسعوا دائرة الإصلاح والترميم ، مهما كلفكم ذلك من المتاعب ومهما لاقيتم فيه من الصعاب . وقد فكرت في

المسألة من هذه الناحية . وأذكر فيما يلي ـ بما يمكنني من الأيجاز ـ النتائج التي قد وصلت إليها نتيجة هذا التفكير . وسيكون تقريري هذا على أقسام ثلاثة . ففي القسم الأول ستنتقد الخطة التعليمية الحاضرة للجامعة وتبرز مفاسدها الجوهرية ، ويبين ماذا يجب أن يكون من خطتنا التعليمية التي تضمن مصالح الأمة الحقيقية . وفي القسم الثاني ستعرض المقترحات الإصلاحية . وفي الثالث الأخير سيكون الكلام في التدابير اللازمة للعمل بتلك المقترحات .

إن منهج التعليم الذي هو معمول به الآن في الجامعة يشتمل على خليط من التعليم العصري والتعليم الإسلامي لا التحام فيه ولا انسجام . وإنما أخذوا عنصرين تعليميين متعارضين لا صلة بينهما فحشدوهما في منهج تعليمي واحد ، ولم يعالجوهما علاجاً يصلحان به لأن يتحولا إلى قوة علمية مركبة فيخدما ثقافة بعينها من الاثنين . ومن النتيجة أنه مع هذا الاجتماع والاقتران يبقى العنصران منفصلين بعضهما عن بعض ، بل هما يتعارضان ويتنازعان ذهن الطالب إلى جهتين متعاكستين . وإن ننظر في الأمر حق من وجهة النظر التعليمية الخالصة ، بإعراض عن وجهة النظر الإسلامية ، فلا بد أن نرى أنه من الخطأ أصلاً أن يختلط في التعليم مثل هذه العناصر المتعارضة المتناقضة ، وأنه لا يمكن أن تأتي هذه الخطة بنتيجة مفيدة .

وأما من وجهة نظر الإسلام فقد أصبح هذا الاختلاط

أصمى للقبح والسوء لأنه أولاً لا يجوز الاختلاط في عناصر التعليم . ومن الآفة بعد ذلك أن هذا الاختلاط لا ترعى فيه التسوية بين العنصرين . بل العنصر الغربي فيه أقوى ، والعنصر الإسلامي بإزائه أضعف والذي يتمتع به العنصر الغربي من أسباب الرجحان هو أولاً ـ أنه عنصر عصري ، توجد من ورائه قوة اتجاه العصر وقوة مدنية حاكمة عالمية ، وثانياً قد أدخل هذا العنصر في تعليمنا الجامعي بذلك الامتياز وتلك القوة التي هي حاصلة له فعلا ـ ولا بد أن تحصل له ـ في الجامعات العصرية التي أنشئت لخدمة الثقافة الغربية . فالعلوم والفنون الغربية تدرس عندنا على نحو ترتسم به مبادئها ونظرياتها على الألواح الصافية الساذجة من قلوب النشء المسلم كحقائق إيمانية لا ترد ، وتنصاغ عقليتهم كلها في القالب الغربي ، بحيث يعودون ينظرون بعين الغرب ويفكرون بذهن الغرب . ويغلبهم الاعتقاد بأنه إن كان في هذا العالم شيء مقبول محترم فهو الذي يطابق مباديء الحكمة الغربية وأصولها وهذا التأثر والانفعال تقويه بعد ذلك تلك التربية التي يجري العمل عليها في جامعاتنا فعلا إذ ليس هناك شيء من اللباس والعادات والحركة والاجتماع والأدب والتكلم واللهو واللعب يتخلص من غلبة الحضارة والتمدن الغربي والميول والنوازع الغربية . وإن البيئة الجامعية إن لم تكن غربية بكاملها فإنها لا شك غربية بقدر **٩٥** بالمائة . والذي يكون ـ أو يمكن أن يكون ـ لهذه البيئة من تأثير ونفوذ

لا يخفى على عاقل واع . وأما العنصر الإسلامي بخلافه فإنه ضئيل جداً . وإنه أولاً قد ضعف وتضاءل بنفسه بما قد ضاع عنه من القوة المدنية والسياسية . ثم إن الكتب التي يدرس فيها هذا العنصر قد كانت كتبت قبل زماننا هذا ببضعة قرون . فليس أسلوبها ولا تأليفها وتدوينها مما يروق الذهن العصري . ثم إن الأوضاع والمسائل العلمية التي تبحث فيها تلك الكتب وتطبق مبادىء الإسلام الأبدية عليها لا نواجه أكثرها اليوم . وأما المسائل التي نواجهها اليوم فلم يعن أحد بتطبيق تلك المباديء عليها . هذا وليس من وراء هذا التعليم الإسلامي نظام تربوي أو بيئة عصرية او سلوك عملي مما يجعل اختلاطه بالتعليم الغربي شيئاً فاقد التأثير . ومن النتيجة الطبيعية لمثل هذا الاختلاط غير المتساوي أن يستحوذ العنصر الغربي كاملاً على أذهان الطلبة وقلوبهم ، ويعود العنصر الإسلامي عندهم أضحوكة ، أو يبقى لديهم ـ على الأكثر ـ شيئا محترماً لكونه من باقيات ماضينا القديم .

وإني أستميحكم العفو على صراحتي هذه . ولكن الذي أشاهده أظن أن من واجبي أن أبينه لكم بلا نقص أو شطط . إن التعليم المدني والديني في هذه الجامعة المسلمة مثله من حيث المجموع عندي كمثل رجل تنشئونه غير مسلم من أعلاه إلى أسفله ، ثم تجعلون في إبطه حزمة من كتب الإلهيات ، لكي لا تتهموا بجعلكم إياه غير مسلم . وإن جاء ذلك الرجل فطرح تلك الحزمة من يده طرحاً ـ مما سيكون سببه تعليمكم

هذا ولا بد ـ فأنتم ترون أن الملوم على فعلته هو نفسه لا أنتم . وإذا كنتم ترجون من هذا المنهج التعليمي أنه سيخرج الطلبة مسلمين صادقين فمعناه أنكم تتوقعون حدوث المعجزة والخارق . ذلك بأن الأسباب التي قد هيأتموها لا يمكن أن تكون نتيجتها كما ترجون بحسب القانون الطبيعي . وليس من الحجة بقاء واحد او اثنين او أربعة في كل مائة من طلبة الجامعة مسلماً ـ أي مسلماً كاملاً من حيث العقيدة والعمل كلاهما ـ لأنه لا يرجع الفضل في ذلك إلى حسن تربية جامعتكم ، وإنما هو برهان على أن الذي قد اجتاز تربيتكم تلك متحفظا بإيمانه وإسلامه كان ولد في الحقيقة على الفطرة الإبراهيمية الحنيفية . وأمثال هؤلاء الأفراد الاستثنائيين كما تعثر عليهم في خريجي جامعة عليكر تعثر عليهم كذلك في خريجي الجامعات الرسمية الوطنية ، بل الجامعات الأوربية أيضاً التي ليس في برامجها عنصر إسلامي البتة .

فإن أنتم أبقيتم الآن على هذه الأوضاع وهذا المنهج التعليمي كما هو ، وأبدلتم بالبرنامج الموجود لتدريس علوم الالهيات برنامجاً آخر أقوى من هذا تدخلونه في هذا التعليم ، فلن تكون من نتيجته **إلا** أن يزداد الصراع بين الطريقة الإسلامية والطريقة الافرنجية شدة ، ويصبح ذهن كل طالب ميدان النضال الذي ستتحارب فيه القوتان بكل صولة وبأس وستكون خاتمة المطاف أن ينقسم طلبتكم إلى فئات ثلاث :

أولاها أولئك الذين ستتغلب عليهم الطريقة الافرنجية ، سواء أكانت في صورة تقليد الإنكليز أم في صورة الإيمان الوطنية الهندية أم في صورة الجنوح إلى الشيوعية الإلحادية .

والثانية أولئك الذين ستغلب عليهم الطريقة الإسلامية ، سواء أكان لونها براقاً صافياً أم طامساً ضئيلا بفعل الطريقة الفرنجية .

والثالثة الأخيرة : أولئك الذين لا يكونون مسلمين كاملين ولا أفرنجيين كاملين .

والظاهر أن هذه النتيجة للتعليم ليست مما يرضي ويسر . فلا من وجهة نظر التعليم الخالصة يمكن أن يعد هذا الجمع بين النقيضين مفيداً ، ولا من وجهة النظر القومية يمكن أن تبرر وجودها جامعة يكون الثلثان أو الجانب الأكبر من نتائجها مخالفاً للمصلحة القومية ومترادفاً للضرر الكامل بالحضارة القومية . ومن الصفقة الخاسرة للأمة المسلمة الفقيرة على الأقل أن تنفق ملايين من الأموال كل سنة للإبقاء على دار ضرب تخرج **٣٣** في المائة من نقودها زائفة أبداً ، وتصنع **٣٣** في المائة على نفقتنا ليرمى بها في حجر غيرنا بل لتستعمل ضدنا .

ومن كل ما ذكرناه آنفاً يتضح أمران تمام الوضوح :

أولهما إن اختلاط العناصر المتعارضة في نظام تعليمي واحد خطأ مبدئي . والآخر أن هذا الاختلاط لا يكون مفيداً

لمصلحة الإسلام أيضا ، سواء أكان هذا الاختلاط غير متساو كالذي كان منه إلى اليوم ، أم يساوى فيه بين العناصر الممتزجة كما يراد الآن .

وبعد هذا الإيضاح أريد أن أبين : ماذا يجب أن يكون الآن من الخطة التعليمية لجامعة عليكر فيما أرى .

المعلوم أن كل جامعة من الجوامع تكون خادمة لثقافة بعينها . أما التعليم المجرد الذي لا يكون له لون ولا شكل فلم يلق قط في جامعة في الأرض ، ولا هو يلقى اليوم ، وانما يكون تعليـــم كل معهد ذا لون خاص وذا شكل بعينه . وينتخب ذلك اللون وهذا الشكل بعد إمعان وتفكير عميق مراعاة لتلك الثقافة المخصوصة التي قد أنشيء المعهد لخدمتها . فالآن أقول متسائلاً : ما هي الثقافة التي أنشأتم جامعتكم لخدمتها ؟ فإن كانت تلك الثقافة غربية فلا تدعو جامعتكم « مسلمة » ولا تعرضوا الطلبة لنزاع ذهني داخلي ، بإدخال برنامج لتدريس الإلهيات فيها . وإن كانت تلك الثقافة ثقافة إسلامية فلا بد لكم أن تبدلوا هيئة جامعتكم كلها وأن تصوغوا صيغتها التركيبية على نمط يلائم روح تلك الثقافة ومزاجها من حيث المجموع حتى تعود الجامعة وهي ليست محتفظة بتلك الثقافة فحسب ، بل هي قوة رصينة لدفعها إلى الأمام !

إن جامعتكم ـ كما أثبتناه آنفاً ـ هي في حالتها الراهنة

خادمة للثقافة الغربية . فإن اكتفيتم من تغيير هذه الحالة بأن تبدلوا برنامج الإلهيات وتجعلوه أقوى مما كان إلى الآن ، مع بقاء الطريقة الغربية للتعليم مسيطرة على سائر شعب التعليم والتربية ، فإنه لا يمكن أن يعود به هذا المعهد خادما للثقافة الإسلامية . وإنك إن أمعنت في حقيقة الاسلام تبينت بنفسك أن التفرقة بين التعليم والتربية المدنية والتعليم والتربية الدينية وخلطهما بعد ذلك مع إبقاء كل منهما على كيانه المستقل أمر عقيم لا فائدة فيه . لأن الإسلام ليس كالنصرانية ديانة تفرق بين دنيا المرء ودينه ، وهو لا يحصر نطاقه على العقيدة والتعاليم الأخلاقية فحسب ، تاركاً شؤون الدنيا لأهلها . فلا يمكن لذلك فصل الإلهيات الإسلامية ـ كالإلهيات النصرانية ـ عن العلوم الدنيوية . وإنما غاية الإسلام الحقيقية هي أن يعد الإنسان لأن يعيش هذه الحياة الدنيا ويقوم بشؤونها على طريقة هي طريقة الخير والسلام والغلبة والعز ، من لدن هذه الحياة إلى الحياة الأخرى . ولهذا الغرض يصحح الإسلام زاوية فكره ونظره ويصلح أخلاقه ويصهر سيرته في قالب مخصوص ، ويعين له الحقوق والواجبات ويضع له نظاماً خاصاً للحياة الاجتماعية . ثم إن له ضوابط مستقلة متباينة لتربية الأفراد النظرية والعملية ، وتشكيل المجتمع وتنظيمه ، وترتيب جميع شعب الحياة وتنسيقها ، بها وحدها تتخذ الحضارة الإسلامية صورة حضارة مستقلة ممتازة ، وعلى اتباعها والتزامها يتوقف بقاء الأمة المسلمة من حيث هي أمة . فإذا كانت الحال كما

ذكرنا فإنه يعود مصطلح « الإلهيات الإسلامية » بلا معنى إن لم يبق على ارتباط وثيق بالحياة وشؤونها . وأنه لن نكسد قليل النفع للثقافة الإسلامية ذلك العالم الديني الذي يعرف عقائد الإسلام وأصوله ولكنه لا يعرف كيف يتقدم بها في مضمار العلم والعمل وكيف يستعملها في أحوال الحياة ومسائلها المتغيرة على الدوام . وكذلك لا حاجة لهذه الثقافة إلى عالم العلوم المدنية يؤمن بصدق الإسلام في قلبه ولا ريب ولكنه يفكر بذهنه بطريقة غير إسلامية وينظر إلى الشؤون بنظرة غير إسلامية ويشكل الحياة على مباديء غير إسلامية . والسبب الحقيقي لزوال الحضارة الإسلامية وتبدد نظام التمدن الإسلامي هو أنه لم يزل ينشأ في امتنا منذ زمان علماء من هذين النمطين الاثنين فحسب . وقد انقطع ما بين العلم الديني والعلم والعمل الدنيوي . فإن كنتم تريدون أن تستعيد الثقافة الاسلامية شبابها وقوتها ، وبدل أن تمشي خلف الزمان تتقدم فتسير قدامه ، فعليكم أن تعيدوا هذا السبب المنقطع بين الدين والدنيا . ولكنه ليس وجهه الصحيح أن تجعلوا برنامج الإلهيات غلا في عنق الجسم التعليمي أو عبئاً محمولا عليه . كلا بل يجب أن تدخلوه في كامل نظام التعليم والتربية بصورة تجعله منه كالدم الجاري والروح الحية النابضة ، والبصارة والسمع ، والحس والإدراك ، والفكر والشعور ، وتأخذ كل ما في العلوم والفنون الغربية من الاجزاء الصالحة فتدمجها في نظام التعليم الاسلامي وتجعلها جزءاً لحضارة

الإسلام . هكذا سيكون لكم أن تخرجوا الفلاسفة المسلمين ، وعلماء الفيزياء والكيمياء المسلمين ، ومهرة الاقتصاد المسلمين ، والمقننين المسلمين والمفكرين المسلمين ورجال الاختصاص المسلمين في كل علم وفن ، الذين سيحلون مسائل الحياة من زاوية النظر الإسلامية ويستعملون ما للحضارة العصرية من الوسائل والأسباب الراقية لخدمة الحضارة الإسلامية ، وسيرتبون من جديد أفكار الإسلام ونظرياته وقوانين حياته مراعاة لروح العصر الجديد . . . إلى أن سيحتل الإسلام مرة أخرى مكان القيادة والامامة في كل مجال من مجالات العلم والعمل ، ذلك المكان السامي الذي بعث لأجله في الحقيقة في هذه الدنيا .

هذه هي الفكرة التي يجب أن تكون الفكرة الأساسية للخطة التعليمية الجديدة للمسلمين . إن الزمان قد تقدم كثيراً عن المقام الذي تركنا عليه السير سيد أحمد خان . فإن جمدنا على تلك الحالة لمدة زائدة استعصى علينا أن نبقى ونعيش كأمة مسلمة ، دع عنك أن نرقى ونتطور !

٢

وأريد أن أبين الآن أن الهيكل العظمي الذي قد اقترحته للخطة التعليمية آنفاً كيف يكسى لباس الصورة والشكل :

١ ـ إنه لمن اللازم أن تقتلع جذور « الطريقة الافرنجية » من حدود الجامعة المسلمة . ولئن كنا لا نريد أن نقتل

حضارتنا القومية بأيدينا فحتم علينا أن نمنع في جيلنا الناشئة هذه الميول الافرنجية المتزايدة مع الأيام . هذه الميول هي في الحقيقة وليدة العقلية المستعبدة ومركب النقص الكامن في النفوس ثم إنها حينما تظهر مظهراً عملياً في اللباس والاجتماع والآداب والعادات وفي البيئة كلها من حيث المجموع ، فإنها تحيط بالنفوس وتستحوذ عليها من الجهتين : الداخلية والخارجية ، ولا تدع فيها ولو مسكة من الشعور بالعز القومي . ففي مثل هذه الظروف لا يمكن البتة أن تحيا الحضارة الإسلامية ، وإن حضارة من الحضارات لا تنشأ عن مجرد الوجود الذهني والنظري لتصوراتها الأساسية بل تنشأ عن السلوك العملي التابع لها ، وبه تنمو وتزكو . ولئن انعدم هذا السلوك العملي ماتت الحضارة موتاً طبيعياً . ولم يمكن أن يبقى وجودها النظري إلى بعيد . لذلك إن أول ما يجب من الإصلاح وأهمه هو أن تخلق في الجامعة بيئة إسلامية حية . ويجب أن تكون تربيتكم على أسلوب يعلم الأجيال الناشئة أن يفتخروا بحضارتهم القومية ويبث فيهم الاحترام لخصائصهم القومية ، بل الغرام بها ، ويبعث فيهم روح الخلق الإسلامي والسيرة الإسلامية ، ويؤهلهم لأن يتقدموا بتمدنهم القومي إلى معارج التهذب العالية بفضل علمهم وكفاءاتهم الذهنية المدربة .

٢ ـ وإن بعث الروح الإسلامية في الطلبة يتوقف ـ إلى حد بعيد ـ على المعلمين وعلى علمهم وعملهم . فالمعلمون

الذين خلوا بأنفسهم من هذه الروح بل كانوا معاندين لها من حيث العلم والعمل كلاهما . فأنى يمكن أن تنبعث الروح الإسلامية في المتعلمين تحت نفوذهم وتأثيرهم ! وأنتم قصاراكم أن تخططوا البناء وتضعوا له الرسم . ولكن البنائين الذين يرفعون فعلا قواعد هذا البناء هم أعضاء أسرتكم التعليمية ، لا أنتم . وأن الرجاء من البنائين « الافرنجيين » أن يبنوا البناء من الهيئة الإسلامية كالرجاء من شجيرة الحنظل أن تنتج عنقوداً من العنب . لذلك لن يجدي أن تعينوا عدداً من « رجال الدين » لتعليم العلوم الإلهية على حين أن يكون القائمون بتعليم سائر العلوم أو أكثرها هم غير المسلمين أو المسلمون المنحرفون في فكرهم عن الإسلام ، لأن هؤلاء سيعدلون بتصورات الطلبة ونظرياتهم في الحياة ومسائلها وشؤونها عن المركز الإسلامي ولن يمكن علاج هذا السم بترياق برنامج الإلهيات فحسب ، ومهما كان من الفن الذي يراد تعليمه سواء هو الفلسفة أو العلم التجريبي (Science) أو علم الاقتصاد أو القانون أو التاريخ ، فإنه لا يكفي لتعليمه وتدريسه أن يكون المعلم متخصصاً فيه ، بل من اللازم كذلك أن يكون مسلماً صادقاً راسخاً في عقيدته . وأن اضطررتم في بعض الظروف المخصوصة إلى أن تنتدبوا لتعليم فن من الفنون أخصائياً من غير المسلمين ، فلا حرج عليكم فيه ، ولكنه يجب أن تكون القاعدة العامة المراعاة في هذا الأمر هي أن يكون أساتذة هذه الجامعة بجانب كونهم

ماهرين في فنونهم نافعين لمقصد الجامعة الأساسي ـ أي الثقافة الإسلامية ـ من حيث أفكارهم وأعمالهم جميعاً .

٣ ـ ويجب أن تدخل اللغة العربية في تعليم الجامعة كلغة ضرورية . فهذه لغة ثقافتنا والذريعة الوحيدة للوصول إلى مآخذ الإسلام الرئيسية وما دامت الطبقة المتعلمة من المسلمين لا تصل إلى القرآن والسنة مباشرة بدون واسطة فإنها لن تجد روح الإسلام ، ولن تكتسب البصيرة في الدين ، بل ستبقى محتاجة أبداً إلى الشارحين والمترجمين . ومن ثم لن يصل إليها ضياء الشمس من الشمس مباشرة ، بل يصل اليها بواسطة الزجاجات الملونة من أنواع مختلفة . وهؤلاء رجالنا المثقفون الجدد يرتكبون اليوم في المسائل الإسلامية من فاحش الأخطاء ما يدل على أنهم لا يعرفون حتى ألف باء الإسلام . وليس السبب في ذلك إلا كونهم لا يملكون وسيلة للاستفادة من القرآن والسنة مباشرة . وإذا منحت المجالس التشريعية الهندية صلاحيات التشريع الواسعة أيام الحكم الذاتي المفوض إلى المقاطعات (Provincial Autonomy) في المستقبل ، وجرى العمل على وضع القوانين الجديدة للإصلاح الاجتماعي ، فإن مثّل المسلمين في تلك المجالس آنئذ رجال هم أجانب عن الإسلام ويؤمنون بالتصورات الغربية للاخلاق والاجتماع والقانون ، فلن يعود التشريع الجديد على المسلمين بإصلاح اجتماعي بل بإفساد اجتماعي ، وسيروح النظام الاجتماعي للمسلمين

يزداد بعداً عن المباديء التي أقيم عليها ، ولأجل هذا كله يجب ألا تظنوا مسألة اللغة العربية مسألة لغة عادية بل تفهموا أن هذه المسألة منوطة بمقصد جامعتكم الأساسي . وكل ما كان منوطاً بالأصل والأساس (Fundemetals) فلا تراعى في أمره السهولة ولا تنتظر له مواتاة الفرص ، بل يفسح له المجال في كل حال .

٤ ـ إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) يجب أن نلقن الأولاد فيها معلومات بدائية في المواد الآتية :

(ا) **العقائد** : هذه المادة يجب ألا تشتمل على التفاصيل الكلامية الجافة للعقائد . بل ينبغي أن يتخذ أسلوب لطيف جداً لتثبيت التعاليم الاعتقادية في أذهان الطلبة ، أسلوب يرضي الوجدان الطبيعي ويقنع العقل . وليعرف الطلبة أن التعاليم الاعتقادية التي جاء بها الإسلام هي في نفس الأمر حقائق هذا الكون الأساسية ، وهي ذات صلة عميقة بحياتنا .

(ب) **الأخلاق الإسلامية** : لا يعرض في هذه المادة مجرد التصورات الأخلاقية ، بل تجمع للطلبة فيها أحداث ووقائع من حياة النبي ﷺ وسير الأنبياء عليهم السلام والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، تعلمهم ما هي خصائص سيرة المسلم ، وكيف تكون حياة فرد إسلامي .

(ج) **أحكام الفقه** : تذكر في هذه المادة أحكام الإسلام البدائية الضرورية فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق العباد والسيرة

الشخصية ومما لا بد لكل مسلم أن يعرفه . ولكن لا تكون فيها المسائل الجزئية من نمط ما جاء في كتبنا الفقهية القديمة كعدد الدلاء التي يلزم إخراجها لتطهير بئر وقعت فيها الفأرة . بل يجب ، بدل هذه المسائل ، أن يلقن الطلبة مغزى العبادات والأحكام وروحها ومصالحها ، ويجب أن يعلموا أن الإسلام يضع لهم برنامجاً لحياتهم الفردية والاجتماعية . وكيف يعمل هذا البرنامج لخلق مجتمع صالح .

(د) **التاريخ الإسلامي** : ينبغي أن تحصر هذه المادة في سيرة النبي وعهد الصحابة . وليكن الغرض من تعليمها أن يتعرف الطلبة على أصل دينهم وقوميتهم وينبعث في قلوبهم شعور صحيح بالحمية الإسلامية .

(هـ) **اللغة العربية** : يجب أن يكون ضمن هذه المادة علم ابتدائي للغة العربية ، يجعل الطلبة يستأنسون إلى الأدب العربي بعض الشيء .

(و) **القرآن** : تخلق في الطلبة ضمن هذه المادة ملكة يستطيعون بها أن يتلوا كتاب الله بسلاسة ، ويفهموا بعض الآيات السهلة ويحفظوا بعض السور على ظهر القلب .

٥ ـ أما التعليم في الكلية ، فيجب أن يكون له جانب عام من البرنامج ، يعلم لجميع الطلبة على السواء ، وليكن هذا البرنامج مشتملا على المواد الآتية :

(ا) **اللغة العربية** : يجب أن يكون تعليم اللغة العربية

متوسطة في مرحلة الثانوية العالية . وأما في مرحلة البكالوريوس (.B.A) فلتضم هذه المادة إلى تعليم القرآن .

(ب) **القرآن** : يعد الطلبة في مرحلة الثانوية العالية لفهم القرآن . وذلك بأن يلقنوا بعض المقدمات فحسب : ككون القرآن من الوحي الإلّهي وكتاباً محفوظاً ، وأصح وأجدر بالثقة من الناحية التاريخية ، وتفوقه على أمهات الكتب لسائر النحل والديانات ، وتعليمه الثوري الفذ ، وتأثيره لا في العرب وحدهم بل في أفكار العالم كله ، وقوانين حياته وأسلوب بنيانه ، وطريقة استدلاله ومقصوده الحقيقي (Theesis) .

أما في درجة البكالوريوس (.B.A) فيعلم الطلاب القرآن الكريم نفسه . وينبغي أن تكون طريقة التعليم لذلك أن يجتهد الطلبة لقراءة القرآن وفهمه بأنفسهم ، ويساعدهم الأستاذ في ذلك بأن يحل مشاكلهم ويرفع شبهاتهم ولئن اجتنب في هذا التعليم الرجوع إلى التفاسير المطولة والتعرض للمباحث الجزئية ، واكتفي بتوضيح المعاني والمفاهيم فحسب ، فإنه يمكن بسهولة أن يعلم القرآن الكريم بأكمله في سنتين اثنتين .

(ج) **التعاليم الإسلامية** : يجب أن يعرف الطلبة في هذه المادة بالنظام الإسلامي الكامل . ويعلموا ما هي التصورات الأساسية التي يقوم عليها بنيان الإسلام ، وكيف تشكل السيرة الإنسانية والأخلاق بناء على هذه التصورات .

وما هي المباديء التي تنظم عليها حياة المجتمع في شعب الاجتماع والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وعلى أي نحو وزعت الحقوق والواجبات في نظامه الاجتماعي بين الفرد والجماعة . وما هي حدود الله ، وما الذي يترتب من الإثراء على النظام الإسلامي إذا تجاوز المرء هذه الحدود فكل هذه الأمور تدخل في البرنامج بصفة جامعة شاملة ، وتقسم على مراحل التعليم الأربع في الكلية بنسبة معقولة .

٦ ـ أما ما عدا هذا البرنامج العام ، فيجب أن تقسم العلوم الإسلامية وتوزع على التعليم الاختصاصي لمختلف العلوم والفنون وتركب تعاليم الإسلام في كل علم وفن حسب ملاءمتها له وتطبيقها عليه . إن العلوم والفنون الغربية نافعة كلها بذاتها ولا يعادي الإسلام أياً منها ، بل أقول قولاً إيجابياً إن الحقائق العلمية من تلك العلوم والفنون يصادقها الإسلام وهي تصادقه . والعداء في الحقيقة ليس بين العلم والإسلام ، بل بين الطريقة الغربية والإسلام .

وذلك أن لأهل الغرب في أكثر العلوم تصورات أساسية مخصوصة ومفروضات جذرية (Hypotheses) ونقاط انطلاق (Starting Points) ليست بنفسها حقائق ثابتة ، بل هي مما يلهمهم وجدانهم . فهم يصوغون الحقائق العلمية في قالب مزاعمهم الوجدانية هذه ويرتبونها بحسب هذا القالب ، ويتخذون من ذلك نظاماً مخصوصاً . فالإسلام في الحقيقة يحارب هذه المفروضات الوجدانية . إنه لا يحارب

الحقائق ، بل هو عدو لهذا القالب الوجداني الذي تذاب فيه تلك الحقائق وتشكل . وذلك أن له تصوراً مركزياً وزاوية للنظر ، ونقطة انطلاق للفكر وقالب وجداني هو ضد ومناقض باعتبار أصله وفطرته للقوالب الغربية . وتستطيع أن تفهم من هذا أنه ليس من أسباب الضلالة من وجهة نظر الإسلام أنكم تأخذون الحقائق من العلوم والفنون الغربية ، بل هو أنكم تأخذون القالب الوجداني أيضاً مع ذلك من الغرب نفسه . وأنتم بأنفسكم ترسخون في أذهان طلبتكم الأحداث السذج تصورات الغرب الأساسية في الفلسفة والعلوم التجريبية والتاريخ والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك من الفنون ، وتعدلون وجهة نظرهم لتطابق وجهة نظر الغرب ، وتتخذون المفروضات الغربية حقائق ثابتة مسلماً بها ، وتزودونهم للاستدلال والاستشهاد والبحث والتحقيق بتلك النقطة للانطلاق وحدها التي قد تبناها أهل الغرب ، وترتبون جميع الحقائق والمسائل العلمية على النحو الذي رتبها عليه الغربيون ثم تنزلونها في أذهان الناشئة . تفعلون هذا كله وتريدون بعد ذلك أن يأتي علم الإلهيات وحده فيجعلهم مسلمين ، كيف يمكن ذلك يا ترى ؟ وماذا عسى أن يجدي علم الإلهيات الذي ليس فيه إلا التصورات المجردة ، ولا تطبق هذه على الحقائق العلمية ومسائل الحياة ، بل يكون ترتيب جميع المعلومات في أذهان الطلبة على عكس هذه التصورات كلها ! هذا هو منبع الضلال كله . فإن كنتم

تريدون سد هذا فعليكم أن تعمدوا إلى أصل هذا المنبع فتصححوه وتعدلوا وجهته ، وتهيئوا لجميع الشعب العلمية تلك النقطة للانطلاق ، وتلك الزاوية للنظر وتلك المبادىء الأساسية التي قد آتاكم القرآن إياها . فمتى رتبت المعلومات في هذا القالب الإسلامي للوجدان ، ومتى حلت مسائل الحياة والكون بهذه الوجهة الإسلامية للنظر ، عاد طلبتكم « طلبة مسلمين » وكان لكم أن تقولوا : إننا قد بعثنا فيهم الروح الإسلامية . وإلا فلن يكون من عاقبة وضع الإسلام في شعبة واحدة ووضع غير الإسلام في سائر الشعب العلمية إلا أن يتخرج طلبتكم غير مسلمين في الفلسفة ، غير مسلمين في العلوم التجريبية ، غير مسلمين في القانون ، غير مسلمين في العلوم السياسية ، غير مسلمين في فلسفة التاريخ ، وغير مسلمين كذلك في علم الاقتصاد وأن ينحصر إسلامهم في بعض المعتقدات النظرية وبعض التقاليد الدينية فحسب .

٧ ـ يجب أن تلغى امتحانات البكالوريوس في الإلهيات (B. Th) والماجستير في الإلهيات (M.Th) لأنها ليست نافعة ولا هناك حاجة إليها . أما الشعب المخصوصة للعلوم الإسلامية فيجب أن تدخلوا كل شعبة منها في البرنامج النهائي للشعبة العصرية من العلم المماثل . كأن تدخلوا في شعبة الفلسفة ـ مثلا ـ علم الحكمة الإسلامية وتاريخ الفلسفة الإسلامية ومساهمة المسلمين في ارتقاء الأفكار الفلسفية ، وتدخلوا في التاريخ تاريخ الإسلام وفلسفة التاريخ

الإسلامية ، وفي القانون مباديء القانون الإسلامي وأبواب الفقه المتعلقة بالمعاملات ، وفي الاقتصاد مباديء الاقتصاد الإسلامي وأجزاء الفقه المتعلقة بالمسائل الاقتصادية ، وفي علوم السياسة نظريات الإسلام السياسية وتاريخ نشأة وارتقاء العلوم السياسية في الإسلام ، ونصيب الإسلام في ترقية الأفكار السياسية للعالم ، وهكذا دواليك .

٨ - وبعد هذا البرنامج ، يجب أن تكون هناك شعبة مستقلة للبحث والتحقيق في العلوم الإسلامية تمنح شهادة الدكتوراه (Doctorat) كما تفعل جامعات الغرب ، لكل من يقوم بتحقيق علمي من الطراز العالي ويجهز في هذه الشعبة رجال يتدربون على الطريقة الاجتهادية للبحث والتحقيق ، فيستعدون للقيادة النظرية والفكرية لا للمسلمين وحدهم ، بل للعالم كله من وجهة النظر الإسلامية .

٣

إن طريقة التعليم التي قد قدمت خطوطها الرئيسية في الجزء الثاني آنفاً تبدو لأول وهلة غير ممكنة العمل ، ولكنني استنتجت بعد كثير من الإمعان والتفكير أنها يمكن أن يعمل بها تدريجياً ببذل ما يجب من العناية والجهد والمال .

إنه لا يغيبن عنكم أنكم لا تستطيعون أن تبلغوا نهاية المطاف من فور خطوكم الخطوة الأولى في أي طريق من الطرق . وليس من اللازم لابتداء عمل ما أن تكون الأسباب

اللازمة لتكميله موجودة عندكم كاملة من قبل . وإنما عليكم في هذه المرحلة التي تواجهكم أن تضعوا الأساس للبنيان المنشود ، ومن الميسور أن تهيأ الأسباب لهذا العمل ، إذ يوجد في الجيل الحاضر أناس يقدرون على أن يضعوا الأسس بحسب هذا الطراز التعميري . فالجيل الذي سينشأ بتعليمهم وتربيتهم على هذا النمط سيكون أهلاً لأن يرفع جدران البناء . ثم يأتي بعدهم جيل سيكتمل على أيديهم هذا العمل إن شاء الله . وطور الكمال الذي يمكن أن يدرك بعد جهد مستمر لثلاثة أجيال على الأقل لا يمكن أن يبلغه المرء اليوم . ولكنه لن يمكن استكمال هذا التعمير في الجيل الثالث إلا إذا أرهصتم له منذ الآن . ولئن لم تبتدئوا به اليوم نظراً إلى بعد طوره الكمالي عنكم ـ والحال أنكم تملكون الأسباب اللازمة لابتدائه ـ فإنه لن يتم هذا العمل ولن يتحقق تعمير البناء في صورته الكاملة .

ولما كنت أشير عليكم بهذه الخطوة الإصلاحية فأظن من واجبي كذلك أن أعرض عليكم تدابير العمل بها أيضاً . فأريد أن أبين لكم في هذا الجزء الثالث الأخير من تقريري أنه كيف يمكن أن يبتدىء هذا الطراز التعليمي وما هي التدابير التي يمكن العمل بها لذلك .

١ ـ إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) قد أعدت له مصلحة المعارف لولاية (حيدر آباد الدكن) أخيراً برنامجاً جامعاً للعقائد والاخلاق الإسلامية وأحكام الشرع فمن

الميسور أن يجعل ذلك البرنامج مفيداً لجامعتكم بعد إصلاح وتعديل لازم .

وإن تعليم اللغة العربية الذي قد كان إلى الآن أمراً يصعب ويهول لقدامة طرقه ومناهجه ، لم يعد الآن بفضل الله على تلك الدرجة من الصعوبة . فقد ابتدعت لتعليم العربية طرق حديثة في بلاد مصر وسورية وفي قطرنا الهندي كذلك ، يمكن أن تعلم بها هذه اللغة بكل سهولة . فيجب أن تؤلف لجنة من رجال قد برعوا في هذه الطرق الحديثة لتعليم اللغة العربية علماً وعملاً ، فيعد بمشورتهم وتوجيههم برنامج يتخذ القرآن الكريم هو الذريعة الرئيسية لتعليم اللغة العربية . وبهذا الطريق لن تبقى هناك الضرورة لتوفير وقت مستقل لتعليم القرآن ، وسيستأنس الطلبة إلى القرآن الكريم منذ البداية .

أما التاريخ الإسلامي فقد ألفت فيه رسائل كثيرة باللغة الأردية . فيجب أن تجمع تلك الرسائل والكتب ويدقق فيها النظر . فالذي يلفى منها أكثر فائدة ونفعاً يدخل في برامج الفصول الابتدائية .

ولتعليم المادتين الأوليين أي العقائد والأخلاق ، واللغة العربية ـ ستكفي ساعة واحدة كل يوم ، وأما التاريخ الإسلامي فإنه لا يحتاج إلى وقت مستقل . وإنما يمكن ضمه إلى مادة التاريخ العمومية . وعلى ذلك أظن أن عملية

الإصلاح لن تستلزم تغييرا كثيرا في النظام الحاضر لتعليم المدارس الثانوية . وكل حاجة إلى التغيير إنما هي في برامج التعليم والمعلمين فإن التصور الذي قد حملتموه إلى الآن لتعليم العلوم الإلهية ومعلميها يجب أن تقصوه من أذهانكم ، فتستخدموا لهذا التعليم معلمين يعرفون عقلية الصبية والصبايا لهذا العصر ونفسياتهم ، وأن تضعوا في أيديهم برامج راقية للتعليم ، ثم تخلقوا بجانب هذا كله بيئة يمكن فيها « للحياة الإسلامية » أن تنبت وتأخذ في النمو .

٢ ـ إن البرنامج العام الذي قد اقترحته لتعليم الكليات ، له أجزاء ثلاثة (أ) اللغة العربية (ب) القرآن (ج) التعاليم الإسلامية .

فاللغة العربية منها يجب أن تنزلوها في تعليمكم منزلة اللغة الثانوية اللازمة . أما اللغات الأجنبية الأخرى فللطلبة أن يتعلموا لغة منها إذا شاؤوا ، على أساتذة مختصين (Tutore) لذلك . ولكن اللغة التي هي أداة التعليم الوحيدة في الكلية يجب أن تكون بعدها اللغة العربية هي اللغة اللازمة ، ولئن كانت برامج التعليم جيدة وكان المتعلمون محنكين مدربين فإنه يمكن في سنتي التعليم الثانوي العالي في الكلية أن يخلق في الطلاب من ملكة هذه اللغة ما يؤهلهم لأن يأخذوا تعليم القرآن في درجة البكالوريوس بلغة القرآن نفسها .

وأما القرآن الكريم فلا حاجة إلى تقرير كتاب من كتب

التفسير لتعليمه . وإنما يكفي لذلك أستاذ من الطبقة العليا ، يكون قد درس القرآن دراسة إمعان وتعمق ، ويكون أهلاً لتعليم القرآن وتلقينه على النمط الحديث . وسيخلق هذا الأستاذ في طلبة الثانوية العالية الملكة اللازمة لتفهم القرآن ، ثم إذا وصلوا في البكالوريوس فإنه سيعلمهم القرآن بأجمعه بطريقة تتقدم بهم كثيراً في ملكة اللغة العربية وتعرفهم بروح الإسلام معرفة تامة .

ولبرنامج التعاليم الإسلامية لا بد من أن يستكتب كتاب جديد يشمل جميع المقاصد التي قد أشرت اليها في فقرة (ج) لرقم (٥) تحت الجزء الثاني آنفاً . ومنذ برهة من الزمن شرعت في تأليف كتاب بعنوان : (الحضارة الإسلامية ومبادئها وأصولها) واضعاً أمام عيني تلك المقاصد ، ظهرت أبوابه الثلاثة البدائية في مجلة (ترجمان القرآن) في أعدادها الصادرة من محرم **١٣٥٢** هـ . فإن ذلك الكتاب مفيداً لهذا الغرض أكملته ووهبته للجامعة . ولجميع هذه المواد لن تكون هناك ضرورة لتغيير في النظام الحاضر لتعليم الكلية . فإن اللغة العربية يكفي لها من الوقت ما قررتموه لتعليم اللغة الثانوية . وأما القرآن والتعاليم الإسلامية فيمكن أن يكفي لهما بالتناوب ذلك الوقت الذي قررتموه لتعليم العلوم الإلهية .

٣ ـ وأكثر الصعوبة عسى أن يواجه في تنفيذ المقترح الذي عرضته في الرقمين (٦ و ٧) تحت الجزء الثاني آنفاً . ولحل هذه المشكلة صور ثلاث يمكن العمل بها بالتدريج :

(أ) يجب أن يبحث عن أساتذة ـ وهم على ندرتهم متوفرون ـ يكونون ذوي اختصاص في العلوم (الجديدة) ويكونون بجانب هذا على بصيرة في القرآن والسنة ، وتكون فيهم من الكفاءة ما يستيطعون به أن يفصلوا حقائق العلوم الغربية عن نظرياتهم وأساسها الوجداني ، ويرتبوها من جديد على المباديء والنظريات الإسلامية .

(ب) يجب أن يغربل ما يوجد باللغة العربية والأردية والإنكليزية والألمانية والفرنسية من كتب ومؤلفات في العلوم الإسلامية المختلفة كفلسفة القانون ومآخذ القانون وفلسفة التشريع وعلوم السياسة والعمران والاقتصاد والتاريخ وفلسفة التاريخ . فكل ما يوجد منها جدير بالقبول كما هو ، ينتخب ويقبل ، وكل ما كان يمكن أن يجعل نافعاً للغرض بشيء من الحذف والتعديل فيستعمل بعد هذه العملية المطلوبة . ولتحقيق هذا الغرض سيكون من اللازم أن تعين لجنة خاصة من أهل العلم .

(ج) ويجب كذلك أن يستخدم رجال من ذوي العلم والفضل يؤلفون الكتب الجديدة في كل ما ذكر آنفاً من العلوم ، ولا سيما في أصول الفقه وأحكام الفقه والاقتصاد الإسلامي ومباديء العمران الإسلامية والفلسفة القرآنية ، إذ هناك حاجة شديدة لإخراج الكتب الجديدة في جميع هذه المواضيع . ولم تعد الكتب القديمة في بابها نافعة للتعلم والتعليم . وإنه لا شك أن أهل الاجتهاد والتحقيق قد يجدون

فيها مادة نافعة لهم . ولكنه من العبث ومما لا جدوى فيه أن تتخذ هذه الكتب كما هي وتعلم طلاب العصر الحديث .

ولا شك في أن هذه التدابير الثلاثة لن تكفل تحقيق ذلك المقصود الذي نطمح إليه بصورة كاملة ، ولا شك أيضا في أن هذا البناء الجديد سوف توجد فيه نقائص غير قليلة ، ولكنه لا سبب هناك الفزع منه . فإن عملنا هذا سيكون أول خطوة في طريق الإنشاء . وكل ما بقي فيه من النقص أول الفتور ستستدركه الأجيال الآتية ، حتى تنتج ثمراته الكمالية بعد خمسين سنة على الأقل .

٤ ـ وإن شعبة البحث والتحقيق الإسلامي ليس هذا أوانها بعد . وستكون الحاجة إليها بعد سنوات . لذلك من الاستعجال أن نقترح في بابها شيئاً .

٥ ـ إن مقترحاتي هذه يقل فيها مجال الخلافات المذهبية بين المسلمين على أنه لا بأس في أن يُستصوَبَ علماء الشيعة في أنه إلى أي حد سيرضون أن يتعلم الطلبة الشيعيون مع الطلبة السنيين في هذا المنهج التعليمي . فإن شاؤ وا وضعوا لطلبتهم مشروعاً تعليمياً بأنفسهم . ولكنه سيكون الأحسن والأقوم أن يجعل للخلافات المذهبية أقل ما يكون من النفوذ في التعليم بقدر الإمكان ، وتربى الأجيال الآتية للفرق المختلفة تحت المباديء والأصول المشتركة .

٦ ـ وإني أتفق مع السير محمد يعقوب كل الاتفاق على

أن تواظب الجامعة على دعوة أهل العلم والفن بين آن وآخر لإلقاء المحاضرات على طلبتها في مسائل هامة . وإني أود أن تجعل جامعة عليكر مركزاً ذهنياً لا للهند وحدها بل لجميع العالم الإسلامي . فعليكم أن تدعو أهل العلم والفضل من مسلمي مصر وسورية وإيران وتركيا وأوربا ، علاوة على مسلمي الهند ، لأن يأتوا هذه الجامعة ويبعثوا في طلبتها روح الحياة وتنور الفكر بأفكارهم وتجاربهم ونتائج تحقيقهم . ويجب أن يستكتب مثل هذه المحاضرات مقابل أجور كبيرة ، حتى تؤلف بقدر واف من التحقيق والفكر والعناية والوقت ، ويكون نشرها مفيداً لا لطلبة الجامعة وحدهم بل للجمهور المتعلم عامة !

٧ ـ ولا يصح أن تخص للتعليم الإسلامي لغة واحدة بعينها . ولا يوجد الآن في أي من اللغات الاردية والعربية والإنكليزية ذخيرة كافية للبرنامج المطلوب . لذلك ينبغي أن يعلم كل ما يوجد ذا نفع في أية لغة بتلك اللغة نفسها . ويجب أن يكون معلمو الإلهيات والعلوم الإسلامية جميعهم رجالاً يعرفون اللغتين الانكليزية والعربية معاً . وليس لـرجل ذي ثقافة واحدة الآن أن يكون معلماً لاهوتياً صحيحاً .

وإني في الختام أستميحكم العفو على إطالة تقريري هذا ولكنه لم يكن بد من هذه الإطالة ، لأني أدعو إلى طريق مختلف جديد ، قد أنفقت عدة سنوات من الفكر والتأمل لتبين ملامحه . وقد انتهيت حتما إلى أنه لا سبيل إلى بقاء

وجود المسلمين القومي المستقل وحضارتهم الخاصة إلا أن يحدث انقلاب في طريقة تعليمهم وتربيتهم ، وأن يجري ذلك الانقلاب على هذه الخطوط التي عرضتها عليكم . ولا يخفى علي أن هناك جماعة من الناس ، ولا يقل عددهم في جامعة عليكر نفسها ، سيظنون أفكاري هذه أضغاث أحلام ، فإن فعلوا فلن أستغرب الأمر ، لأن الناظرين إلى الوراء قد اعتبروا الناظرين إلى الأمام سفهاء في أكثر الأحيان . وهم محقون في اعتبارهم هذا . ولكن الذي أشاهده اليوم أني على ثقة بأنهم سيشاهدونه بعد سنوات ـ وربما في غضون حياتي ـ بعيني رأسهم ، وسيشعرون بحاجة الإصلاح حينما يكون الطوفان قد عم وغمر ولم يبق بأيديهم من فرص لتدارك ما فات إلا الأقل الأنزر !

❊ ❊ ❊

الفصل العشرون

الداء ودواءه

إن الدين الإسلامي ليس بعقيدة فحسب ، ولا هو مجموعة لعدد من الأعمال والطقوس الدينية ليس إلا . بل هو برنامج تفصيلي لحياة الإنسان الكاملة ، ليست العقائد والعبادات ومباديء الحياة العملية وضوابطها فيه أشياء مختلفة منفصلة بعضها عن بعض ، بل تتلاحم هذه كلها فيه وتؤلف مجموعة لا تقبل التجزئة ، ويكون بين أجزائها كمثل الارتباط الذي يكون بين أعضاء الجسم الحي .

فإن أنت بترت الرجلين واليدين من جسم رجل حي ، وقلعت عينيه وصلمت أذنيه وقطعت لسانه واستخرجت أيضاً معدته وكبده ، ونزعت رئتيه وكليتيه . وأخرجت المخ ـ كله أو جله ـ من جمجمة الرأس ، وأبقيت على شيء واحد هو القلب ، فهل سيمكن هذا الجزء الباقي من الجسم أن يحيا وينبض ؟ وإن هو حي فهل سيكون ذا نفع وغناء ؟ .

وهكذا الحال مع الإسلام . فالعقائد منه بمنزلة القلب ،

وما ينشأ عنها من أسلوب التفكير (Attitude of Mind) ونظرية الحياة (View of Life) ومقصد الوجود ومقياس القيم (Standard of Values) هو منه بمنزلة المخ . والعبادات أعضاؤه وجوارحه التي هو يستوي بها قائماً ويتولى العمل . وكل ما عرفه الإسلام من مبادىء الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتنظيم الاجتماعي لحياة الإنسان هو منه بمثابة المعدة والكلية وسائر الأعضاء الرئيسية . والإسلام يحتاج إلى عينين بصيرتين وأذنين سالمتين لكي تنقل إلى المخ بأمانة صورة صحيحة لأحوال العصر وظروفه . ويحكم فيها العقل حكماً صحيحا . ويحتاج كذلك إلى لسان منضبط حتى يستطيع أن يعبر به عن حقيقة نفسه ، وإلى جو صالح نظيف ليتنفس فيه ، وإلى غذاء طيب صحي يلائم معدته ويكون دماً صالحاً للجسم .

وإن القلب ـ أي العقيدة ـ وإن كانت له أعظم الأهمية في هذا النظام الكامل فهل تأتي أهميته هذه إلا من أنه يمد سائر الأعضاء والجوارح بقوة الحياة ؟ ولئن قطعت أكثر الأعضاء ، أو نزعت من الجسم أو فسدت بنفسها . فكيف يمكن القلب أن يحيا وينبض مع ما بقي من الأعضاء الناقصة المريضة ! وإن بقي حياً لساعة أو اثنتين فما جدوى هذه الحياة لعمر الله !

ولنتأمل الآن ما هي الحالة التي لا نزال نرى عليها الإسلام في القطر الهندي هذا . وإن القوانين الإسلامية

معطلة كلها على وجه التقريب . ولا يزيد مقدار ما هو نافذ من المباديء الإسلامية في شؤون الحياة المختلفة من الأخلاق والاجتماع والاقتصاد وما سواه على قدر خمسة في المائة . وإن البيئة غير الإسلامية والتربية اللادينية والتعليم العلماني قد جعلت العقول والأذهان غير مسلمة بصورة كلية أو جزئية . فالعيون تبصر ولكن زاوية النظر قد زاغت وانحرفت ، والآذان تسمع ولكن حاسة سمعها قد تغيرت . واللسان ينطق ولكن نطقه لم يعد بليغاً وقوياً . والرئتان لا تتنسمان الهواء الصافي لأنه قد أحاط بهما من كل الأطراف جو متسمم . ولا تنال المعدة غذاء صالحاً لأن خزائن الرزق كلها قد فسدت وتعفنت . والعبادات التي هي بمكانة الجوارح والأعضاء لهذا الجسم قد أصيبت بالفشل بقدر ٦٠ بالمائة . وأما التي بقيت منها على صورتها فلم يعد لها من تأثير في النفوس ، لأنها قد فقدت صلتها بسائر الأعضاء الرئيسية . فلا يزال الشلل والخدر يسري في عروقها أيضاً . ففي مثل هذه الحالة هل أنت تستطيع أن تقول : إن هذا الإسلام الذي بين أيديكم هو إسلام كامل ؟ كم من عضو وكم من جارحة أصيبت بالشلل وكم منها باقية ولكنها مأووفة لا تعمل عملاً صحيحاً . وفي وسط هذه كلها قلب واحد قد تعرض للضعف والمرض ، لأنه كما كان يمد كل تلك الأعضاء بالحياة كان يستمد هو نفسه أيضاً منها القوة والحيوية . فلما فسد عمل المخ والرئتين والمعدة والكلية جميعاً فأنى للقلب أن يظل

سالماً معافى . ومن القوة الفذة لهذا القلب الحيوي الجبار أنه لا يزال حياً بنفسه . وليس هذا فحسب ، بل هو لا يزال يحرك أيضاً تلك الأعضاء المريضة الباقية كيفما أمكنه . ولكن هل يمكن أن يكون هذا الإسلام المشوه المبتور على شيء من الجاذبية ليجتذب إلى نفسه الناس؟ وهل له من القوة ما يؤثر به تأثيراً في حياة أهل الهند ؟ بل أتساءل ـ ولا قدر الله ذلك ـ هل يمكن الإسلام في مثل هذا الموقف أن يستنقذ بقية أعضائه من مزيد القطع والبتر ، بل أن ينجو من عوادي الموت في وجه تلك الكوارث التي لا يزال سيلها يمتد إليها بسرعة متزايدة على مرور الأيام ؟

ومن النتيجة لهذه الحالة القائمة أنه بدل أن يتحقق قول الله عز وجل ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ قد انتشرت بين المسلمين موجة البغي والانحراف عن الإسلام . وليس هناك موضع في الهند أو فيما يكتنفها من البلاد يوجد فيه النظام الإسلامي عاملاً بأجزائه وأعضائه الكاملة ، حتى يجتلي الناس جماله وكماله ويعرفوا الشجرة من ثمره . وإنما الذي هم يشاهدون الآن هو هذا الإسلام الأبتر الأعرج ، فيظنون أن هذا هو الإسلام الحقيقي . فيقول بعض المنتمين اليه علناً أنهم ليسوا بمسلمين ، وهناك آخرون يفعلون كل ما يشاؤون اللهم إلا الإباء الصريح لكونهم مسلمين ، مما لا يبقى بعده من فرق بينهم وبين المنكرين للإسلام . ومنهم كثيرون قد زاغت قلوبهم ، ولكنهم لما لم

يكونوا أقدموا بعد على البغي الصريح ، فلا يزالون مندمجين في جماعة المسلمين وينشرون فيها جراثيم البغي ، حتى إذا وقعت الفوضى العامة قاموا فرفعوا أيضاً رايتهم أنفسهم . وهناك طائفة لا يجهرون بما في أنفسهم ولكنهم لا يزالون يهمسون بأنه يجب أن يستعد المسلمون للاندماج في قومية جديدة وفي حضارة مستحدثة ، لأن هذا الجسم الميت الذي هم يحملونه لا ينفعهم بنفسه ولا هو يتيح لهم أن يتمتعوا بتلك المنافع التي قد تنالهم بفضل اندماجهم في الأمم المواطنة الأخرى . كما أن هناك رجالاً يرون أن الحل الصحيح لهذه المسألة هو أن يبتر الإسلام ويجز عن كثير مما فيه . فهم يدعون أن المرء يجب أن يكون مسلماً فيما يخص العقائد الدينية والحركة والعمل الديني فحسب . وأما البرنامج الكامل لسائر شعب الحياة فيتخذ حسبما تعلمناه من غير المسلمين وحسبما يعمل به غير المسلمين . ولا ندري هل هؤلاء منخدعون بأنفسهم أم هم يريدون أن يخدعوا الغير . وأيا كان فالحقيقة التي قد نسوها أو هم ينسونها الآن هي أن العقائد الدينية والحركة والعمل الديني يعود كل ذلك شيئاً لا روح له ولا قوة فيه إذا ما اتخذت في الحياة النظريات غير الإسلامية وجرى العمل بالمباديء غير الإسلامية . فلا يمكن أن يدوم بها الإيمان طويلا ولا أن يستمر عليها العمل طويلاً . لأن هذه العقائد والعبادات هي الأسس التي قد أحكمت لأجل أن يرفع عليها بنيان الحياة بكامله . فإذا ارتفع البنيان على

أسس أخرى غير هذه الأسس الإسلامية فإلى متى يمكن أن تدوم العناية بهذه الآثار البالية القديمة في غير ما حاجة ولا نفع . وأنه سيتساءل الطفل الذي سوف ينشأ ويترعرع في نظام الحياة الجديدة : لماذا أجعل في عنقي هذا الغل الثقيل من العقائد الفضولية والشعائر غير المنتجة شيئاً ، ولماذا أقرأ وأؤ من بالقرآن الذي قد أصبحت أحكامه معطلة الآن ؟ ولماذا أؤ من بأن ذلك الرجل الذي قد مضى قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان نبياً حقاً ؟ ولما كان لا يهديني ولا يوجهني في هذه الحياة فأي نفع لي في الاعتراف برسالته ، وأي ضرر سيلحقني إن لم أعترف بها ؟ وأي فرق يقع باداء الصلاة وتركها وبالتزام الصوم وإهماله في النظام الحياتي الذي أنا متبعه ؟ وأي ارتباط هناك بين تلك الأعمال وهذه الحياة ؟ ولماذا أبقي على هذه الرقاع غير المتلاحمة مع أجزاء حياتي ! .

هذه نتيجة منطقية لفصل الدين عن الدنيا . فمتى تم هذا الفصل من حيث المبدأ والعمل ، ظهرت هذه النتيجة لا محالة . وكما أن القلب إذا انفصل عن سائر النظام الجسدي يفسد ويتعطل . كذلك إن العقائد والعبادات متى انفصلت عن الحياة فإنه لا يبقى لها من أهمية . إن العقائد والعبادات تمد الحياة الإسلامية بالقوة والحيوية ، والحياة الإسلامية بنوبتها تمد تلك العقائد والعبادات بالقوة والحرارة . وإن بينهما ـ كما بينت آنفاً ـ لصلة ما بين أعضاء النظام الجسماني

الحي . وليست نتيجة قطع هذه الصلة فيما بينهما إلا موتهما جميعاً . وإن ترقيع الحياة غير الإسلامية بالعقائد والعبادات الإسلامية كتركيب المخ ،والأعضاء الإنسانية في جسم الفرد .

ولا تذهبن إلى أن حالة الإسلام الحاضرة لا يزال أثرها السيء هذا يترتب على طائفة قليلة من المثقفين الجدد فحسب ، بل الحق أنه قد امتد ـ قليلاً أو كثيراً ـ إلى الذين هم مسلمون من صميم قلبهم ويحملون في قلوبهم حباً لهذا الدين وإكراماً له سواء أكانوا من أهل القديم أم الجديد . وإن تفكك الحياة الإسلامية لنكبة عامة لم يسلم أحد من المسلمين من نتائجها الطبيعية ولا هو يمكن أن يسلم . فكلنا لا يزال يصل إليه نصيب من تلك النتائج على حسب استعداده وإن لعلمائنا ومشايخنا أيضاً نصيباً منه مثل نصيب المتخرجين من المدارس والكليات .

على أن الخطر الأكبر قد أحاط بعامتنا الذين تشغل ملايين منهم مساحة (١,٦) مليون ميل مربع في هذ القطر . فهؤلاء لم يبق لديهم إلا اسم الإسلام ، الذي يحبونه حباً شديداً ، ولكنهم لا من الناحية العلمية يعرفون حقيقة الشيء الذين هم متهالكون عليه ، ولا هناك من الناحية العملية نظام للحياة يقيهم من المؤثرات غير الإسلامية . فلكل مضل أن يستغل جهالتهم فيعدل بعقائدهم وبحياتهم عن صراط الإسلام المستقيم ، كل ما يكفيك لذلك هو أن تقنع القوم بأن هذه الضلالة التي تعرضها عليهم هي عين الهدى

والصواب ، أو هي ليست مخالفة للإسلام على الأقل ، ولك بعد ذلك أن تسوقهم في أي طريق تشاء ، سواء كان ذلك طريق النبوة القاديانية أم طريق الشيوعية أو الفاشية . وإن الأزمات التي قد خلقها إفلاسهم الزائد على مر الأيام وانحلال حالتهم الاقتصادية ليس هناك في حالة الفوضى الحاضرة من يعنى بحلها حسب مبادىء الاسلام . فليس بين المسلمين جماعة منظمة تنهض في وجه الشيوعية بمبادىء الاسلام الاقتصادي والتمدنية وتحل تلك المسائل التي هي في الواقع ذات أهمية كبيرة لعامة الخلق . ومن نتيجة ذلك أن الحشد العظيم من ملايين هؤلاء المسلمين المفلسين الجياع قد أصبح لقمة سائغة للمبلغين الشيوعيين . وأما الطبقة البرجوازية فان الذين هم منهم ذوو الأمل الواسع والطموح المفرط إلى نيل السلطة فهم لا يزالون أبداً يلتمسون الطرق الجديدة لإحراز القوة السياسية . وقد علمت الثورة الروسية طائفة من هذه الطبقة الآن تدبيراً جديداً هو أن يلبسوا لبوس أنصار العمال والفلاحين فيستهووا العامة الفقراء ويجعلوهم تحت يدهم ، ويذكوا في أنفسهم نار الحرص والأثرة والحسد ، ويطمعوهم في إيتائهم نصيباً من الثروة أكثر من حقوقهم الشرعية ويعدوهم حتى باغتصاب الثروة الجائزة من الطبقات المترفهة وتوزيعها عليهم وبذلك يجعل السواد الأعظم من أهالي القطر في قبضتهم فيكتسبوا السلطة التي هي حاصلة في النظام الرأسمالي للملوك والطغاة وأصحاب

الملايين . هذه الطائفة رجاؤهم في العامة المسلمين أقوى منه في العامة غير المسلمين ، لأن هؤلاء أسوأ حالاً من الناحية الاقتصادية . فهم يحتالون بذلك فعلاً للنفوذ إلى قلبهم من طريق معدتهم ، التي هي أبداً أضعف ثغرة في جسم الإنسان الجائع . إنهم ينادون القوم : « تعالوا نبين لكم الطريق الذي تزول به فوارق الغنى والفقر وتسود الرفاهية » . فإذا هرول إليهم المسلم الجائع أملا في رغيفين يقتات بهما ، دعاه هؤلاء إلى تأليه المعدة بدل تأليه الرب تعالى ، وألقوا في روعه أن الدين والإيمان ليسا بشيء ، وأن المقصود الحقيقي يجب أن يكون الخبز . فكل طريق يوفر الخبز هو الدين بعينه وهو وحده الكفيل بالنجاة .

« إن الفقير والمعوز والعبد لا دين له ولا مدنية . إن دينه الأهم هو قطعة من الخبز يأكلها وإن تمدنه الأكبر هو خرقة من الثوب يلبسها . . نعم ذلك الخبز والثوب اللذان هو يضطر أحياناً إلى أن يرتكب السرقة لأجلهما . وإن ايمانه الأعلى والأسمى هو التخلص مما هو فيه من النكبة والإفلاس . . . الحق أنه لا دين له اليوم في دنيا الإفلاس والعبودية هذه »(١) .

هذا هو الدرس الأساسي لدين الشيوعية . وعندما يلقن

---

(١) هاتان العبارتان اقتبسناهما من مقال فاضل مسلم في جريدة مسلمة سيارة .

المسلمون الأميون المفلسون هذا الدرس يُقنعون في الوقت نفسه بأن دينهم التقليدي لن يناله أحد بسوء .

« وأي خطر يخشى على الدين والعقائد من هذا كله ؟ وأي صلة بينه وبين هذا ؟ وإنما قد بقي الدين حياً وقوياً ومنيراً أبداً ما دام محتفظاً بقوته الأخلاقية والروحية »[١] .

وإن التأثيرات التي قد أثرتها الشيوعية الروسية في أجيال المسلمين الناشئة في روسيا خلال العشرين سنة الماضية لا تخفى على أهل الخبرة . ومثل هذا المستقبل يتهدد مسلمي الهند الآن . فنار الجوع لا تزال تنتشر لكي تلتهم متاع الإيمان وتحوله رماداً . ومنبع الفساد صغير هين بعد بحيث يمكن سده الآن بحصاة . ولكنه إن استمرت غفلتنا وإهمالنا على هذا النحو على سنوات ذوات عدد فإن هذا المنبع يخشى أن يتحول إلى سيل عات لا تثبت أمامه الأطواد .

ومن التدبير النكد العقيم في هذه الظروف أن يزاول تبليغ الإسلام على طريقة المبشرين النصرانيين ، وذلك أنه لا يمكن أن تعود الأوضاع إلى استقامتها وإن نشرت آلاف من الرسائل والكتب لأجل إصلاح العقائد . وأي غناء الآن ـ يا ترى ـ في سرد محاسن الإسلام بالقلم واللسان ؟ وإنما الضرورة الحقيقية هي أن تعرض هذه المحاسن في دنيا

(١) هاتان العبارتان اقتبسناهما من مقال فاضل مسلم في جريدة مسلمة سيارة .

الواقع . وإنه لن تنحل مسائل الحياة بمجرد قولنا إن مباديء الإسلام تضمن حل تلك المسائل كلها . بل المطلوب في الحقيقة أن يجعل ما هو موجود في الإسلام بالقوة موجوداً فيه بالفعل . هذه الدنيا دار نزاع وصراع . ولا يمكن أن يغير مجراها بمجرد الكلام . وإنما يحتاج لتغييره إلى « كفاح ثائر » . ولئن كان أمكن الشيوعيين أن ينهضوا بمبادئهم الخاطئة ويضربوا سلطتهم ونفوذهم على جانب كبير من هذا العالم، وأمكن الفاشية أن تتقدم بمناهجها البعيدة عن القصد وتلقي هيبتها وجبروتها على ربوع العالم ، وأمكن الفلسفة الغاندية في عدم الإيذاء أن تروج وتنتشر على رغم كونها شيئاً لا يلائم الفطرة بمجرد السعي والجهد ، فلا سبب هناك لأن لا يمكن المسلمين الذين عندهم مباديء الحق والعدل الأبدية الخالدة أن ينالوا الغلبة والسلطة في هذا العالم من جديد . ولكن هذه الغلبة لا تتحقق بمجرد الوعظ والخطابة ، بل هي تتطلب الجهد والعمل . وأن يتولى العمل على تلك المناهج التي تؤدي الى الغلبة في العالم حقاً بحسب السنة الإلهية .

إن « الكفاح الثائر » كلمة غامضة عامة ، لها كثير من الصور العلمية وقد يكون أكثر . فأيما نوع من أنواع الثورة يراد تحقيقه فلا بد أن تتخذ له تلك الصورة العلمية التي تلائم فطرته .

وإن الثورة التي نقصد إليها لا نحتاج إلى أن نلتمس لإحداثها صورة جديدة ، إن هذه الثورة قد حدثت قبل هذا .

وان الإنسان القدسي العظيم ﷺ الذي أحدث هذه الثورة كان يعرف فطرتها جيداً ، ويمكن أن تحدث هذه الثورة مرة أخرى اليوم باتباع الطريقة التي اختارها لذلك . وإن سيرة ذلك الإنسان المطهر معجزة من ناحية ، وأسوة من ناحية أخرى . وذلك أنه من أين يكون لأحد اليوم أن يأتي بتلك الأخلاق العالية والتقوى والحكمة والعدل والشخصية القوية وخصائص الإنسانية العليا ؟ ومن ثم كيف يمكن انساناً الآن أن يحدث ثورة في كمال ثورته العظيمة ؟ فهو من هذه الناحية معجزة ، وسيبقى معجزة إلى يوم القيامة . ولكن المثال الذي قد تركه لأمته ذاك الرجل العظيم ، أن خاصته الطبيعية هي الروح الثورية التي قد شهد العالم أنموذجها قبل ثلاثة عشر قرناً . فكلما احتذي ذاك المثال اكثر وكلما نسج على منواله أكثر كانت النتائج أتم وأشمل للروح الثورية وأقرب الى تلك النتائج التي ظهرت بقوة ذلك الأنموذج الأصلي . فهو من هذه الناحية أسوة وسيبقى أسوة الى يوم القيامة . وسواء أكنت في القرن العشرين أم الأربعين . وكنت في الهند أو في أمريكا أو في روسيا يمكنك في كل زمان ومكان أن تحقق مثل تلك الثورة بشرط أن تضع أمام عينيك تلك الأسوة الحسنة .

إن الطريقة التي اختارها النبي ﷺ لإحداث الثورة في هذه الدنيا قبل نيف وثلاثة عشر قرناً لا مجال ههنا لسرد تفاصيلها . وإنما المقصود في هذا المقام هو الإشارة إلى أن

فكرتي « دار الإسلام »[1] قد نشأت عن دراستي العميقة لتلك الأسوة الطيبة .

إنه لما بعث النبي ﷺ لم يكن على وجه البسيطة رجل مسلم واحد . فعرض ﷺ دعوته على الدنيا . وأصبح الناس يدخلون في دين الله رويداً رويداً ، أُحاد ومثنى وثلاث . وهؤلاء الأفراد مع أنهم كانوا يؤمنون إيماناً أقوى وأرسخ من الجبال ، وكانوا يوالون الإسلام ولاء تعجز الدنيا عن أن تأتي له بنظير في التاريخ كله ، ولكن لما أنهم متفرقون ومنحصرون بين الكفار ولا يملكون الحيلة ولا القوة كانوا على رغم ما يرهقون أنفسهم إلى حد الكلال في محاربتهم لبيئتهم ، لا ينجحون في تغيير الظروف التي يجتهد لإصلاحها هم أنفسهم وهاديهم ومرشدهم ، فداه أبي وأمي ! فظل النبي ﷺ يعمل ويجد على هذا النحو مدة ثلاثة عشر عاماً ، حتى تهيأت له في هذه الفترة ثلة من المؤمنين الفدائيين . وعند ذلك أرشده الله تعالى إلى تدبير آخر للكفاح ، وهو أن يجمع أولئك الفدائيين ويخرج بهم من بيئة الكفر إلى مكان مأمون يعمل فيه على تشكيل بيئة إسلامية ، ويبني داراً للإسلام ينفذ فيها برنامج الحياة الإسلامية كاملاً ، ويؤسس موطناً تتهيأ فيه القوة الاجتماعية في المسلمين وينشيء مركز توليد كهربائي يولد الطاقة الكهربائية ويرسلها بطريق منضبط إلى أطراف البلاد ،

---

(١) ضمت هذه الإدارة في نظام الجامعة الإسلامية منذ أغسطس سنة ١٩٤١م .

لكي تستضيء بفعلها كل رقعة وكل زاوية على وجه الأرض . فكانت هجرته ﷺ إلى المدينة تحقيقا لهذا الغرض. إنه أمر جميع المسلمين الذين كانوا مبعثرين في مختلف قبائل العرب أن ينضموا إلى دار الإسلام هذه ويجتمعوا فيها . وهناك عرض الإسلام على العالم منفذا في صورته العملية . وفي هذه البيئة الطاهرة دربت الجماعة كلها على الحياة الإسلامية تدريبا جعل كل فرد من أفرادها صورة حية للدين الإسلامي يكفي النظر في شخصيته وفي حركاته وأعماله ليعرف : ما الإسلام وما هي رسالته في العالم . وبلغ من شدة اصطباغ هذه الجماعة بصبغة الله أنهم حيثما ذهبوا يصبغون غيرهم بصبغتهم بدل أن يقبلوا صبغة غيرهم ، وبلغ من قوة السيرة التي خُلقت فيهم أنهم لا يعلمون الهزيمة والنكول أمام أحد ، بل ينهزم أمامهم كل من يواجههم . وركزت في نفوسهم غاية الحياة الإسلامية بحيث أصبحت في المقام الأول في كل عمل من أعمال حياتهم ، وأصبحت المطالب الدنيوية الأخرى في الدرجة الثانوية . وبفضل التعليم والتربية كليهما جُعلوا أهلا لأن ينفّذوا أينما ذهبوا ذاك البرنامج الحياتي الذي آتاهم القرآن والسنة ، ويقلبوا كل صورة من فساد الأحوال ويجعلوها تابعة لهذا البرنامج .

فكان هذا التنظيم من أعاجيب التاريخ الإنساني . وإنه ليجدر كل جزء من أجزائه بأن نتناوله بدراسة غائرة وتفكير

دقيق . إن هذا التنظيم قد كان وزّع العمل فيه على أربعة شعب كبيرة :

أولاها ـ أن تعدّ طائفة من الأمة ، يتفقهون في الدين ، ويملكون الكفاءة اللازمة لأن يعلموا الناس الدين وأحكامه على أحسن طريق . ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾(١) .

والثانية ـ أن يعد نفر من الناس تكون حياتهم مكرسة للسعي والجهد لإقامة نظام العمل الإسلامي ونشره وتعميمه . ويكون على الجماعة أن تكفي هؤلاء مؤونة الكدح في سبيل العيش . أما هوى النفوس فلا يبالون به أبداً . وسواء أيستقيم أمر معاشهم أم لا يستقيم ، ليدفعهم كلفهم الملحّ بهذا العمل الذي هو الهدف الوحيد لحياتهم أن يواظبوا عليه جاهدين ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(٢) .

والثالثة ـ أن يخلق في نفوس الجماعة كلها الشعور بأن العمل على إعلاء كلمة الله من واجب كل فرد من أفرادها . فيمارس كل فرد شؤون حياته الدنيوية ولكنه يجب أن يكون هذا المقصود ماثلاً أمام عينيه في كل حال . فلا ينساه تاجر في تجارته ولا فلاح في زراعته ولا صانع في مهنته ولا

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) آل عمران : ١١٤ .

موظف في وظيفته . وليكن على ذكر كل من هؤلاء أن هذه الأعمال الدنيوية مقصودة للحياة ، والحياة بنفسها مقصودة لذلك العمل الجليل - إعلاء كلمة الله في الأرض . ومهما تكن دائرة عمله فعليه أن يلتزم مبادىء الإسلام في أقواله وأفعاله وفي أخلاقه ومعاملته . ومتى وقع التعارض بين الفوائد الدنيوية ومبادىء الإسلام فلينبذ الفوائد ولا يشوه سمعة الاسلام بإلغاء مبادئه . ثم عليه أن يُنفق في سبيل الإسلام كل ما استطاع أن يوفره من الأموال والفرص ، بعد قضاء حاجاته الضرورية ، فيشارك في هذا العمل تلك الطائفة التي قد كرست حياتها له . ﴿ كُنتم خيرَ أمَّة أخْرِجت للناس ، تأمرون بالمعروفِ وتنْهون عنِ المُنْكرِ وتُؤمِنونَ بالله ﴾[١] .

والرابعة - أن تتاح الفرص لغير المسلمين أن يأتوا دار الإسلام يمكثوا فيها ويدرسوا كلام الله في محيط تكون الحياة فيه كلها تفسيراً عملياً لهذا الكلام الكريم . وذلك بأنهم لا جرم أن يفهموا القرآن فهماً أحسن وأتم في البيئة الإسلامية منه في بيئة الكفر ، وأن يرجعوا بتأثر أقوى وأعمق . ﴿ وإنْ أَحَدٌ منَ المشركينَ استجارك فأجِره حتى يسْمَعَ كلامَ اللَّهِ ثمْ أَبْلِغْهُ مأمَنَهُ ﴾[٢] .

وبهذه المناهج والطرق التي تمكن الهادي الأعظم ﷺ

---

(١) آل عمران : ١١٠ .
(٢) التوبة : ٩ .

من أن يهيء في مركز التوليد الكهربائي بيثرب في مدة ثماني سنوات قوة هائلة جبارة غمرت جزيرة العرب كلها بضيائها وإشعاعها عن غير بعد . ثم امتدت أشعتها من العرب إلى ربوع العالم ، وحتى اليوم بعد أن مضى على ذلك نيف وثلاثة عشر قرناً لا يزال ذلك المركز التوليدي مشحوناً بذخائر القوة والطاقة .

ولما أصيب النظام الإسلامي ، بعد الخلافة الراشدة ، بكثير من التفكك والانحلال ، فإتباعاً لهذه الطريقة النبوية أقام الصوفية زواياهم هنا وهناك . إن مفهوم « الزاوية » اليوم قد انحط عندنا إلى درجة أنه كلما سمع المرء بهذه الكلمة تبادر إلى ذهنه تصور مكان ناء في مغاور الجبال لا يمر فيه الهواء ولا النور ولا يتغير مظهره في شيء على طول الأزمنة والقرون . ولكن هذه « الزاوية » كانت في بداية أمرها صورة للبيئة التي أقامها النبي ﷺ في المدينة فكانت الصوفية يختارون كل من يستأنسون فيه قابلية ، فينزعونه من البيئة الفاسدة للدنيا الخارجية ، ويصطنعونه عندهم في الزاوية لمدة من الزمان ، يربونه أجود التربية ويعدونه لذلك العمل الذي كان يعد النبي ﷺ أصحابه له .

فالذين يريدون أن يحدثوا ثورة من الطراز الإسلامي فعليهم أن يرجعوا إلى تلك الطريقة نفسها من جديد . ولئن كنا لا نجد خارج الهند بيئة حرة مستقلة يمكن أن تُقَامَ فيها « دار الإسلام » كالمدينة الطيبة ، فعلينا أن نقيم في هذا القطر

على الأقل مراكز للتربية تهيأ فيها بيئة إسلامية خالصة . فتكون الأخلاق فيها إسلامية ، ويكون الاجتماع إسلاميا ، وتكون الحياة العملية على طريقة المسلمين ، ويكون الإسلام بارزا في كل جهاتها بروحه وصورته . . . بيئة يكفي للدلالة فيها على كون شيء من الأشياء صحيحاً أنه قد أذن به الله والرسول أو أمر به ، ويعترف بكون شيء من الأشياء خاطئاً لمجرد أن الله والرسول لا يرضيانه أو ينهيان عنه . بيئة لا يسود فيها هذا البغي والعصيان وهذا الجو غير الإسلامي الذي قد أحاط بنا من كل جانب ، وحيث يكون إلينا ـ على الأقل ـ أن لا نأذن بالدخول في مجتمعنا من المؤثرات الخارجية إلا تلك التي نجدها ملائمة للروح الإسلامية ، ونستطيع أن ندفع المؤثرات التي نجدها منافية لهذه الروح ، ونمنعها من التغلب على أرواحنا والنفوذ إلى قلوبنا وأذهاننا . . . حيث يتهيأ لنا جو نستطيع أن نفكر فيه كمسلم وننظر فيه إلى الاشياء بعين المسلم ، ونتمكن من تنمية تلك الصفات الإسلامية التي لا تزال تضمحل في هذا الجو المتسمم السائد على دار كفرنا هذه ، ونطهر حياتنا من تلك الخبائث والأدناس التي قد تسربت إلى أفكارنا وأعمالنا لكوننا قد فتحنا أعيننا وترعرعنا في بيئة غير إسلامية ، والتي ربما لا نحس بها ، وإن أحسسنا بها في بعض الأحايين فإن البيئة المحيطة لشدة تأثيرها لا تدعنا نجنب أنفسنا إياها على رغم جهدنا . ومثل هذه المراكز التربوية يجب أن يجمع فيها أناس يريدون أن يخدموا

الإسلام ، فيربوا تربية حسنة قويمة لهذه الخدمة . وليكن تخطيط العمل في هذه المراكز كالذي كان لعمل النبي ﷺ . فيقسم العمل - كمثله - على أربعة شعب ، ويدبر الأمر ليصوغ الادمية في قالب الإسلامية - كمثله - في كل شعبة من تلك الشعب !.

١ - فلتكن هناك شعبة تشتمل على رجال ذوي كفاءة علمية عالية . فأما الذين كانوا منهم نابغين في العلوم الدينية ، فيعلّمون اللغات الغربية والعلوم الجديدة ، وأما الذين كانوا متخرجين في العلوم الجديدة فيعلّمون اللغة العربية والعلوم الإسلامية . ثم يدرس هؤلاء كلهم القرآن والسنة دراسة غائرة ليتفقهوا في الدين ويتبصروا فيه ، ويفرّقوا بعد ذلك على فئات مختلفة ، تتناول كل فئة منهم شعبة واحدة من شعب العلم ، فترتب فيها مباديء الإسلام ونظرياته على النمط العصري الحديث ، وتفهم مسائل الحياة الجديدة وتلتمس حلها بحسب مباديء الإسلام ، وتنتزع وجهة النظر الغربية التي قد تأصلت في أساس العلوم ، وتشكلها من جديد من وجهة نظر الإسلام ، وتُخرج بتحقيقها إنتاجاً علمياً صالحاً يملك من القوة والتأثير ما يحدث به ثورة فكرية في تأييد الإسلام .

٢ - ولتكن بعد هذه شعبة ثانية ، يعنى فيها بإعداد « العاملين » الأكفاء لخدمة الإسلام ، ممن يجب أن يكونوا ذوي الأخلاق الطاهرة ، والسيرة القوية ، والعزم الراسخ ،

مستعدين لبذل كل ما يملكون في سبيل غايتهم ، ويكونوا منظمين في حزب ثوري قوي ، يعيشون أبسط الحياة ، ويألفون الكد والكدح ، وفي أعمالهم وسلوكهم العملي كسلوك المسلمين الراسخين في الدين . فلينهض هذا الحزب ببرنامج لبناء نظام اجتماعي (Social Order) جديد ، وتعمير حضارة جديدة على مبادىء الاسلام ، وليعرض برنامجه على عامة خلق الله يتذرع بذلك إلى إحراز أكثر ما يكون من القوة السياسية ، حتى يقبض آخر الأمر على آلة الحكومة ليكون من الميسور تحويل حكم الظلم والعدوان إلى حكم العدل والنصفة .

٣ ـ والشعبة الثالثة يجب أن تشتمل على الذين يريدون أن يمكثوا في مركز التربية مدة قليلة ، ثم يرجعوا ، فهؤلاء ينبغي أن يحلوا بالعلم الصحيح والتربية الاخلاقية ، ثم يخلى سبيلهم ليذهبوا ويعيشوا حيثما شاؤوا ، ولكن عيشة إسلامية مستقيمة ، ويؤثروا في غيرهم بدل أن يتأثروا بهم ، ويكونوا أشداء في مبادئهم راسخين في عقائدهم ولا يحيوا حياة لا تستهدف غاية ، بل يجب أن تكون أمامهم غاية للحياة في كل حال ، ويكتسبوا أرزاقهم بوسائل شرعية طيبة . ويكونوا مستعدين في كل حين لمعاضدة العاملين في الشعبة الثانية التي ذكرت آنفاً ويمدوهم أيضاً بالأموال ، ويشاركوهم فعلاً في الكفاح ، وحيثما عاشوا يعملوا على إعداد الجو هناك لمناصرة الحزب الثوري .

٤ - والشعبة الرابعة : يجب أن تضم المسلمين وغيرالمسلمين الذين يريدون أن يأتوا مركز التربية ليستفيدوا منه في المسائل العلمية ، أو هم يريدون أن يطالعوا الحياة كما هي فيه . فهؤلاء يجب أن يتاح لهم كل ما يمكن من الفرص لذلك ، لكي يرجعوا حاملين في أنفسهم تأثراً عميقاً بالإسلام وتعليمه .

هذه خطوط بارزة للنظام الذي هو عندنا بمثابة المقدمة اللازمة لأحداث الثورة الإسلامية . ويتوقف نجاح هذا النظام تماماً على أن يأتي أكثر ما يكون مماثلاً في روحه وجوهره لذلك النظام الأنموذجي الذي أقامه النبي ﷺ في المدينة الطيبة .

ولا يفهمن أحد من هذا الامتثال لحياة المدينة الطيبة أيام النبي أننا نقصد المماثلة في المظاهر واللون الخارجي ، ونريد أن نرجع القهقرى من مرحلة التمدن هذه التي قد وصلت إليها الدنيا إلى مرحلة التمدن التي كانت عليها العرب قبل نيف وثلاثة عشر قرناً . إن هذا المفهوم لاتّباع الرسول وأصحابه بيِّن الخطأ وأكثر رجالنا الدينيين يستمدون منه خطأ هذا المفهوم لا غير . فأتباع السلف الصالح عندهم عبارة عن أن نلبس مثل ما كانوا يلبسون ، ونأكل ما كانوا يأكلون ، ونتبع الطراز الحياتي الذي كان يتبع في بيوتهم ، وأن نحاول الإبقاء على الحالة المدنية والحضارية التي كانت تسود عصرهم ، بصورة متحجرة (Fosstlized) إلى يوم القيامة . وأن نغمض

أعيننا عن كل ما يحدث من تطور فيما هو خارج بيئتنا من العالم ، ونضرب حول عقولنا وحياتنا سياجا لا تدخل فيه حركة الزمان ولا تطورات العصر . إن تصور الاتباع هذا الذي لم يزل غالبا على أذهان رجالنا الدينيين منذ قرون من التقهقر والانحطاط يناقض في الحقيقة روح الإسلام . وليس من التعليم الاسلامي في شيء أن نعيش في هذه الدنيا كعاديات أثرية تحيا وتتنفس ، ونعرض حياتنا على أهل الدنيا كمسرحية تاريخية للتمدن البائد . إن الإسلام لا يعلمنا الرهبانية ولا التعبد للقديم ، ولا من غايته أن يخرج في الدنيا أمة لا تنفك تحاول منع التطور والارتقاء . بل هو يريد ـ بخلاف هذا ـ أن يخرج أمة تعمل على عدل التطور والارتقاء عن الطرق الخاطئة وتسييره على الطريق القاصد الصحيح فهو لا يعطينا قالباً بعينه لا يتبدل ، بل هو يزودنا بالروح ويريد منا أن نصب هذا الروح في كل ما يتجدد من قالب للحياة تبعاً لتغير الزمان والمكان إلى يوم القيامة . ولما كنا جُعلنا في هذه الدنيا خير أمة فمن رسالتنا في هذه الدنيا ـ من حيث أننا مسلمون ـ أن نتولى القيادة والزعامة ، لا أن ننجر كساقة الجيش (Rear - Guarb) وراء السائرين في طريق الارتقاء إلى الأمام وقد خلقنا حقاً لأن نكون مقدمة الجيش ، ويكمن سر كوننا خير أمة في كلمة « أخرجت للناس » .

إن الأسوة الحقيقية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، التي يجب علينا أن نتبعها الآن هي أنهم استخدموا القوانين الطبيعية تبعاً

للقوانين الشرعية . فقاموا بخلافة الله في الأرض أحسن ما يكون من القيام فالتمدن الذي كان يسود عصرهم حينئذ بث هؤلاء في قالبه روح الحضارة الإسلامية . وكل ما كان قد وقع تحت يد الإنسان من القوى الطبيعية اتخذه هؤلاء خادما لتلك الحضارة . وكل ما جاء به التمدن من وسائل الغلبة والرقي استعمله هؤلاء قبل أن يستعمله الكفار والمشركون لكيما تكون حضارة القائمين بخلافة الله غالبة على حضارة الباغين على الله . وهذا هو الذي كان علمهم الله تعالى في كتابه ، حيث قال : ﴿ وأعدُّوا لهمْ ما استطعتم ﴾ . فكانوا أرشدوا إلى أن المسلم هو أحق وأجدر من الكافر باستخدام تلك القوى التي خلقها الله ، بل المسلم هو وحده الحقيق بذلك .

وبناء على ذلك كله فإن الصورة الصحيحة لاتباع النبي وأصحابه اليوم هي أن نأخذ الوسائل التي قد تجددت بفضل ارتقاء التمدن واكتشافات القوانين الطبيعية فنعمل على تسخيرها للحضارة الإسلامية كما فعلوا في العصور الأولى . إن ما هنالك من النجس والدنس ليس في هذه الوسائل بذاتها ، بل هو في تلك الحضارة المادية الإلحادية التي تروج وتنتشر بقوة هذه الوسائل . فالإذاعة ليست بشيء نجس في نفسها ، وإنما النجس هو الحضارة التي تجعل مدير الإذاعة ناشرا للخلاعة والمجون ومناديا للأكاذيب والأضاليل . وليست

الطائرة بشيء نجس ، وإنما النجس هو الحضارة التي تستخدم مَلك الهواء هذا تبعاً لمغريات الشيطان بدلاً من مرضاة الرحمن . وليست السينما كذلك شيئاً نجساً ، وإنما النجس في الحقيقة هو الحضارة التي تستعمل هذه القوة الفعالة من تخليق الله لإشاعة الوقاحة والفحشاء في الناس . وليس من السبب في رواج هذه الحضارة النجسة وانتشارها في الأرض سوى أن أصحابها لا يزالون يستخدمون لنشرها وترويجها كل ما خلق الله من القوى الطبيعية التي اكتشفها الإنسان إلى الآن . فإن كنا نريد الآن أن نقوم بهذا الواجب الذي يقع علينا لنشر الحضارة الإلّهية في الأرض ، فلا بد أن نستخدم نحن أيضاً تلك القوى الطبيعية . إن تلك القوى مثلها كمثل السيف كل من استعملها انتصر ، سواء أكان استعماله لغرض خبيث أو مقصد شريف . وإن اقتنع ذو المقصد الشريف بشرافة مقصده ونبله ، ولم يستعمل السيف ، فهذا خطؤه ولا بد أن يلقى عاقبته في مضمار الحياة . لأن سنة الله في عالم الأسباب والمسببات هذا لم تكن لتبدل من أجل فرد من الأفراد أو أمة من الأمم .

ويتضح جلياً من هذا البيان أن هذه الحركة التي أقدم فكرتها ليست بحركة رجعية (Reactionary) ولا هي حركة تقدمية تستهدف الرقي المادي فحسب . وإن المركز التربوي الذي أطمح إليه ببصري لا أنموذج له في (جروكـل

كانجري)[١] ولا في (صومعة ستياجرا)[١] ولا في مدرسة (شانتي نكيتن)[١] ولا في معهد (ديال باغ)[١] ، وكذلك إن الحزب الثوري الذي أتخيله في ذهني لا انموذج له في (الحزب الفاشي الإيطالي) ولا في (الحزب الاشتراكي الألماني) . وإن كان لذلك المركز وهذا الحزب أنموذج في شيء فما هو إلا مدينة (الرسول) و (حزب الله) . الذي تم تشكيله على يد النبي العربي ﷺ .

(١) كل هذه مؤسسات تعليمية أقامها الهنادك القوميون في الهند لتربية الجيل الناشىء منهم على الحماس القومي والحضارة الوطنية الهندكية في تلك العصور . وكان من الثمرات الملموسة لهذه المعاهد في الشباب الهندكي ما جعل بعض رجال المسلمين ينظرون إليها بعين الإعجاب ويودون لو يقيمون أمثالها عندهم .

المحتويات

هذا الكتاب

ما تزال قضية الاقتباس عن الحضارة الغربية ، من أخطر المسائل التي اعترضت وما زالت تعترض الفكر الإسلامي المعاصر .

والأستاذ أبو الأعلى ، في كتابه هذا ، يدعو المسلمين إلى الثورة الإصلاحية ، عبر تغيير المفاهيم التي تلقفوها من الغرب ، ويحثهم على العودة إلى الاصالة الإسلامية ، واتباع الدعوة الإسلامية كما قام بها الرسول الأعظم ، ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الراشدون .

إنه يدعو إلى نقض برامج التعليم وإعادتها إلى أصالتها الدينية مع الأخذ بالمفيد من حضارة الغرب التي لا تتعارض والإسلام ، ومشدداً في الوقت ذاته ، على أن يكون الإصلاح بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، والبعد عن الفظاظة .

الدار السعودية للنشر والتوزيع